

من غزوة بدر الكبرى
إلى غزوة بدر الرياض



الفوائد العسكرية من عمق التاريخ

بقلم

عبد الله الحاج

حفظه الله

مفكرة الفلوجة الإسلامية

Al-Fallujah

قسم الدراسات التاريخية والتوصيات الاستراتيجية

محرم ١٤٣١ هـ - يناير ٢٠١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد القهار والصلاة والسلام على الضحوك القتال...

يعتبر أسلوب السرد التاريخي من أجود الأساليب التي يستخلص بها العبر والفوائد ، فالحياة معمل قامت به العديد من التجارب الناجحة والفاشلة على حد سواء، ولا يستفيد من ذلك إلا من عرف كيف نجحت هذه التجربة وكيف فشلت تلك !
والناظر في المعارك التي تمت في العهد النبوي يرى أن الجيش الإسلامي قد مر بجميع حالات الحرب من هجوم ودفاع وحصار وتربى من خلالها ، وبما أن السيرة النبوية و الحوادث والمواقف التي مر بها النبي صلى الله عليه وسلم هي من حددت لنا معالم السنة التي أمرنا باتباعها كالصلاة التي قال عنها "صلوا كما رأيتموني أصلي" والحج الذي قال عنه "خذوا عني مناسككم" فإنها أيضا معين لا ينضب لتربية الأجيال وأصحاب الاختصاص كل في مجاله .
فالساسة لن يجدوا أفضل مما ساس به النبي صلى الله عليه وسلم الأمة وبما عامل به أعداءه وبما قوى به أركان دولته ، والمربون لن يجدوا منهجا تربويا يراعي النفس البشرية كالمنهج الرباني الذي ربى به النبي صلى الله عليه وسلم أمته وأصحابه وأزواجه وأبناءه ، وهذا نفسه ينطبق على منهجه الرباني في حروبه التي خاضها والتي أحدثت في نفوس أصحابه معاني كبيرة كانت كفيلة بتمكين أصحابها من فتح المشرق والمغرب ما داموا يمشون بها على الأرض ، فحري بنا إذن أن نبحث عن هذه المعاني والمبادئ التي قادتهم إلى تلك الفتوح العظيمة سواء كانت هذه المعاني عسكرية أم إدارية أم أخلاقية وسواء كانت في حالة النصر أو الهزيمة .

ولو دققنا النظر في كل معركة من معارك المسلمين لوجدنا العديد من الفوائد ولكن ليس الغرض من هذا الكتاب أن نتعرض للتحليل العسكري البحت و لكن يكفينا أن نبحث فيما يمكن أن تتركه هذه الغزوات من دروس ومعاني قيمة في نفوس من يتمعن فيها وهذا ما دعاني إلى تسمية الكتاب (في ظلال السيوف) حيث نتعلم من هذه الظلال أن ننطلق من حيث انتهى الآخرون وهذه هي الخطوة الأولى دائما قبل أي نجاح !

ولو أننا تناولنا هذه الغزوات بشكل منهجي كأن تكون دراسة تحليلية مبنية على أسس علمية ومشبعة بأحدث الأبحاث العسكرية لكان من الصعوبة أن يفهمها آحاد المجاهدين ولكن ميزة السرد التاريخي للفوائد العسكرية أنه أسلوب قصصي محبب للنفوس ، وأميل بشدة إلى أن هذا الأسلوب محبب للعرب خاصة لما جبلوا عليه من اهتمام شديد بالتاريخ القديم والحديث وبما قبل الإسلام

وبعده ، ونحن عندما نجلس في مدرسة التاريخ فإننا نتعلم مادة الجهاد في مختبر الحياة بشكل عملي بعيدا عن النظريات والأفكار المجملة !

فالجهاد ذروة سنام الإسلام وفيه من الفضائل ما ليس في غيره من أبواب الطاعة ، والمسلم عندما يطرق إلى سمعه تلك الأحاديث الجميلة في فضل الجهاد وأهله وما أعد الله لهم من الثواب والنعيم المقيم وكيف أن الشهيد لا يشعر بألم القتل وأن رائحة دمه كالمسك وأنه حي عند ربه يرزق ويفرح بما آتاه الله ويستبشر بمن خلفه . . . هذه المبشرات تجعله يستصغر أي عائق دونها ويضحي بكل شيء من أجل الفوز بها فيطير فرحا بهذا الكنز الذي دله الله عليه ! في مقابل هذه الأفكار الجميلة توجد الأفكار المؤلمة لأن الجهاد عبادة شاقة على النفس والبدن على حد سواء ، فالنفس تكره مواطن التلف كما أخبر سبحانه وتعالى {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ} فيجب قصرها عليه ولا يتأتى ذلك إلا لمن روض نفسه على طاعة الله ودخل هذه العبادة من بابها المتين وهو أن تقاتل عن عقيدة راسخة ! فتكون مفاهيم الجهاد واضحة عندك منذ البداية وعندها فقط لن تجبن عن القتال لأن الجبن لن يؤخر الموت ولن تجزع من الجراح لأن ما أصابك لم يكن ليخطئك ولن تتراجع عن الجهاد لأن في الجهاد حياة الأمة {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ} والمجاهد عندما يأخذ هذه العبادة بكل ما فيها من رجاء وألم وصبر ومتطلبات تصبح عنده نظرة شمولية تساعده على الاستمرار والثبات على الطريق وتصبح عنده مناعة فكرية ضد فيروسات الشبهات أو الإحباطات المصاحبة للتجارب الفاشلة ويتضح عنده الفرق بين جمال الفكرة وواقعيتها كما يسميها الشيخ أبو قتادة الفلسطيني حفظه الله تعالى .

ويمكن لنا من خلال مجموع هذه التصورات أن نبني شخصية المجاهد المثالي التي نطمع أن تكون بين صفوفنا والتي ستؤثر هي بدورها فيمن حولها.

وقد اخترت كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير كمرجع أساسي لأحداث الغزوات لقيمة هذا الكتاب التاريخية ولدقة ابن الأثير في سرد الأحداث ، وفيما يلي أضع بين يدي القارئ الكريم الجزء الأول من كتاب (في ظلال السيوف) والذي نتناول فيه بعض أهم المعارك العسكرية في الخمسمائة سنة الأولى من الهجرة النبوية ، وأسأل الله أن يعين على إتمام البقية على الوجه الذي يرضيه وأن يجعل هذا العمل سهما صائبا في سبيله وأن يجعله رفعا لهمم المؤمنين وغيظا وحسرة في قلوب الكافرين والحمد لله رب العالمين .

عبدالله الحاج

((فـي ظلال الـسيـوف))

من غزوة بـدر الـكبـرى
إلـى غزوة بـدر الـريـاض
فـوائـد عسكريـة من عمق الـتـاريـخ

الجزء الأول

1 - غزوة بدر

كانت بدر أولى الغزوات الكبرى في تاريخ الإسلام ، فما عسى أن يكون الدرس الأول الذي يجب أن يتربى عليه الجيل الأول من المجاهدين والذي سيكون منـهجا لمن بعدهم من حملة الراية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؟

قال ابن الأثير رحمه الله :

وفي السنة الثانية كانت وقعة بدر الكبرى في شهر رمضان في السابع عشر وقيل التاسع عشر وكانت يوم الجمعة. وكان سببها قتل عمرو بن الحضرمي وإقبال أبي سفيان بن حرب في عير لقريش عظيمة من الشام وفيها أموال كثيرة ومعها ثلاثون رجلًا أو أربعون وقيل: قريبًا من سبعين رجلًا من قريش منهم: مخرمة بن نوفل الزهري وعمرو بن العاص فلما سمع بهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ندب المسلمين إليهم وقال: "هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها".

فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم وذلك لأنهم لم يظنوا أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يلقى حربًا.

وكان أبو سفيان قد سمع أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يريده فحذر واستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكة يستنفر قريشًا ويخبرهم الخبر فخرج ضمضم إلى مكة.

وكانت عاتكة بنت عبد المطلب قد رأت قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث ليالٍ رؤيا أفزعتها فقصتها على أخيها العباس واستكتمته خبرها قالت: رأيت راكبًا على بعير له حتى وقَف بالأبطح ثم صرخ بأعلى صوته: أن انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث! قالت: فأرى الناس قد اجتمعوا إليه ثم دخل المسجد فمثل بعيره على الكعبة ثم صرخ مثلها ثم مثل بعيره على رأس أبي قبيس فصرخ مثلها ثم

أخذ صخرة عظيمة وأرسلها فلما كانت بأسفل الوادي ارفضت فما بقي بيت من مكة إلا دخله فلقة منها.فخرج العباس فلقي الوليد بن عتبة بن ربيعة وكان صديقه فذكرها له واستكتمه ذلك فذكرها الوليد لأبيه عتبة ففشا الخبر فلقي أبو جهل العباس فقال له: يا أبا الفضل أقبل إلينا.

قال: فلما فرغت من طوافي أقبلت إليه فقال لي: متى حدثت فيكم هذه النبية وذكر رؤيا عاتكة ثم قال: ما رضيتم أن تتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم! فسنتربص بكم هذه الثلاث فإن يكن حقًا وإلا كتبنا عليكم أنكم أكذب أهل بيت في العرب.

قال العباس: فما كان مني إليه إلا أني جحدت ذلك وأنكرته فلما أمسيت أتاني نساء بني عبد المطلب وقلن لي: أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم وقد تناول نساءكم ولم تنكر عليه ذلك! قال قلت: والله كان ذلك ولأتعرضن له فإن عاد كفيتكموه.

قال: فغدوت اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وأنا مغضب أحب أن أدركه فرأيته في المسجد فمشيت نحوه أتعرض له ليعود فأوقع به فخرج نحو باب المسجد يشتد قال قلت: ما باله قاتله الله! أكل هذا فرقًا من أن أشاتمه! وإذا هو قد سمع ما لم أسمع صوت ضمضم بن عمرو وهو يصرخ ببطن الوادي واقفًا على بعيره قد جدعه وحول رحله وشق قميصه وهو يقول: يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة! أموالكم مع أبي سفيان قد عرض له محمد وأصحابه لا أدري إن تدركوها الغوث الغوث! فشغلني عنه وشغله عني.قال: فتجهز الناس سراعًا ولم يتخلف من أشرافهم أحدٌ إلا أبا لهب وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة وعزم أمية بن خلف الجمحي على القعود فإنه كان شيخًا ثقيلًا بطيئًا فأتاه عقبة بن أبي معيط بمجمرة فيها نار وما يتبخر به وقال: يا أبا علي استجمر فإنما أنت من النساء.

فقال: قبحك الله وقبح ما جئت به! وتجهز وخرج معهم.

وعزم عتبة بن ربيعة أيضًا على القعود فقال له أخوه شيبة: إن فارقنا قومنا كان ذلك سبة علينا فامض مع قومك فمشى معهم.

فلما أجمعوا على المسير ذكروا ما بينهم وبين بكر بن عبد مناة بن كنانة ابن الحارث فخافوا أن يؤتوا من خلفهم فجاءهم إبليس في صورة سراقة بن جعشم المدلجي وكان من أشراف كنانة وقال: أنا جار لكم فاخرجوا سراعًا.

وكانوا تسعمائة وخمسين رجلًا وقيل: كانوا ألف رجل وكانت خيلهم مائة فرس فنجا منها سبعون فرسًا وغنم المسلمون ثلاثين فرسًا وكان مع المشركين سبعمائة بعير.

وكان مسير رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لثلاث ليال خلون من شهر رمضان في ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا وقيل أربعة عشر وقيل بضعة عشر رجلًا وقيل ثمانية عشر وقيل كانوا سبعة وسبعين من المهاجرين وقيل ثلاثة وثمانون والباقون من الأنصار فقيل: جميع من ضرب له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بسهم من المهاجرين ثلاثة وثمانون رجلًا ومن الأوس أحد وسبعون رجلًا ومن الخزرج مائة وسبعون رجلًا ولم يكن فيهم غير فارسين أحدهما المقداد بن عمرو الكندي ولا خلاف فيه والثاني قيل كان الزبير بن العوام وقيل كان مرثد بن أبي مرثد وقيل المقداد وحده

وكانت الإبل سبعين بعيرًا فكانوا يتعاقبون عليها البعير بين الرجلين والثلاثة والأربعة فكان بين النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلي وزيد بن حارثة بعير وبين أبي بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف بعير وعلى مثل هذا.

وكان فرس المقداد اسمه سبحة وفرس الزبير اسمه السيل وكان لواؤه مع مصعب بن عمير بن عبد الدار ورأيته مع علي بن أبي طالب وعلى الساقة قيس بن أبي صعصعة الأنصاري.

فلما كان قريبًا من الصفراء بعث بسبس بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء الجهنيين يتجسسان الأخبار عن أبي سفيان ثم ارتحل رسول الله صلى الله عيه وسلم وترك الصفراء يسارًا وعاد إليه بسبس بن عمرو ويخبره أن العير قد قاربت بدرًا ولم يكن عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمين علم بمسير قريش لمنع عيرهم وكان قد بعث عليًا والزبير وسعدًا يلتمسون له الخبر ببدر فأصابوا راوية لقريش فيهم أسلم غلام بني الجحجاح وأبو يسار غلام بني العاص.

فأتوا بهما النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو قائم يصلي فسألوهما فقالا: نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء فكره القوم خبرهما وضربوهما ليخبروهما عن أبي سفيان.

فقالا: نحن لأبي سفيان فتركوهما.

وفرغ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الصلاة وقال: "إذا صدقاكم ضربتموهما وإذا كذباكم تركتموهما صدقا إنهما لقريش، أخبراني أين قريش؟" قالا: هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كم القوم" قالا: كثير.

قال: "كم عدتهم" قالا: لا ندري.

قال: "كم ينحرون" قالا: يومًا تسعًا ويومًا عشرًا.

قال: "القوم بين تسعمائة إلى الألف".

ثم قال لهما: "فمن فيهم من أشراف قريش" قالا: عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد وأبو البختري بن هشام وحكيم بن حزام والحارث بن عامر وطعيمة بن عدي والنضر بن الحارث وزمعة بن الأسود وأبو جهل وأمية بن خلف ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وسهيل بن عمرو وعمرو بن عبد ود.

فأقبل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أصحابه وقال: "هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها".

ثم استشار أصحابه فقال أبو بكر فأحسن ثم قال عمر فأحسن ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: {فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ} [المائدة: 24]. ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون

فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد _يعني مدينة الحبشة_ لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه.

فدعا لهم بخير ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أشيروا علي أيها الناس" وإنما يريد الأنصار لأنهم كانوا عدد الناس وخاف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة وليس عيهم أن يسير بهم.

فقال له سعد بن معاذ: لكأنك تريدنا يا رسول الله قال: "أجل".

قال: قد آمنا بك وصدقناك وأعطيناك عهودنا فامض يا رسول الله لما أمرت فوالذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لنخوضنه معك وما نكره أن تكون تلقى العدو بنا غدًا إنا لصبرٌ عند الحرب صدقٌ عند اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله! فسار رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: "أبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم".

ثم انحط على بدر فنزل قريبًا منها.

وكان أبو سفيان قد ساحل وترك بدرًا يسارًا ثم أسرع فنجا فلما رأى أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش وهم بالجحفة: إن الله قد نجى عيركم وأموالكم فارجعوا.

فقال أبو جهل بن هشام: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا _وكان بدر موسمًا من مواسم العرب تجتمع لهم بها سوق كل عام_ فنقيم بها ثلاثًا فننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبدًا.

فقال الأخنس بن شريق الثقفي وكان حليفًا لبني زهرة وهم بالجحفة: يا بني زهرة قد نجى الله أموالكم وصاحبكم فارجعوا.

فرجعوا فلم يشهدها زهري ولا عدوي وشهدها سائر بطون قريش.

ولما كانت قريش بالجحفة رأى جهيم بن الصلت بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف رؤيا فقال: إني رأيت فيما يرى النائم رجلًا أقبل على فرس ومعه بعير له فقال: قتل عتبة وشيبة وأبو جهل وغيرهم ممن قتل يومئذ ورأيته ضرب لبة بعيرة ثم أرسله في العسكر فما بقي خباء إلا أصابه من دمه.

فقال أبو جهل: وهذا أيضًا نبي من بني المطلب سيعلم غدًا من المقتول.

وكان بين طالب بن أبي طالب وهو في القوم وبين بعض قريش محاورةٌ فقالوا: والله قد عرفنا أن هواكم مع محمد.

فرجع طالب إلى مكة فيمن رجع وقيل: إنما كان خرج كرهًا فلم يوجد في الأسرى ولا في القتلى ولا فيمن رجع إلى مكة وهو الذي يقول: يا ربّ إمّا يغزونّ طالب في مقنب من هذه المقانب فيكن المسلوب غير السّالب وليكن المغلوب غير الغالب ومضت قريش حتى نزلت بالعدوة القصوى من الوادي وبعث الله السماء وكان الوادي دهسًا فأصاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه منه ما لبد لهم الأرض ولم يمنعهم المسير وأصاب قريشًا منه ما لم يقدروا على أن يرحلوا معه.

فخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يبادرهم إلى الماء حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزله فقال الحباب بن المنذر بن الجموح: يا رسول الله! أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخره أم هو الرأي والحرب والمكيدة قال: "بل هو الرأي والحرب والمكيدة".

قال: يا رسول الله فإن هذا ليس لك بمنزل انهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء سواه من القوم فننزله ثم نعور ما وراءه من القلب ثم نبني عليه حوضًا ونملأه ماء فنشرب ماء ولا يشربون ثم نقاتلهم.

ففعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك.

فلما نزل جاءه سعد بن معاذ فقال: يا رسول الله نبني لك عريشًا من جريد فتكون فيه ونترك عندك ركائبك ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا الله عليهم كان ذلك مما أحببناه وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بما وراءنا من قومنا فقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد حبًا لك منهم ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك يمنعك الله بهم يناصحونك ويحاربون معك.

فأثنى عليه خيرًا ثم بني لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عريشٌ وأقبلت قريش بخيلائها وفخرها فلما رآها قال: "اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك! اللهم فنصرك الذي وعدتني! اللهم أحنهم الغداة".

ورأى عتبة بن ربيعة على جمل أحمر فقال: "إن يكن عند أحد من القوم خيرٌ فعند صاحب الجمل الأحمر إن يطيعوه يرشدوا".

وكان خفاف بن إيماء بن رحضة الغفاري أو أبوه إيماء بعث إلى قريش حين مروا به ابنًا له بجزائر أهداها لهم وعرض عليهم المدد بالرجال والسلاح فقالت قريش: إن كنا إنما نقاتل الناس فما بنا من ضعف وإن كنا نقاتل الله كما زعم محمد فما لأحد بالله طاقة.

فلما نزلت قريش أقبل جماعةٌ منهم حكيم بن حزام حتى وردوا حوض النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اتركوهم"، فما شرب منه رجل إلا قتل يومئذٍ إلا حكيم نجا على فرس له يقال له الوجيه وأسلم بعد ذلك فحسن إسلامه وكان يقول إذا اجتهد في يمينه: لا والذي نجاني يوم بدر.

ولما اطمأنت قريش بعثوا عمرو بن وهب الجمحي ليحزر المسلمين فجال بفرسه حولهم ثم عاد فقال: هم ثلاثمائة يزيدون قليلًا أو ينقصون ولقد رأيت الولايا تحمل المنايا نواضح يثرب تحمل الموت الناقع ليس لهم منعة إلا سيوفهم والله لا يقتل رجل منهم إلا يقتل رجلًا منكم فإذا أصابوا أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك فروا رأيكم.فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في القوم فأتى

عتبة بن ربيعة فقال: يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها هل لك أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر قال: وما ذاك قال: ترجع بالناس وتحمل دم حليفك عمرو بن الحضرمي.

قال: قد فعلت علي دمه وما أصيب من ماله فأت ابن الحنظلية يعني أبا جهل فلا أخشى أن يفسد أمر الناس غيره.

فقام عتبة في الناس فقال: إنكم ما تصنعون بأن تلقوا محمدًا وأصحابه شيئًا والله لئن أصبتموهم لا يزال رجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلًا من عشيرته.

قال حكيم بن حزام: فانطلقت إلى أبي جهل فوجدته قد نثل درعًا وهو يهيئها فأعلمته ما قال عتبة فقال: انتفخ والله سحره حين رأى محمدًا وأصحابه والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد وما بعتبة ما قال ولكن رأى ابنه أبا حذيفة فيهم وقد خافكم عليه.

ثم بعث إلى عامر بن الحضرمي فقال له: هذا حليفك يريد أن يرجع إلى مكة بالناس وقد رأيت ثأرك بعينك فانشد خفرتك ومقتل أخيك.

فقام عامر وصرخ: واعمراه واعمراه! فحميت الحرب واستوسق الناس على الشر.

فلما بلغ عتبة قول أبي جهل: انتفخ سحره قال: سيعلم المصفر استه من انتفخ سحره أنا أم هو! ثم التمس بيضة يدخلها رأسه فما وجد من عظم هامته فاعتجر ببرد له.وخرج الأسود بن عبد الأسد المخزومي وكان سيئ الخلق فقال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم ولأهدمنه أو لأموتن دونه.

فخرج إليه حمزة فضربه فأطن قدمه بنصف ساقه فوقع على الأرض ثم حبا إلى الحوض فاقتحم فيه ليبر يمينه وتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض.

ثم خرج عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة ودعوا إلى المبارزة فخرج إليهم عوف ومعوذ ابنا عفراء وعبد الله بن رواحة كلهم من الأنصار فقالوا: من أنتم قالوا: من الأنصار.

فقالوا: أكفاء كرام وما لنا بكم من حاجة ليخرج إلينا أكفاؤنا من قومنا.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "قم يا حمزة قم يا عبيدة بن الحارث قم يا علي" فقاموا ودنا بعضهم من بعض فبارز عبيدة بن الحارث بن المطلب وكان أمير القوم عتبة وبارز حمزة شيبة وبارز علي الوليد فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله وأما علي فلم يمهل الوليد أن قتله واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما قد أثبت صاحبه وكر حمزة وعلي على عتبة فقتلاه واحتملا عبيدة إلى أصحابه وقد قطعت رجله فلما أتوا به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: ألست شهيدًا يا رسول الله قال:"بلى".

قال: لو رآني أبو طالب لعلم أننا أحق منه بقوله: ونسلمه حتى نصرّع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل ثم مات وتزاحف القوم ودنا بعضهم من بعض وأبو جهل يقول: اللهم أقطعنا للرحم وآتانا

بما لم وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أمر أصحابه أن لا يحملوا حتى يأمرهم وقال: "إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل".

ونزل في الريش ومعه أبو بكر وهو يدعو ويقول: "اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض اللهم أنجز لي ما وعدتني".

ولم يزل حتى سقط رداؤه فوضعه عليه أبو بكر ثم قال له: كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك.

وأغفى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في العريش إغفاءة وانتبه ثم قال: "يا أبا بكر أتاك نصر الله هذا جبرائيل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع" وأنزل الله: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ} الآية [الأنفال: 9].

وخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يقول: {سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ} [القمر: 45].
وحرض المسلمين وقال: "والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة".

فقال عمير بن الحمام الأنصاري وبيده تمرات يأكلهن: بخ بخ! ما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء! ثم ألقى التمرات من يده وقاتل حتى قتل.

ورمي مهجعٌ مولى عمر بن الخطاب بسهم فقتل فكان أول قتيل.

ثم رمي حارثة بن سراقة الأنصاري فقتل وقاتل عوف بن عفراء حتى قتل واقتتل الناس قتالًا شديدًا.

فأخذ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حفنة من التراب ورمى بها قريشًا وقال: "شاهت الوجوه". ثم قال لأصحابه: "شدوا عليهم" .
ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في العريش وسعد بن معاذ قائم على باب العريش متوشحًا بالسيف في نفر من الأنصار يحرسون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخافون عليه كرة العدو فرأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس من الأسر فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لكأنك تكره ذلك يا سعد" قال: أجل يا رسول الله أول وقعة أوقعها الله بالمشركين كان الإثخان أحب إلي من استبقاء الرجال.

وكان أول من لقي أبا جهل معاذ بن عمرو بن الجموح وقريش محيطة به يقولون لا يخلص إلى أبي الحكم قال معاذ: فجعلته من شأني فلما أمكنني حملت عليه فضربته ضربة أطنت قدمه بنصف ساقه وضربني ابنه عكرمة فطرح يدي من عاتقي فتعلقت بجلدة من جثتي فقاتلت عامة يومي وإني لأسحبها خلفي فلما آذتني جعلت عليها رجلي ثم تمطيت حتى طرحتها.

وعاش معاذ إلى زمان عثمان ـ رضي الله عنه ـ.

ثم مر بأبي جهل معوذ بن عفراء فضربه حتى أثبته وتركه وبه رمق ثم مر به ابن مسعود وقد أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يلتمس في القتلى فوجده بآخر رمق قال: فوضعت رجلي على عنقه ثم قلت: هل أخزاك الله يا عدو الله قال: وبماذا أخزاني أعمد من رجل قتلتموه أخبرني لمن الدائرة قلت: لله ولرسوله.

فقال له أبو جهل: لقد ارتقيت يا رويعي الغنم مرتقىً صعبًا! قال: فقلت: إني قاتلك.

قال: ما أنت بأول عبد قتل سيده أما إن أشد شيء لقيته اليوم قتلك إياي وإلا قتلني رجل من المطيبين الأحلاف.

فضربه عبد الله فوقع رأسه بين رجليه فحمله إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسجد شكرًا لله.

وكان عبد الرحمن بن عوف قد غنم أدراعًا فمر بأمية بن خلف وابنه علي فقالا له: نحن خير لك من هذه الأدراع.

فطرح الأدراع وأخذ بيده وبيد ابنه ومشى بهما فقال له أمية: من الرجل المعلم بريشة نعامة في صدره قال: حمزة بن عبد المطلب.

قال أمية: هو الذي فعل بنا الأفاعيل.

ورأى بلال أمية وكان يعذبه بمكة فيخرج به إلى رمضاء مكة فيضجعه على ظهره ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ويقول: لا تزال هكذا حتى تفارق دين محمد فيقول بلال: أحد أحد فلما رآه بلال قال: أمية! رأس الكفر! لا نجوت إن نجا! ثم صرخ: يا أنصار الله رأس الكفر رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا! فأحاط بهم المسلمون وقتل أمية وابنه علي وكان عبد الرحمن يقول: رحم الله بلالًا ذهبت أدراعي وفجعني بأسيري.

وقتل حنظلة بن أبي سفيان بن حرب قتله علي بن أبي طالب.

ولما انهزم المشركون أمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن لا يقتل أبو البختري بن هشام لأنه كان أكف القوم عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو بمكة وكان ممن اهتم في نقض الصحيفة فلقيه المجذر بن ذياد البلوي حليف الأنصار ومعه زميل له فقال له: إن رسول الله قد نهى عن قتلك.

فقال: وزميلي فقال المجذر: لا والله.

قال: إذًا والله لأموتن أنا وهو لا تتحدث نساء قريش أني تركت زميلي حرصًا على الحياة.

فقتله ثم أخبر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بخبره.

وجيء بالعباس أسره أبو اليسر وكان مجموعًا وكان العباس جسيمًا فقيل لأبي اليسر: كيف أسرته قال: أعانني عليه رجلٌ ما رأيته قبل ذلك بهيئة كذا وكذا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لقد أعانك عليه ملكٌ كريم".

ولما أمسى العباس مأسورًا بات رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ساهرًا أول ليله فقال له أصحابه: يا رسول الله ما لك لا تنام فقال: "سمعت تضور العباس في وثاقه فمنع مني النوم".

فقاموا إليه فأطلقوه فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لأصحابه يومئذ: "قد عرفت رجالًا من بني هاشم وغيرهم أخرجوا كرهًا فمن لقي منكم أحدًا من بني هاشم فلا يقتله ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله فإنه أخرج كرهًا".

فقال أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة: أنقتل أبناءنا وآباءنا وإخواننا ونترك العباس والله لئن لقيته لألحمنه بالسيف.

فبلغ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال لعمر: "يا أبا حفص أما تسمع قول أبي حذيفة أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف" فقال أبو حذيفة: لا أزال خائفًا من تلك الكلمة ولا يكفرها عني إلا الشهادة.

فقتل يوم اليمامة شهيدًا.

وقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لأصحابه: "قد رأيت جبرائيل وعلى ثناياه النقع".

فقال رجع من بني غفار: أقبلت أنا وابن عم لي فصعدنا جبلًا يشرف بنا على بدر ونحن مشركان ننظر لمن تكون الدائرة فننتهب فدنت منا سحابةٌ فسمعت فيها حمحمة الخيل وسمعت قائلًا يقول: أقدم حيزوم قال: فأما ابن عمي فمات مكانه وأما أنا فكدت أهلك فتماسكت.

وقال أبو داود المازني: إني لأتبع رجلًا من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل سيفي إليه فعرفت أنه قتله غيري.

وقال سهل بن حنيف: كان أحدنا يشير بسيفه إلى المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف.

فلما هزم الله المشركين وقتل منهم من قتل وأسر من أسر أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن تطرح القتلى في القليب فطرحوا فيه إلا أمية بن خلف فإنه انتفخ فيدرعه فملأها فذهبوا به ليخرجوه فتقطع وطرحوا عليه من التراب والحجارة ما غيبه ولما ألقوا في القليب وقف عليهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال: "يا أهل القليب بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم! كذبتموني وصدقني الناس!" ثم قال: "يا عتبة يا شيبة يا أمية بن خلف يا أبا جهلٍ بن هشام وعدد من كان في القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا فإني وجدت ما وعدني ربي حقًا".

فقال له أصحابه: أتكلم قومًا موتى فقال: "ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني".

انتهى .

أهمية وضوح المنهج

إن المتأمل لوقائع غزوة بدر وماسبقها وما تلاها من أحداث ليجد أنه أمام معين لا ينضب من الفوائد القيمة والمعاني النفيسة التي ما كانت لتؤثر وتؤتي ثمارها لولا أنها كانت في ذلك الزمن ومن خلال أولئك النفر وتحت راية ذلك النبي صلى الله عليه وسلم .

لقد خرجت قريش بكل قوتها " هذه مكة ألقت إليكم فلذات كبدها " وبمعونة الشيطان نفسه {وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ} في معركة مصيرية مع خير أهل الأرض والسماء "ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ من أفضل المسلمين ، قال : وكذلك من شهد بدرا من الملائكة " فكانت بالفعل معركة فاصلة بين صفوة أهل الإيمان ورؤوس أهل الكفر فاستحقت أن يسميها الله عز وجل يوم الفرقان ، فرقان بين الحق والباطل ، وبين أهل الحق وأهل الباطل وإن كانوا من بني جلدة واحدة !

لقد قدر الله تعالى أن تكون أول معركة في تاريخ الأمة بين أبناء العشيرة الواحدة والقبيلة الواحدة والعائلة إعلانا عن عقيدة الولاء والبراء مع أول قطرة دم في المعركة !

إن أهمية وضوح المنهج تكمن في أنها تقتل التردد في صدر المجاهد وتجعل الرؤية أوضح أمامه فينطلق بخطوات ثابتة نحو هدفه بلا التفات ولا توقف ، وإن أي غبش يعيق أو يعكر هذه الرؤية يجعل من السهل على قطاع الطريق إيقافه وتلقينه ما بجعبتهم من شبه ! فيجب أن تعلم ومنذ البداية : لمن تقاتل ؟ ومن تقاتل ؟ ولماذا تقاتل ؟

فالإجابات السليمة على هذه الأسئلة هي بمثابة درع سابغ على صدر المجاهد في أرض المعركة ، وفاقد أحد هذه الأجوبة هو فقط من يلقي السلاح أو يبتعد قليلا في أحسن الأحوال حتى يفهم ماذا حدث أو أين يقف ؟

جاء في السيرة أن النبي صلى الله عليه وسلم عرض نفسه على قبيلة شيبان أثناء بحثه عمن يؤويه وينصر دعوته لما رفضتها قريش ، فقالوا : إن هذا الأمر الذي تدعوا إليه مما تكرهه الملوك ! فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلي مياه العرب فعلنا ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما أسأتم في الرد إذ أفصحتم بالصدق ، وإن دين الله لن ينصره إلا من أحاطه من جميع جوانبه ! " .

فالحديث ظاهر الدلالة على أن نصرة الدين يجب أن تكون كاملة ، فلا تقاتل صنفا من الأعداء وتترك آخرا كمن يقاتل الصليبيين هذه الأيام ويرفض قتال المرتدين ! فالرسول صلى الله عليه وسلم رفض بيعة بني شيبان لأنهم رضوا بقتال العرب دون غيرهم !

ومن هنا نرى بوضوح أن وضوح العقيدة و المنهج و الراية يوم بدر كانت وراء ثبات الفئة المؤمنة القليلة في وجه تلك الفئة الكثيرة ، فلا غرابة إذا أن يسمي الله تعالى تلك الغزوة بالفرقان ولا غرابة أن يطلع إلى أهلها اطلاعة فيقول : "اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم" ! .

2 - غزوة أحد

تباينت الأقوال في غزوة أحد هل كانت نصرا أم هزيمة ؟ والحقيقة أنها كانت نصرا ولكن من نوع خاص ، نصرا لم يخلُ من جراح وجراح لم تخلُ من فوائد ! وصدق الله العظيم {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ} .

قال ابن الأثير رحمه الله :

وفيها في شوال لسبع ليالٍ خلون منه كانت وقعة أحد وقيل للنصف وكان الذي هاجها وقعة بدر فإنه لما أصيب من المشركين من أصيب ببدر مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وغيرهم ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم بها فكلموا أبا سفيان ومن كان له في تلك العير تجارة وسألوهم أن يعينوهم بذلك المال على حرب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليدركوا ثأرهم منهم ففعلوا وتجهز الناس وأرسلوا أربعة نفر وهم: عمرو بن العاص وهبيرة بن وهب وأبن الزبعرى وأبو عزة الجمحي فساروا في العرب ليستنفروهم فجمعوا جمعًا من ثقيف وكنانة وغيرهم واجتمعت قريش بأحابيشها ومن أطاعها من قبائل كنانة وتهامة ودعا جبير بن مطعم غلامه وحشي بن حرب وكان حبشيًا يقذف بالحربة قل ما يخطئ فقال له: اخرج مع الناس فإن قتلت عم محمد بعمي طعيمة بن عدي فأنت عتيق.

وخرجوا معهم بالظعن لئلا يفروا وكان أبو سفيان قائد الناس فخرج بزوجته هند بنت عتبة وغيره من رؤساء قريش خرجوا بنسائهم خرج عكرمة بن أبي جهل بزوجته أم حكيم بنت الحارث بن هشام وخرج الحارث بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة أخت خالد وخرج صفوان بن أمية ببريرة وقيل برزة بنت مسعود الثقفية أخت عروة بن مسعود وهي أم ابنه عبد الله بن صفوان وخرج عمرو بن العاص بريطة بنت منبه بن الحجاج وهي أم ولده عبد الله بن عمرو وخرج طلحة بن أبي طلحة بسلافة بنت سعد وهي أم بنيه مسافع والحلاس وكلاب وغيرهم.

وكان مع النساء الدفوف يبكين على قتلى بدر يحرضن بذلك المشركين.

وكان مع المشركين أبو عامر الراهب الأنصاري وكان خرج إلى مكة مباعدًا لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه خمسون غلامًا من الأوس وقيل كانوا خمسة عشر وكان يعد قريشًا أنه لو لقي محمدًا لم يتخلف عنه من الأوس رجلان.

فلما التقى الناس بأحد كان أبو عامر أول من لقي في الأحابيش وعبدان أهل مكة فنادى: يا معشر الأوس أنا أبو عامر.

فقالوا: فلا أنعم الله بك عينًا يا فاسق! فقال: لقد أصاب قومي بعدي شر قاتلهم قتالًا شديدًا حتى راضخهم بالحجارة.

وكانت هند كلما مرت بوحشي أو مر بها قالت له: يا أبا دسمة اشف واستشف وكان يكنى أبا دسمة.

فأقبلوا حتى نزلوا بعينين بجبل ببطن السبخة من قناة على شفير الوادي مما يلي المدينة.فلما سمع بهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمون قال: "إني رأيت بقرًا فأولتها خيرًا ورأيت في ذباب سيفي ثلماُ ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم فإن أقاموا بشر مقام وإن دخلوا علينا قاتلناهم فيها".

وكان رأي عبد الله بن أبي بن سلول مع رأي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكره الخروج وأشار بالخروج جماعة ممن استشهد يومئذٍ.

وأقامت قريش يوم الأربعاء والخميس والجمعة وخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين صلى الجمعة فالتقوا يوم السبت نصف شوال.

فلما لبس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سلاحه وخرج ندم الذين كانوا أشاروا بالخروج إلى قريش وقالوا: استكرهنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونشير عليه فالوحي يأتيه فيه فاعتذروا إليه وقالوا: اصنع ما شئت.

فقال:"لا ينبغي لنبي أن يلبس لامته فيضعها حتى يقاتل".

فخرج في ألف رجل واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم فلما كان بين المدينة وأحد عاد عبد الله بن أبي بثلث الناس فقال: "أطاعهم وعصاني" وكان من تبعه أهل النفاق والريب واتبعهم عبد الله بن حرام أخو بني سلمة يذكرهم الله أن لا يخذلوا نبيهم فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم وانصرفوا.

فقال: أبعدكم الله أعداء الله! فسيغني الله عنكم! وبقي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في سبعمائة فسار في حرة بني حارثة وبين أموالهم فمر بمال رجل من المنافقين يقال له مربع بن قيظي وكان ضرير البصر فلما سمع حس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه قام يحثي التراب في وجوههم ويقول: إن كنت رسول الله فإني لا أحل لك أن تدخل حائطي وأخذ حفنة من تراب في يده وقال: لو أعلم أني لا أصيب غيرك لضربت به وجهك.

فابتدروه ليقتلوه فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا تفعلوا فهذا الأعمى البصر والقلب.

فضربه سعد بن زيد بقوس فشجه.

وذب فرس بذنبه فأصاب كلاب سيف صاحبه فاستله فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سيوفكم فإني أرى السيوف ستسل اليوم".

وسار رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى نزل بعدوة الوادي وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وكان المشركون ثلاثة آلاف منهم سبعمائة دارع والخيل مائتي فرس والظعن خمس عشرة امرأة وكان المسلمون مائة دارع ولم يكن من الخيل غير فرسين فرس لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفرس لأبي بردة بن نيار وعرض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المقاتلة فرد زيد بن ثابت وابن عمر وأسيد بن ظهير والبراء بن عازب وعرابة بن أوس وأبا سعيد الخدري وغيرهم وأجاز جابر بن سمرة ورافع بن خديج.وأرسل أبو سفيان إلى الأنصار يقول: خلوا بيننا وبين ابن عمنا فننصرف عنكم فلا حاجة بنا إلى قتالكم.

فردوا عليه بما يكره.

وتعبأ المشركون فجعلوا على ميمنتهم خالد بن الوليد وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبي جهل وكان لواؤهم مع بني عبد الدار فقال لهم أبو سفيان: إنما يؤتى الناس من قبل راياتهم فإما أن تكفونا وإما أن تخلوا بيننا وبين اللواء يحرضهم بذلك.

فقالوا: ستعلم إذا التقينا كيف نصنع وذلك أراد.

واستقبل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة وترك أحد خلف ظهره وجعل وراءه الرماة وهم خمسون رجلًا وأمر عليهم عبدالله بن جبير أخا خوات بن جبير وقال له: "انضح عنا الخيل بالنبل لا يأتونا من خلفنا واثبت مكانك إن كانت لنا أو علينا".

وظاهر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين درعين وأعطى اللواء مصعب بن عمير وأمر الزبير على الخيل ومع المقداد وخرج حمزة بالجيش بين يديه.

وأقبل خالد وعكرمة فلقيهما الزبير والمقداد فهزما المشركين وحمل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه فهزموا أبا سفيان وخرج طلحة بن عثمان صاحب لواء المشركين وقال: يا معشر أصحاب محمد إنكم تزعمون أن الله يعجلنا بسيوفكم.

إلى النار ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنة فهل أحد منكم يعجله سيفي إلى الجنة أو يعجلني سيفه إلى النار فبرز إليه علي بن أبي طالب فضربه علي فقطع رجله فسقط وانكشفت عورته فناشده الله والرحم فتركه فكبر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال لعلي: "ما منعك أن تجهز عليه" قال: إنه ناشدني الله والرحم فاستحييت منه.

وكان بيد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سيف فقال: "من يأخذه بحقه" فقام إليه رجال فأمسكه عنهم حتى قام أبو دجانة فقال: وما حقه يا رسول الله قال: "تضرب به العدو حتى تثخن".

قال: أنا آخذه.

فأعطاه إياه.

وكان شجاعًا وكان إذا أعلم بعصابة له حمراء علم الناس أنه يقاتل فعصب رأسه بها وأخذ السيف وجعل يتبختر بين الصفين.

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : "إنها مشية يبغضها الله إلا في هذا الموطن". فجعل لا يرتفع له شيء إلا حطمه حتى انتهى إلى نسوةٍ في سفح الجبل معهن دفوفٌ لهن فيهن امرأة تقول: نحن بنات طارق نمشي على النّمارق إن تقبلوا نعانق ونفرش النّمارق أو تدبروا نفارق فراق غير وامق وتقول أيضًا: ضربًا بكلّ بتّار فرفع السيف ليضربها ثم أكرم سيف الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يضرب به امرأة.

وكانت المرأة هند والنساء معها يضربن بالدفوف خلف الرجال يحرضن.
واقتتل الناس قتالًا شديدًا وأمعن في الناس حمزة وعلي وأبو دجانة في رجال من المسلمين وأنزل الله نصره على المسلمين وكانت الهزيمة على المشركين وهرب النساء مصعدات في الجبل ودخل المسلمون عسكرهم ينهبون.

فلما نظر بعض الرماة إلى العسكر حين انكشف الكفار عنه أقبلوا يريدون النهب وثبتت طائفة وقالوا: نطيع رسول الله ونثبت مكاننا فأنزل الله: {مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ} [آل عمران: 152]. يعني اتباع أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

قال ابن مسعود: وما علمت أن أحدًا من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يريد الدنيا حتى نزلت الآية.

فلما فارق بعض الرماة مكانهم رأى خالد بن الوليد قلة من بقي من الرماة فحمل عليهم فقتلهم وحمل على أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من خلفهم.

فلما رأى المشركون خيلهم تقاتل تبادروا فشدوا على المسلمين فهزموهم وقتلوهم وقد كان المسلمون قتلوا أصحاب اللواء فبقي مطروحًا لا يدنو منه أحدٌ فأخذته عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته فاجتمعت قريش حوله وأخذه صؤاب فقتل عليه وكان الذي قتل أصحاب اللواء علي قاله أبو رافع قال: فلما قتلهم أبصر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ جماعة من المشركين فقال لعلي: احمل عليهم ففرقهم وقتل فيهم ثم أبصر جماعة أخرى فقال له: احمل عليهم فحمل عليهم وفرقهم وقتل فيهم فقال جبرائيل: "يا رسول الله هذه المؤاساة!" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنه مني وأنا منه".

فقال جبرائيل: "وأنا منكما".

قال: فسمعوا صوتًا: لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتىً إلا علي.

وكسرت رباعية رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ السفلى وشقت شفته وكلم في وجنته وجبهته في أصول شعره وعلاه بن قمئة بالسيف وكان هو الذي أصابه وقيل: أصابه عتبة بن وقاص وقيل: عبد الله بن شهاب الزهري جد محمد بن مسلم.

وقيل: إن عتبة بن أبي وقاص وابن قمئة الليثي الأدرمي من بني تيم بن غالب وكان أدرم ناقص الذقن وأبي بن خلف الجمحي وعبد الله بن حميد الأسدي أسد قريش تعاقدوا على قتل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأما ابن شهاب فأصاب جبهته وأما عتبة فرماه بأربعة أحجار فكسر رباعتيه اليمنى وشق شفته وأما ابن قمئة فكلم وجنته ودخل من حلق المغفر فيها وعلاه بالسيف فلم يطق أن يقطعه فسقط رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجحشت ركبته وأما أبي بن خلف فشد عليه بحربة فأخذها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منه وقتله بها وقيل: بل كانت حربة الزبير أخذها منه وقيل: أخذها من الحارث بن الصمعة وأما عبد الله بن حميد فقتله أبو دجانة الأنصاري.

ولما جرح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جعل الدم يسيل على وجهه وهو يمسحه ويقول: "كيف يفلح قومٌ خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى الله!" وقاتل دونه نفرٌ خمسة من الأنصار فقتلوا وترس أبو دجانة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنفسه فكان يقع النبل في ظهره وهو منحنٍ عليه ورمى سعد بن أبي وقاص دون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يناوله السهم ويقول: "ارم فداك أبي وأمي".

وأصيبت يومئذ عين قتادة بن النعمان فردها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بيده فكانت أحسن عينيه.

وقاتل مصعب بن عمير ومعه لواء المسلمين فقتل قتله ابن قمئة الليثي وهو يظن أنه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرجع إلى قريش وقال: قتلت محمداً.

فجعل الناس يقولون: قتل محمد قتل محمد.

ولما قتل مصعب أعطى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اللواء علي بن أبي طالب.

وقاتل حمزة حتى مر به سباع بن عبد العزى الغبشاني فقال له حمزة: هلم إلي يا ابن مقطعة البظور! وكانت أمه أم أنمار ختانة بمكة فلما التقيا ضربه حمزة فقتله قال وحشي إني والله لأنظر إلى حمزة وهو يهذ الناس بسيفه هذا ما يلقى شيئاً يمر به إلا قتله وقتل سباع بن عبد العزى.

قال: فهززت حربتي ودفعتها عليه فوقعت في ثنته حتى خرجت من بين رجليه وأقبل نحوي فغلب فوقع فأمهلته حتى مات فأخذت حربتي ثم تنحيت إلى العسكر فرضي الله عن حمزة وأرضاه.
وقتل عاصم بن ثابت مسافع بن طلحة وأخاه كلاب بن طلحة بسهمين فحملا إلى أمها سلافة وأخبراها أن عاصمًا قتلهما فنذرت إن أمكنها الله من رأسه أن تشرب فيه الخمر.

وبرز عبد الرحمن بن أبي بكر وكان مع المشركين وطلب المبارزة فأراد أبو بكر أن يبرز إليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: شم سيفك وأمتعنا بك.

وانتهى أنس بن النضر عم أنس بن مالك إلى عمر وطلحة في رجال من المهاجرين قد ألقوا بأيديهم فقال: ما يحبسكم قالوا: قد قتل النبي صلى الله عليه وسلم.

قال: فما تصنعون بالحياة بعده! قوموا فموتوا على ما مات عليه.

ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل فوجد به سبعون ضربة وطعنة وما عرفه إلا أخته عرفته بحسن بنانه. وقيل: إن أنس بن النضر سمع نفرًا من المسلمين يقولون لما سمعوا أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قتل: ليت لنا من يأتي عبد الله بن أبي بن سلول ليأخذ لنا أمانًا من أبي سفيان قبل أن يقتلونا.

فقال لهم أنس: يا قوم إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد لم يقتل فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد.

اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء! ثم قاتل حتى قتل.

وكان أول من عرف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كعب بن مالك قال: فناديت بأعلى صوتي: يا معشر المسلمين أبشروا! هذا رسول الله حي لم يقتل فأشار إليه: أنصت.

فلما عرفه المسلمون نهضوا نحو الشعب ومعه علي وأبو بكر وعمر وطلحة والزبير والحارث بن الصمة وغيرهم.

**فلما أسند إلى الشعب أدركه أبي بن خلف وهو يقول: يا محمد لا نجوت إن نجوت! فعطف عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فطعنه بالحربة في عنقه وكان أبي يقول بمكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن عندي العود أعلفه كل يوم فرقًا من ذرة أقتلك عليه.
فيقول له النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: "بل أنا أقتلك إن شاء الله تعالى".**

فلما رجع إلى قريش وقد خدشه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خدشًا غير كبير قال: قتلني محمد.

قالوا: والله ما بك بأسٌ.

قال: إنه قد كان قال لي أنا أقتلك فوالله لو بصق علي لقتلني! فمات عدو الله وقاتل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم أحد قتالًا شديدًا فرمى بالنبل حتى فني نبله وانكسرت سية قوسه وانقطع وتره.

ولما جرح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جعل علي ينقل له الماء في درقته من المهراس ويغسله فلم ينقطع الدم فأتت فاطمة وجعلت تعانقه وتبكي وأحرقت حصيرًا وجعلت على الجرح من رماده فانقطع الدم.

ورمى مالك بن زهير الحشمي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاتقاه طلحة بيده فأصاب السهم خنصره وقيل: رماه حبان بن العرقة فقال: حس فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : "لو قال: باسم الله لدخل الجنة والناس ينظرون إليه" إن يده شلت إلا السبابة والوسطى والأول أثبت.

وصعد أبو سفيان ومعه جماعة من المشركين في الجبل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس لهم أن يعلونا" فقاتلهم عمر وجماعة من المهاجرين حتى أهبطوهم ونهض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الصخرة ليعلوها وكان عليه درعان فلم يستطع فجلس تحته طلحة حتى صعد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أوجب طلحة".

وانتهت الهزيمة بجماعة المسلمين فيهم عثمان بن عفان وغيره إلى الأعوص فأقاموا به ثلاثًا ثم أتوا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال لهم حين رآهم: "لقد ذهبتم فيها عريضة" .والتقى حنظلة بن أبي عامر غسيل الملائكة وأبو سفيان بن حرب فلما استعلاه حنظلة رآه شداد بن الأسود وهو ابن شعوب فدعاه أبو سفيان فأتاه فضرب حنظلة فقتله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنه لتغسله الملائكة فسلوا أهله ".

فسئلت صاحبته فقالت: خرج وهو جنب سمع الهائعة فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ "لذلك غسلته الملائكة".

وقال أبو سفيان يذكر صبره ومعاونة ابن شعوب إياه على قتل حنظلة:

ولو شئت نجتني كميت طمرة * ولم أحمل النعماء لابن شعوب
فما زال مهري مزجر الكلب منهم * لدى غدوة حتى دنت لغروب
أقاتلهم وأدعي يآل غالب * وأدفعهم عني بركن صليب
فبكي ولا ترعى مقالة عاذل * ولا تسأمي من عبرة ونحيب
أباك وإخوانا له قد تتابعوا * وحق لهم من عبرة بنصيب
وسلى الذي قد كان في النفس إنني * قتلت من النجار كل نجيب
ومن هاشم قرما نجيبا ومصعبا * وكان لدى الهيجاء غير هيوب
ولو أنني لم أشف منهم قرونتي * لكانت شجى في القلب ذات ندوب

فأجابه حسان بقوله:
أتعجب أن أقصدت حمزة منهم * عشاء وقد سميته بنجيب
ألم يقتلوا عمرا وعتبة وابنه * وشيبة والحجاج وابن حبيب
غداة دعا العاصي عليا فراعه * بضربة عضب بله بخضيب

ووقعت هند وصواحباتها على القتلى يمثلن بهم واتخذت هند من آذان الرجال وآنافهم خدمًا وقلائد وأعطت خدمها وقلائدها وحشيًا وبقرت عن كبد حمزة فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها.

ثم أشرف أبو سفيان على المسلمين فقال: أفي القوم محمد ثلاثًا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تجيبوه".

ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة ثلاثًا.
ثم قال: أفي القوم ابن الخطاب ثلاثًا.

ثم التفت إلى أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا.

فقال عمر: كذبت أي عدو الله قد أبقى الله لك ما يخزيك.

فقال: اعل هبل اعل هبل.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قولوا الله أعلى وأجل".

فقال أبو سفيان: إنا لنا العزى ولا عزى لكم.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قولوا الله مولانا ولا مولى لكم".

فقال أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمدًا قال عمر: اللهم لا وإنه ليسمع كلامك.

فقال: أنت أصدق من ابن قمئة! ثم قال: هذا بيوم بدر والحرب سجال أما إنكم ستجدون في قتلاكم مثلًا والله ما رضيت ولا سخطت ولا واجتاز به الحيس بن زبان سيد الأحابيش وهو يضرب في شدق حمزة بزج الرمح ويقول: ذق عقق! فقال الحليس: يا بني كنانة هذا سيد قريش يصنع بابن عمه كما ترون.

فقال أبو سفيان: اكتمها عني فإنها زلة.

وكانت أم أيمن حاضنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونساء من الأنصار يسقين الماء فرماها حبان بن العرقة بسهم فأصاب ذيلها فضحك فدفع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى سعد بن أبي وقاص سهمًا وقال: "ارمه".

فرماه فأصابه فضحك النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال: "استقاد لها سعد أجاب الله دعوتك وسدد رميتك".

ثم انصرف أبو سفيان ومن معه وقال: إن موعدكم العام المقبل.

ثم بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليًا في أثرهم وقال: "انظر فإن جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة وإن ركبوا الخيل فإنهم يريدون المدينة فوالذي نفسي بيده لئن أرادوها لأناجزنهم".

قال علي: فخرجت في أثرهم فامتطوا الإبل وجنبوا الخيل يريدون مكة فأقبلت أصيح ما أستطيع أن أكتم وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمره بالكتمان

انتهى.

الدروس القاسية

إن الدروس القاسية في حياة الإنسان هي التي يبقى أثرها معه طوال حياته، فالقناعات تتكون بشكل أقوى بالتجارب العملية أكثر من أي شيء نظري آخر ، وقد تعلمنا في غزوة أحد أن نراقب الله في أفعالنا وأقوالنا أكثر من مراقبتنا لعدونا في المعركة ! كما في وصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقائد جيشه سعد بن أبي وقاص بقوله : (أما بعد : فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى المكيدة في الحرب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصي منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة).

فالنصر المبدئي يوم أحد {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ} كان نتيجة طبيعية للانقياد لأوامر الله عز وجل وطاعته وما يدخل في طاعته من طاعة الأمير ، وقد روى النسائي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "من أطاعني فقد أطاع الله ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصاني فقد عصى الله ومن عصى أميري فقد عصاني" ولكن عندما ظهرت المخالفة الصريحة لأوامر الأمير في المعركة سحب التأييد الإلهي {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ}.

يجب أن يرسخ في ذهن المجاهد أن طاعة الأمير ليست لشخصه أو لصفاته ، فقد تمتلك قدرات وذكاء أكثر منه ، ولكنها عبادة لا تقبل إلا بهذا الشكل ، كمن يصلي خلف إمام وهو أحفظ وأعلم منه فلا يجوز له مع ذلك أن يسبقه بركوع أو سجود لأنه مأمور باتباعه "إنما جعل الإمام ليؤتم به" ولن يقبل منه سوى الاتباع والاتباع فقط إلا أن يكون في معصية "إنما الطاعة بالمعروف "

إذن فطاعتك للأمير مبنية في الأصل على طاعتك لرب العالمين ، ولو أن كل مجاهد منا أخذ برأيه في المعركة لأصبح لدينا جيش من الأمراء بلا جنود ! وهي مقدمة حتمية للفشل والهزيمة ، فخلايا النحل لا تحتاج إلا لملكة واحدة والسفينة لا تسير بقبطانين ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا !

3 - غزوة حمراء الأسد

قال ابن الأثير رحمه الله :

لما كان الغد من يوم الأحد أذن مؤذن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالغزو وقال: لا يخرج معنا إلا من حضر بالأمس فخرج ليظن الكفار به قوة وخرج معه جماعة جرحى يحملون نفوسهم

وساروا حتى بلغوا حمراء الأسد وهي من المدينة على سبعة أميال فأقام بها الاثنين والثلاثاء والأربعاء ومر به معبد الخزاعي - وكانت خزاعة مسلمهم ومشركهم عيبة نصح لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - بتهامة وكان معبد مشركًا فقال: يا محمد لقد عز علينا ما أصابك.

ثم خرج من عند النبي - صلى الله عليه وسلم - فلقي أبا سفيان ومن معه بالروحاء قد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليستأصلوا المسلمين بزعمهم فلما رأى أبو سفيان معبدًا قال: ما وراءك قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قد جمع معه من تخلف عنه وندموا على ما صنعوا وما ترحل حتى ترى نواصي الخيل.

قال: فوالله قد أجمعنا الرجعة لنستأصل بقيتهم.

قال: إني أنهاك عن هذا فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه.

ومر بأبي سفيان ركب من عبد القيس فقال لهم: بلغوا عني محمدًا رسالة وأحمل لكم إبلكم هذه زبيبًا بعكاظ.

قالوا: نعم.

قال: أخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصلهم.

فمروا بالنبي - صلى الله عليه وسلم - وهو بحمراء الأسد فأخبروه فقال صلى الله عليه وسلم: حسبنا الله ونعم الوكيل.

انتهى .

إظهار القوة والجلد

يلحقها الكثيرون بغزوة أحد أو يجعلها من ملحقاتها ولكن يبقى أنها حملت روح تحدي وإصرار على إظهار القوة والجلد في أسوأ الظروف وفي أصعب الأحوال حتى أصبح الجرحى يحمل بعضهم بعضا سيرا على الأقدام من المدينة إلى حمراء الأسد ، لأن إظهار القوة والجلد في هذا الموطن بالتحديد هو الرادع الوحيد للأعداء ، والمعادلة المتعارف عليها في الحروب هي أن القوي لا يرحم الضعيف ، وقد أوصى أبو بكر الصديق أحد أمرائه بأن ينزل رسل الأعداء في مواطن القوة من الجيش وألا يلبثوا كثيرا حتى لا يفطنوا لمواطن الضعف والخلل ! إذن فلا تدع فرصة للعدو أن يعلم بضعفك أو قلة إمكانياتك !

4 - غزوة الأحزاب

تأتي هذه الغزوة في ظل اجتماع ملل وأحزاب الكفر حول المدينة في معركة فاصلة مع أهل الإسلام ومصيرية لبقاء دولته ، فالمنتصر هنا هو من سيكون صاحب الكلمة الأولى في جزيرة العرب .
ولهذه الأهمية أخذ النبي صلى الله عليه وسلم الأهبة والاستعداد الكامل للحرب من حفر الخندق إلى صف الصفوف وتوزيع الحراسات وغيره ، ولكن المعركة لم تنته بالمواجهة المسلحة ، فما هي الأسباب التي أدت إلى هزيمة الأحزاب وانسحابهم المفاجئ حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم يومها : "الآن نغزوهم ولا يغزوننا" .

قال ابن الأثير رحمه الله :

وكانت في شوال وكان سببها أن نفرًا من يهود من بني النضير منهم: سلام بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب وكنانة ابن الربيع بن أبي الحقيق وغيرهم حزبوا الأحزاب على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقدموا على قريش بمكة فدعوهم إلى حرب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقالوا: نكون معكم حتى نستأصله فأجابوهم إلى ذلك ثم أتوا على غطفان فدعوهم إلى حرب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخبروهم أن قريشًا معهم على ذلك فأجابوهم فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن في بني فزارة والحارث بن عوف بن أبي حارثة المري في مرة ومسعر بن رخيلة الأشجعي في الأشجع.

فلما سمع بهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر بحفر الخندق وأشار به سلمان الفارسي وكان أول مشهد شهده مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يومئذ حر فعمل فيه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رغبة في الأجر وحثًا للمسمين وتسلل عنه جماعة من المنافقين بغير علم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأنزل الله في ذلك: {قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا} [النور: 63]. الآية.

وكان الرجل من المسلمين إذا نابته نائبة لحاجة لابد منها يستأذن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيقضي حاجته ثم يعود فأنزل الله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ} الآية الفتح 15.
وقسم الخندق بين المسلمين.

فاختلف المهاجرون والأنصار في سلمان كل يدعيه أنه منهم فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : سلمان منا سلمان من أهل البيت.

وجعل لكل عشرة أربعين ذراعًا فكان سلمان وحذيفة والنعمان بن مقرن وعمرو بن عوف وستة من الأنصار يعملون فخرجت عليهم صخرة كسرت المعول فأعلموا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهبط إليها ومعه سلمان فأخذ المعول وضرب الصخرة ضربة صدعها وبرقت منها برقة أضاءت ما ين لابتي المدينة فكبر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمون ثم الثانية كذلك ثم الثالثة كذلك

ثم خرج وقد صدعها فسأله سلمان عما رأى من البرق فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: "أضاءت الحيرة وقصور كسرى في البرقة الأولى وأخبرني جبرائيل أن أمتي ظاهرة عليها وأضاء لي في الثانية القصور الحمر من أرض الشام والروم وأخبرني أن أمتي ظاهرة عيها وأضاء لي في الثالثة قصور صنعاء وأخبرني أن أمتي ظاهرة عليها فأبشروا" فاستبشر المسلمون.

وقال المنافقون: ألا تعجبون يعدكم الباطل ويخبركم أنه ينظر من يثرب الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم وأنتم لا تستطيعون أن تبرزوا فأنزل الله: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاّ غُرُورًا} [الأحزاب: 12]. فأقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة بين الجرف وزغابة في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تابعهم من كنانة وتهامة وأقبلت غطفان ومن تابعهم حتى نزلوا إلى جنب أحد وخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمون فجعلوا ظهورهم إلى سلع في ثلاثة آلاف فنزل هناك ورفع الذراري والنساء في الآطام.

وخرج حيي بن أخطب حتى أتى كعب بن أسد سيد قريظة وكان قد وادع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على قومه فأغلق كعب حصنه ولم يأذن له وقال: إنك امرؤ مشؤوم وقد عاهدت محمدًا ولم أر منه إلا الوفاء.

قال حيي: يا كعب قد جئتك بعز الدهر وببحر طامٍ جئتك بقريش وقادتها وسادتها وغطفان بقادتها وقد عاهدوني أنهم لا يبرحون حتى يستأصلوا محمدًا وأصحابه.

قال كعب: جئتني بذل الدهر وبجهام قد هراق ماؤه يرعد ويبرق وليس فيه شيء ويحك يا حيي! دعني ومحمدًا.

ولم يزل معه يفتله في الذروة والغارب حتى حمله على الغدر بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ففعل ونكث العهد وعاهده حيي إن عادت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدًا أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك.

فعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم ونجم النفاق من بعض المنافقين وأقام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمشركون عليه بضعًا وعشرين ليلة فلما اشتد البلاء بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى عيينة بن حصن والحارث بن عوف المري قائدي غطفان فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأجابا إلى ذلك فاستشار رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فقالا: يا رسول الله شيء تحب أن تصنعه أم شيء أمرك الله به أو شيء تصنعه لنا قال: "بل لكم رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم".

فقال سعد بن معاذ: قد كنا نحن وهم على الشرك ولا يطمعون أن يأكلوا منا تمرة إلا قرىً أو بيعًا فحين أكرمنا الله بالإسلام نعطيهم أموالنا! ما نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

فترك ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم إن فوارس من قريش منهم: عمرو بن عبد ود أحد بني عامر بن لؤي وعكرمة بن أبي جهل وهبيرة بن أبي وهب ونوفل بن عبد الله وضرار بن الخطاب الفهري خرجوا على خيولهم واجتازوا ببني كنانة وقالوا: تجهزوا للحرب وستعلمون من الفرسان.

وكان عمرو بن عبد ود قد شهد بدرًا كافرًا وقاتل حتى كثرت الجراح فيه فلم يشهد أحدًا وشهد الخندق معلمًا حتى يعرف مكانه وأقبل هو وأصحابه حتى وقفوا على الخندق ثم تيمموا مكانًا ضيقًا فاقتحموه فجالت بهم خيولهم في السبخة بين الخندق وسلع وخرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين فأخذوا عليهم الثغرة وكان عمرو قد خرج معلمًا فقال له علي: يا عمرو إنك عاهدت أن لا يدعوك رجل من قريش إلى خصلتين إلا أخذت إحداهما قال: أجل.

قال له علي: فإني أدعوك إلى الله والإسلام.

قال: لا حاجة لي بذلك.

قال: فإني أدعوك إلى النزال.

قال: والله ما أحب أن أقتلك.

قال علي: ولكني أحب أن أقتلك.

فحمي عمرو عند ذلك فنزل عن فرسه وعقره ثم أقبل على علي فتجاولا وقتله علي وخرجت خيلهم منهمة وقتل مع عمرو رجلان قتل علي أحدهما وأصاب آخر سهم فمات منه بمكة.

ورمي سعد بن معاذ بسهم قطع أكحله رماه حبان بن قيس بن العرقة بن عبد مناف من بني معيص من عامر بن لؤي والعرقة أمه وإنما قيل لها العرقة لطيب ريح عرقها وهي قلابة بنت سعد بن سهم وهي جدة خديجة أم أبيها أو هي أم عبد مناف بن الحارث.

فلما رمى سعدًا قال: خذها وأنا ابن العرقة.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "عرق الله وجهك في النار" ولم يقطع الأكحل من أحد إلا مات.

فقال سعد: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئًا فأبقني لها فإنه لا قوم أحب إلي أن أقاتلهم من قوم آذوا نبيك وكذبوه اللهم وإن كنت وضعت الحرب بيننا فاجعله لي شهادة ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة.

وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية.وقيل: إن الذي رمى سعدًا هو أبو أسامة الجشمي حليف بني مخزوم. فلما قال سعد ما قال انقطع الدم.

وكانت صفية عمة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في فارع حصن حسان ابن ثابت وكان حسان فيه مع النساء قالت: فأتانا آتٍ من اليهود فقلت لحسان: هذا اليهودي يطوف بنا ولا نأمنه أن يدل على عوراتنا فانزل إليه فاقتله.

فقال: والله ما أنا بصاحب هذا.

قالت: فأخذت عمودًا ونزلت إليه فقتلته ثم رجعت فقلت لحسان: انزل إليه فخذ سلبه فإنني يمنعني منه أنه رجل.

فقال: والله ما لي بسلبه من حاجة.

ثم إن نعيم بن مسعود الأشجعي أتى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت ولم يعلم قومين فمرني بما شئت.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما أنت رجل واحد فخذل عنا ما استطعت فإن الحرب خدعة".

فخرج حتى أتى بني قريظة وكان نديمًا لهم في الجاهلية فقال لهم: قد عرفتم ودي إياكم.

فقالوا: لست عندنا بمتهم.

قال: قد ظاهرتم قريشًا وغطفان على حرب محمد وليسوا كأنتم البلد بلدكم به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحولوا منه وإن قريشًا وغطفان إن رأوا نهزة وغنيمة أصابوها وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلواٍ بينكم وبين محمد ولا طاقة لكم به إن خلا بكم فلا تقاتلوا حتى تأخذوا منهم رهنًا من أشرافهم ثقة لكم حتى تناجزوا محمداً.

قالوا: أشرت بالنصح.

ثم خرج حتى أتى قريشًا فقال لأبي سفيان ومن معه: قد عرفتم ودي إياكم وفراقي محمداً وقد بلغني أن قريظة ندموا وقد أرسلوا إلى محمد: هل يرضيك عنا أن نأخذ من قريش وغطفان رجالًا من أشرافهم فنعطيكم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم فأجابهم: أن نعم فإن طلبت قريظة منكم رهنًا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم رجلًا واحداً.

ثم خرج حتى أتى غطفان فقال: أنتم أهلي وعشيرتي. وقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم.

فلما كان ليلة السبت من شوال سنة خمسٍ كان مما صنع الله لرسوله أن أرسل أبو سفيان ورؤوس غطفان إلى قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان وقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقامٍ قد هلك الخف والحافر فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً.

فأرسلوا إليهم: إن اليوم السبت لا نعمل فيه شيئًا ولسنا نقاتل معكم حتى تعطونا رهنًا ثقةً لنا فإنا نخشى أن ترجعوا إلى بلادكم وتتركونا والرجل ونحن ببلاده.

فلما أبلغتهم الرسل هذا الكلام قالت قريش وغطفان: والله لقد صدق نعيم بن مسعود فأرسلوا إلى قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم رجلًا واحدًا.

فقالت قريظة عند ذلك: إن الذي ذكر نعيم بن مسعود لحقٌ.

وخذل الله بينهم وبعث الله عليهم فلما انتهى إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ اختلاف أمرهم دعا حذيفة بن اليمان ليلًا فقال: "انطلق إليهم وانظر حالهم ولا تحدثن شيئًا حتى تأتينا".

قال حذيفة: فذهبت فدخلت فيهم والريح وجنود الله تفعل فيهم ما تفعل لا يقر لهم قدر ولا بناء ولا نار.

فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش لينظر الرجل أمر جليسه قال: فأخذت بيد الرجل الذي بجانبي فقلت: من أنت قال: أنا فلان ثم قال أبو سفيان: والله لقد هلك الخف والحافر وأخلفتنا قريظة ولقينا من هذه الريح ما ترون فارتحلوا فإني مرتحل.

ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب على ثلاث قوائم ولولا عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إي أن لا أحدث شيئًا لقتلته.

قال حذيفة: فرجعت إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو قائم يصلي في مرط لبعض نسائه فأدخلني بين رجله وطرح علي طرف المرط فلما سلم خبرته الخبر.

وسمعت غطفان بما فعلت قريش فعادوا راجعين إلى بلادهم فلما عادوا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الآن نغزوهم ولا يغزوننا".

فكان كذلك حتى فتح الله مكة.
انتهى .

الحرب خدعة

لقد تظافرت عدة أسباب في انسحاب الأحزاب يوم الخندق ، وقد يكون من أهمها [الحيلة] التي قام بها نعيم بن مسعود رضي الله عنه في التخذيل بين الأحزاب وضرب بعضهم ببعض حتى فقدوا الثقة بينهم ! .
هذا النمط من الأفكار في الإيقاع بين الخصوم وفك تحالفهم أو عمل الكمائن الذكية أو جر العدو إلى المعركة في وقت لا يناسبه هذه الأفكار تحمل قوة إضافية لصاحبها في المعركة وتورثه طمأنينة وثقة بالنفس طالما أنه تصرف بذكاء في إدارة حيلته ، وكذلك الجنود في المعركة أكثر طمأنينة إذا

علموا أن لهم [كمينا محكما] أو [مخرجا للطوارئ] إن دارت الدائرة عليهم ، فقوة الفكرة المستخدمة في خداع العدو قد تعطل إمكانيات جيش بأكمله كما حدث مع الأحزاب .
ولذا اختصر النبي صلى الله عليه وسلم الحرب بكلمة واحدة " الحرب خدعة " رواه البخاري .

5 - غزوة مؤتة

كانت غزوة طاحنة بكل المقاييس فالمسلمون ثلاثة آلاف مقابل مئتي ألف من الروم والغساسنة ، وقتل فيها الأمراء الثلاثة وكسرت في يد خالد بن الوليد تسعة أسياف . . . ولكن على قدر أهل العزم تأتي العزائم .

قال ابن الأثير رحمه الله :

وكانت في جمادى الأولى من سنة ثمان واستعمل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليهم زيد بن حارثة وقال: "إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة".

فقال جعفر: ما كنت أذهب أن تستعمل علي زيدًا.

فقال: "امض فإنك لا تدري أي ذلك خير".
فبكى الناس وقالوا: هلا متعتنا بهم يا رسول الله فأمسك وكان إذا فتجهز الناس وهم ثلاثة آلاف وودعهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والناس.

فلما ودع عبد الله بن رواحة بكى عبد الله فقال له الناس: ما يبكيك فقال: ما بي حب الدنيا ولا صبابة بكم ولكن سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقرأ آية وهي: {وَإِنْ مِنْكُمْ إلاّ وَارِدُهَا كَانَ عَلى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا} [مريم: 71]. فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود فقال المسلمون: صحبكم الله وردكم إلينا سالمين.

فقال عبد الله:
لكنّني أسأل الرّحمن مغفرةً وضربةً ذات فرغٍ تقذف الزّبدا
أو طعنةً بيدي حرّان مجهزةً بحربةٍ تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقولوا إذا مرّوا علي جدثي أرشدك الله من غازٍ وقد رشدا
فلما ودعهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعاد قال عبد الله:
خلف السّلام على امرئ ودّعته في النّخل خير مشيّع وخليل
ثم ساروا حتى نزلوا معان فبلغهم أن هرقل سار إليهم في مائة ألف من الروم ومائة ألف من المستعربة من لخم وجذام وبلقين وبلي عليهم رجل من بلي يقال له مالك بن رافلة ونزلوا مآب من أرض البلقاء فأقام المسلمون بمعان ليلتين ينظرون في أمرهم وقالوا: نكتب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نخبره الخبر وننتظر أمره فشجعهم عبد الله بن رواحة وقال: يا قوم والله إن الذي تكرهون للذي خرجتم تطلبون الشهادة وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا نقاتلهم إلا بهذا الدين فانطلقوا فما هي إلا إحدى الحسنيين.

فقال الناس: صدق والله وساروا وسمعه زيد بن أرقم وكان يتيمًا في حجره وقد أردفه في مسيره ذلك على حقيبته وهو يقول:
إذا أدّيتني وحملت رحلي مسيرة أربعٍ بعد الحساء
فشأنك فانعمي وخلاك ذمّ ولا أرجع إلى أهلي ورائي
وجاء المسلمون وغادروني بأرض الشّام مشتهي الثّواء
وردّك كلّ ذي نسب قريبٍ من الرّحمن منقطع الإخاء
هنالك لا أبالي طلع بعلٍ ولا نخلٍ أسافلها رواء
فلما سمعها زيد بكى فخفقه بالدرة وقال: ما عليك يا لكع! يرزقني الله الشهادة وترجع بين شعبتي الرحل ثم ساروا فالتقتهم جموع الروم والعرب بقرية من البلقاء يقال لها مشارف وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مؤتة فالتقى الناس عندها وكان على ميمنة المسلمين قطبة بن قتادة العذري وعلى ميسرتهم عباية بن مالك الأنصاري فاقتتلوا قتالًا شديدًا فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى شاط في رماح القوم

ثم أخذها جعفر بن أبي طالب فقاتل بها وهو يقول:
والرّوم رومٌ قد دنا عذابها
عليّ إذ لاقيتها ضرابها
فلما اشتد القتال اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها ثم قاتل القوم حتى قتل وكان جعفر أول من عقر فرسه في الإسلام فوجدوا به بضعًا وثمانين بين رمية وضربة وطعنة فلما قتل أخذ الراية عبد الله بن رواحة ثم تقدم فتردد بعض التردد ثم قال يخاطب نفسه:
أقسمتٍ يا نفس لتنزلنّه
طائعةً أو لا لتكرهنّه
إن أجلت النّاس وشدّوا الرّنّه
ما لي أراك تكرهين الجنّه
قد طال ما قد كنت مطمئنّه
هل أنت نطفةٌ في شنّه

وقال أيضًا:
يا نفس إن لم تقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنّيت فقد أعطيت إن تفعلي فعلهما هديت
ثم نزل عن فرسه وأتاه ابن عم له بعرق من لحم فقال له: شد بهذا صلبك فقد لقيت ما لقيت.

فأخذه فانتهش منه نهشةً ثم سمع الحطمة في ناحية العسكر فقال لنفسه: وأنت في الدنيا ! ثم ألقاه وأخذ سيفه وتقدم فقاتل حتى قتل.

واشتد الأمر على المسلمين وكلب عليهم العدو وقد كان قطبة بن قتادة قتل قبل ذلك مالك بن رافلة قائد المستعربة.

ثم إن الخبر جاء من السماء في ساعته إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فصعد المنبر وأمر فنودي: الصلاة جامعة فاجتمع الناس فقال: باب خير! ثلاثًا أخبركم عن جيشكم هذا الغازي إنهم لقوا العدو فقتل زيد شهيدًا فاستغفر له ثم أخذ اللواء جعفرٌ فشد على القوم حتى قتل شهيدًا فاستغفر له ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة وصمت حتى تغيرت وجوه الأنصار وظنوا أنه قد كان من عبد الله ما يكرهون ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقاتل القوم حتى قتل شهيدًا ثم قال: لقد رفعوا إلى الجنة على سرر من ذهب فرأيت في سرير ابن رواحة ازورارًا عن سريري صاحبيه فقلت: عم هذا فقيل: مضيا وتردد بعض التردد ثم مضى.

ولما قتل ابن رواحة أخذ الراية ثابت بن أقرم الأنصاري وقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم.

فقالوا: رضينا بك.
فقال: ما أنا بفاعل.
فاصطلحوا على خالد بن الوليد فأخذ الراية ودافع القوم وانحازوا عنه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله خالد بن الوليد فعاد بالناس" فمن يومئذٍ سمي خالد سيف الله.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مر بي جعفر البارحة في نفر من الملائكة له جناحان مختضب القوادم بالدم" .قالت أسماء: أتاني النبي - صلى الله عليه وسلم - وقد فرغت من اشتغالي وغسلت أولاد جعفر ودهنتهم فأخذهم وشمهم ودمعت عيناه فقلت: يا رسول الله أبلغك عن جعفر شيء قال: "نعم أصيب هذا اليوم".

ثم عاد إلى أهله فأمرهم أن يصنعوا لآل جعفر طعامًا فهو أول ما عمل في دين الإسلام.

قالت أسماء بنت عميس: فقمت أصنع واجتمع إلي النساء.

فلما رجع الجيش ودنا من المدينة لقيهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمسلمون فأخذ عبد الله بن جعفر فحمله بين يديه فجعل الناس يحثون التراب على الجيش ويقولون: يا فرار! ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليسوا بالفُرّار ولكنّهم الكُرّار إن شاء الله تعالى".
انتهى .

أنجح انسحاب في التاريخ

أخطر الأوضاع الحركية للجيوش هو وضع الانسحاب الذي يترك فيه الجيش مواقفه القتالية وتكون أجزاء كبيرة منه شبه مكشوفة مما قد يعرضه للإبادة الكلية أو الجزئية على أقل تقدير ! .
وقد قال المحللون العسكريون عن الانسحاب الذي قام به خالد بن الوليد أنه أنجح انسحاب في التاريخ ، فمسألة الانسحاب بهذا الجيش المنهك وسط هذه الجموع الغفيرة والمتفوقة عددا وعدة ليس بالأمر الهين .

وقد تجلت بوضوح في هذه الغزوة عبقرية خالد العسكرية في خداع العدو وكسب الوقت اللازم للانسحاب ، وهي من المواقف الصعبة التي لا يحسن التصرف فيها إلا القليل من القادة الذين يعرفون تماما متى يقدمون ومتى يكون النصر في الإحجام عن القتال والحفاظ على سلامة الجيش لإعادة الكرة في الوقت المناسب ، فيكونون بذلك [كرارين] كما وصف النبي صلى الله عليه وسلم خالدا ومن معه وليس [فرارين]

6 - فتح مكة.

عاد النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة بعد ثمان سنوات من إخراجه منها على رأس جيش وتحت رايته اثنا عشر ألفا تتقدمهم الكتيبة الخرساء من المهاجرين في موقف مهيب .

فعلى أي هيئة دخل وما عساه أن يفعل بأهلها ؟

قال ابن الأثير رحمه الله :

وقيل: كان سبب ذلك أن رجلاً من خزاعة سمع رجلًا من بكر ينشد هجاء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فشجه فهاج الشر بينهم وثارت بكر بخزاعة حتى بيتوهم باوتير وأعانت قريش بني بكر على خزاعة بسلاح ودواب وقاتل معهم جماعة من قريش مختفين منهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهل بن عمرو فانحازت خزاعة إلى الحرم وقتل منهم نفر.

فلما دخلت خزاعة الحرم قالت بكر: يا نوفل إنا قد دخلنا الحرم إلهك إلهك! فقال: لا إله له اليوم يا بني بكر أصيبوا ثأركم فلعمري إنكم لتسرفون في الحرم أفلا تصيبون ثأركم فيه فلما نقضت بكر وقريش العهد الذي بينهم وبين النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خرج عمرو بن سالم الخزاعي ثم الكعبي حتى قدم على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة فوقف عليه
لا همّ إنّي ناشدٌ محمّدًا حلف أبينا وأبيه الأتلدا
فوالدًا كنّا وكنت ولدا ثمّة أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر رسول الله نصرًا أعتدا وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجرّدا أبيض مثل البدر ينمي صعدا
إن سيم خسفًا وجهه تربّدا في فيلق كالبحر يجري مزبدا
إنّ قريشًا أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكّدا
وجعلوا لي في كداءٍ رصدا وزعموا أن لست أدعوا أحدا
وهم أذلّ وأقلّ عددا هم بيّتونا بالوتير هجّدا فقتّلونا ركّعًا وسجّدا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قد نصرت يا عمرو بن سالم"! ثم عرض لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنان من السماء فقال: "إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب".

وكان بين عبد المطلب وخزاعة حلف قديم فلهذا قال عمرو بن سالم: حلف أبينا وأبيه الأتلدا.

ثم خرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قدموا على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد قال: "كأنكم بأبي سفيان قد جاء ليجدد العهد خوفًا ويزيد في المدة".

ومضى بديل فلقي أبا سفيان بعسفان يريد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليجدد العهد خوفًا منه فقال لبديل: من أين أقبلت قال: من خزاعة في الساحل وبطن هذا الوادي.

قال: أوما أتيت محمدًا قال: لا.

فقال أبو سفيان لأصحابه لما راح بديل: انظروا بعر ناقته فإن جاء المدينة لقد علف النوى.

فنظروا بعر الناقة فرأوا فيه النوى.

ثم خرج أبو سفيان حتى أتى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فدخل على ابنته أم حبيبة زوج النبي فلما أراد أن يجلس على فراش رسول الله طوته عنه.

فقال: أرغبت به عني أم رغبت بي عنه فقالت: هو فراش رسول الله وأنت مشرك نجسٌ فلم أحب أن تجلس عليه فقال: لقد أصابك بعدي شر.

ثم خرج حتى أتى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكلمه فلم يرد عليه شيئًا ثم أتى أبا بكر فكلمه ليكلم له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: ما أنا بفاعل ثم أتى عمر فكلمه فقال: أنا أشفع لكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم! والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به.

ثم خرج حتى أتى عليًا وعنده فاطمة والحسن غلام فكلمه في ذلك فقال له: والله لقد عزم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أمر لا نستطيع أن نكلمه فيه.

فقال لفاطمة: يا بنت محمد هل لك أن تأمري ابنك هذا أن يجير بين الناس فيكون سيد العرب فقالت: ما بلغ ابني أن يجير بين الناس وما يجير على رسول الله أحد.

فالتفت إلى علي فقال له: أرى الأمور قد اشتدت علي فانصحني.

قال: أنت سيد كنانة فقم فأجر بين الناس والحق بأرضك فقام أبو سفيان في المسجد فقال: أيها الناس قد أجرت بين الناس.

ثم ركب بعيره وقدم مكة وأخبر قريشًا ما جرى له وما أشار به علي عليه.

فقالوا له: والله ما زاد على أن يسخر بك.

ثم إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تجهز وأمر الناس بالتجهز إلى مكة وقال: "اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها".

فكتب حاطب بن أبي بلتعة كتابًا إلى قريش يعلمهم الخبر وسيره مع امرأة من مزينة اسمها كنود وقيل: مع سارة مولاة لبني المطلب.

فأرسل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليًا والزبير فأدركاها وأخذا منها الكتاب وجاءا به إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأحضر حاطبًا وقال له: "ما حملك على هذا" فقال: والله إني لمؤمن بالله ورسوله ما بدت ولا غيرت ولكن لي بين أظهرهم أهل وولد وليس لي عشيرة فصانعتهم عليهم.

فقال عمر: دعني أضرب عنقه فإنه قد نافق.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعلموا ما شئتم فقد غفرت لكم" وأنزل الله في حاطب: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ} [الممتحنة: 1]. إلى قوله: {فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ} .
ثم مضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ واستخلف على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين الغفاري وخرج لعشر مضين من رمضان وفتح مكة لعشر بقين منه فصام حتى بلغ ما بين عسفان وأمج فأفطروا واستوعب معه المهاجرون والأنصار فسبعت سليم وألفت مزينة وفي كل القبائل عدد وإسلام وأدركه عيينة بن حصن الفزاري بالعرج والأقرع بن حابس بالسقيا ولقيه العباس بن عبد المطلب بالحجفة وقيل: بذي الحليفة مهاجرًا فأمره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يرسل رحله إلى المدينة ويعود معه وقال له: "أنت آخر المهاجرين وأنا آخر الأنبياء".

ولقيه أيضًا محرمة بن نوفل وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أبي أمية بنيق العقاب فالتمسا الدخول على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكلمته أم سلمة فيهما وقالت له: ابن عمك وابن عمتك.

قال: "لا حاجة لي بهما أما ابن عمي فهتك عرضي وأما ابن عمتي فهو الذي قال بمكة ما قال".

فلما سمعا ذلك وكان مع أبي سفيان ابن له اسمه جعفر فقال: والله ليأذن لي أو لآخذن بيد ابني هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشًا وجوعًا.

فرق لهما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأدخلهما إليه فأسلما.

وقيل: إن عليًا قال لأبي سفيان بن الحارث: إيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قبل وجهه فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف: {تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ} [يوسف: 91]. فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه فعلًا ولا قولًا ففعل ذلك.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: {لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: 92]. وقربهما فأسلما وأنشده أبو سفيان قوله في إسلامه واعتذاره مما مضى: لعمرك

إنّي يوم أحمل رايةً لتغلب خيل اللاّت خيل محمّد لكالمدلج الحيران أظلم ليله فهذا أواني حين أهدى وأهتدي وهادٍ هداني غير نفسي ونالني مع الله من طردت كلّ مطرّد الأبيات.

فضرب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ صدره وقال: "أنت طرّدتني كلَّ مطرَّد".

وقيل: إن أبا سفيان لم يرفع رأسه إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حياء منه.

وقدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مر الظهران في عشرة آلاف فارس من بني غفار أربعمائة ومن مزينة ألف وثلاثة نفر ومن بني سليم سبعمائة ومن جهينة ألف وأربعمائة وسائرهم من قريش والأنصار وحلفائهم وطوائف من العرب ثم من تميم وأسد وقيس.

فلما نزل مر الظهران قال العباس بن عبد المطلب: يا هلاك قريش! والله لئن بغتها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في بلادها فدخل عنوة إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر.

فجلس على بغلة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال: أخرج لعلي أرى حطابًا أو رجلًا يدخل مكة فيخبرهم بمكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيأتونه ويستأمنونه.

قال: فخرجت أطوف في الأراك إذ سمعت صوت أبي سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء الخزاعي قد خرجوا يتجسسون.

فقال أبو سفيان: ما رأيت نيرانًا أكثر من هذه.

فقال بديل: هذه نيران خزاعة.

فقال أبو سفيان: خزاعة أذل من ذلك.

فقلت: يا أبا حنظلة يعني أبا سفيان كان يكنى بذلك فقال: أبو الفضل ! قلت: نعم.

قال: لبيك فداك أبي وأمي ما وراءك فقلت: هذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في المسلمين أتاكم في عشرة آلاف.

قال: ما تأمرني قلت: تركب معي فأستأمن لك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوالله لئن ظفر بك ليضربن عنقك.

فردفني فخرجت أركض به نحو رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكلما مررت بنار من نيران المسلمين يقولون: عم رسول الله على بغلة رسول الله حتى مررنا بنار عمر بن الخطاب فقال: أبو سفيان الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد! ثم اشتد نحو النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وركضت البغلة فسبقت عمر ودخل عمر على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبره وقال: دعني أضرب عنقه.

فقلت: يا رسول الله إني قد أجرته.

ثم أخذت برأس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقلت: لا يناجيه اليوم أحد دوني.

فلما أكثر فيه عمر قلت: مهلًا يا عمر فوالله ما تصنع هذا إلا لأنه من بني عبد مناف ولو كان من بني عدي ما قلت هذه المقالة.

فقال: مهلًا يا عباس فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب من إسلام الخطاب لو أسلم.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اذهب فقد آمناه حتى تغدو علي به بالغداة".

فرجعت به إلى منزلي وغدوت به على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما رآه قال: "ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله" قال: بلى بأبي أنت وأمي يا رسول الله لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئًا.

فقال: "ويحك ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله" فقال: بأبي أنت وأمي أما هذه ففي النفس منها شيء.

قال العباس: فقلت له: ويحكم تشهد شهادة الحق قبل أن تضرب عنقك! قال: فتشهد وأسلم معه حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء.

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ للعباس: "اذهب فاحبس أبا سفيان عند خطم الجبل بمضيق الوادي حتى تمر عليه جنود الله".

فقلت: يا رسول الله إنه يحب الفخر فاجعل له شيئًا يكون في قومه.

فقال: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمنٌ ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن".

قال: فخرجت به فحبسته عند خطم الجبل فمرت عليه القبائل فيقول: من هؤلاء فأقول: أسلم.

فيقول: ما لي ولأسلم.

ويقول: من هؤلاء فأقول: جهينة.

فيقول: ما لي ولجهينة.

حتى مر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في كتيبته الخضراء مع المهاجرين والأنصار في الحديد لا يرى منهم إلا الحدق.

فقال: من هؤلاء فقلت: هذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في المهاجرين والأنصار.

فقال: لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيمًا.
فقلت: ويحك إنها النبوة.

فقال: نعم إذن.

فقلت: الحق بقومك سريعًا فحذرهم.

فخرج حتى أتى مكة ومعه حكيم بن حزام فصرخ في المسجد: يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به.

فقالوا: فمه.

قال: من دخل داري فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن ثم قال: يا معشر قريش أسلموا تسلموا.

فأقبلت امرأته هند فأخذت بلحيته وقالت: يا آل غالب اقتلوا هذا الشيخ الأحمق.

فقال: أرسلي لحيتي وأقسم لئن أنت لم تسلمي لتضربن عنقك ادخلي بيتك! فتركته.

وبعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أثرهما الزبير وأمره أن يدخل ببعض الناس من كداء وكان على المجنبة اليسرى وأمر سعد بن عبادة أن يدخل ببعض الناس من كداء فقال سعد حين وجهه: اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة.

فسمعها رجل من المهاجرين فأعلم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال لعلي بن أبي طالب: "أدركه فخذ الراية منه وكن أنت الذي تدخل بها" وأمر خالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكة من الليط في بعض الناس وكان معه أسلم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من العرب وهو أول يوم أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خالد بن الوليد.

ولما وصل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى ذي طوىً وقف على راحلته وهو معتجر ببرد خز أحمر وقد وضع رأسه تواضعًا لله تعالى حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح حتى إن أسفل لحيته ليمس واسطة الرحل ثم تقدم ودخل من أذاخر بأعلاها وضربت قبته هناك.

وكان عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو قد جمعوا ناسًا بالخندمة ليقاتلوا ومعهم الأحابيش وبنو بكر وبنو الحارث بن عبد مناة فلقيهم خالد بن الوليد فقاتلهم فقتل من المسلمين جابر بن جبيل الفهري وحبيش بن خالد وهو الأشعر الكعبي وسلمة بن الميلاء وقتل من المشركين ثلاثة عشر رجلًا ثم انهزم المشركون.

وكان مع عكرمة حماس بن خالد الدئلي وكان قد قال لامرأته: لآتينك بخادم من أصحاب محمد فلما عاد إليها منهزمًا قالت له تستهزئ به: أين الخادم فقال:
فأنت لو شهدتنا بالخندمة إذ فرّ صفوانٌ وفرّ عكرمة
وأبو يزيد كالعجوز المؤتمة لم تنطقي في اللّوم أدنى كلمة
إذ ضربتنا بالسّيوف المثلمة لهم زفيرٌ خلفنا وغمغمة
وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد عهد إلى أمرائه أن لا يقتلوا أحدًا إلا من قاتلهم.

فلما انهزم المشركون وأراد المسلمون دخول مكة قام في وجوههم نساء مشركات يلطمن وجوه الخيل بالخُمر وقد نشرن شعورهن فرآهن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإلى جنبه أبو بكر فتبسم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال: "يا أبا بكر كيف قال حسان" فأنشده:
تكاد جيادنا مستمطرات يلطّمهنّ بالخمر النّساء
وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أمر بقتل ثمانية رجال وأربع نسوة فأما الرجال فمنهم عكرمة بن أبي جهل كان يشبه أباه في إيذاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعداوته والإنفاق على محاربته فلما فتح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة خافه على نفسه فهرب إلى اليمن وأسلمت امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام فاستأمنت له وخرجت في طلبه ومعها غلام لها رومي فراودها عن نفسها فأطمعته ولم تمكنه حتى أتت حيًا من العرب فاستعانتهم عليه فأوثقوه وأدركت عكرمة وهو يريد ركوب البحر فقالت: جئتك من عند أوصل الناس وأحلمهم وأكرمهم وقد آمنك فرجع وأخبرته خبر الرومي فقتله قبل أن يسلم.

فلما قدم على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سر به فأسلم وسأل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يستغفر له فاستغفر.ومنهم صفوان بن أمية بن خلف وكان أيضًا شديدًا على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهرب خوفًا منه إلى جدة فقال عمير بن وهب الجمحي: يا رسول الله إن صفوان سيد قومي وقد خرج هاربًا منك فآمنه.

قال: "هو آمنٌ" وأعطاه عمامته التي دخل بها مكة ليعرف بها أمانه فخرج بها عمير فأدركه بجدة فأعلمه بأمانه وقال: إنه أحلم الناس وأوصلهم وإنه ابن عمك وعزه عزك وشرفه شرفك.

قال: إني أخافه على نفسي.

قال: هو أحلم من ذلك.

فرجع صفوان وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن هذا يزعم أنك آمنتني.

قال: "صدق".

قال: اجعلني بالخيار شهرين.

قال: "أنت فيه أربعة أشهر" فأقام معه كافرًا وشهد معه حنينًا والطائف ثم أسلم وحسن إسلامه وتوفي بمكة عند خروج الناس إلى البصرة ليوم الجمل.

ومنهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح من بني عامر بن لؤي وكان قد أسلم وكتب الوحي إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكان إذا أملى عليه: عزيز حكيم يكتب: عليم حكيم وأشباه ذلك ثم ارتد وقال لقريش: إني أكتب أحرف محمدٍ في قرآنه حيث شئت ودينكم خير من دينه فلما كان يوم الفتح فر إلى عثمان بن عفان وكان أخاه من الرضاعة فغيبه عثمان حتى اطمأن الناس ثم أحضره عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وطلب له الأمان فصمت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ طويلًا ثم آمنه فأسلم وعاد فلما انصرف قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأصحابه: "لقد صمت ليقتله أحدكم".

فقال أحدهم: هلا أومأت إلينا فقال: "ما كان للنبي أن يقتل بالإشارة إن الأنبياء لا يكون لهم خائنة الأعين".

ومنهم عبد الله بن خطل وكان قد أسلم فأرسله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مصدقًا ومعه رجل من الأنصار وغلامٌ له رومي قد أسلم فكان الرومي يخدمه ويصنع الطعام فنسي يومًا أن يصنع له طعامًا فقتله وارتد وكان له قينتان تغنيان بهجاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقتله سعيد بن حريث المخزومي أخو عمرو بن حريث وأبو برزة الأسلمي.

ومنهم الحويرث بن نقيذ بن وهب بن عبد بن قصي وكان يؤذي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمكة وينشد الهجاء فيه فلما كان يوم الفتح هرب من بيته فلقيه علي بن أبي طالب فقتله.

ومنهم مقيس بن صبابة وإنما أمر بقتله لأنه قتل الأنصاري الذي قتل أخاه هشامًا خطًا وارتد فلما انهزم أهل مكة يوم الفتح اختفى بمكان هو وجماعة وشربوا الخمر فعلم به نميلة بن عبد الله الكناني فأتاه فضربه بالسيف حتى قتله.

ومنهم عبد الله بن الزبعري السهمي وكان يهجو رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمكة ويعظم القول فيه فهرب يوم الفتح هو وهبيرة بن أبي وهب المخزومي زوج أم هانئ بنت أبي طالب إلى نجران فأما هبيرة فأقام بها مشركًا حتى هلك وأما ابن الزبعري فرجع إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ واعتذر فقبل عذره فقال حين أسلم:

يا رسول المليك إنّ لساني راتقٌ ما فتقت إذ أنا بور
إذ أبارِي الشّيطان في سنن الغيّ ومن نال مثله مثبور
آمن اللّحم والعظام بربّي ثمّ نفسي الشهيد أنت النّذير

في أشعار له كثيرة يعتذر بها.

ومنهم وحشي بن حرب قاتل حمزة فهرب يوم الفتح إلى الطائف ثم قدم في وفد أهله على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ "أوحشي" قال: نعم.

قال: "أخبرني كيف قتلت عمي" فأخبره فبكى وقال: "غيب وجهك عني".

وهو أول من جلد في الخمر وأول من لبس المعصفر المصقول في الشام.

وهرب حويطب بن عبد العزى فرآه أبو ذر في حائط فأخبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمكانه فقال: "أوليس قد آمنا الناس إلا من قد أمرنا بقتله" فأخبره بذلك فجاء إلى النبي فأسلم.

قيل: إنه دخل يومًا على مروان بن الحكم وهو على المدينة فقال له مروان: يا شيخ تأخر
فأما النساء فمنهن هند بنت عتبة وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر بقتلها لما فعلت بحمزة ولما كانت تؤذي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمكة فجاءت إليه النساء متخفية فأسلمت وكسرت كل صنم في بيتها وقالت: لقد كنا منكم في غرور وأهدت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جديين واعتذرت من قلة ولادة غنمها فدعا لها بالبركة في غنمها فكثرت فكانت تهب وتقول: هذا من بركة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فالحمد لله الذي هدانا للإسلام.

ومنهن سارة وهي مولاة عمرو بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف وهي التي حملت كتاب حاطب بن أبي بلتعة في قول بعضهم وكانت قدمت على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مسلمة فوصلها فعادت إلى مكة مرتدة فأمر بقتلها فقتلها علي بن أبي طالب.

ومنهن قينتا عبد الله بن خطل وكانتا تغنيان بهجاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأمر بقتلهما فقتلت إحداهما واسمها قريبة وفرت الأخرى وتنكرت وجاءت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأسلمت وبقيت إلى خلافة عمر بن الخطاب فأوطأها رجل فرسه خطًا فماتت وقيل: بقيت إلى خلافة عثمان فكسر رجل ضلعًا من أضلاعها خطًا فماتت فأغرمه عثمان ديتها.ولما دخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة كانت عليه عمامة سوداء فوقف على باب الكعبة وقال: "لا إله إلا الله وحده وصدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ألا كل دم أو مأثرة أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحج".

ثم قال: "يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم" قالوا: خيرًا أخ كريم وابن أخٍ كريم.

قال: "اذهبوا فأنتم الطلقاء" فعفا عنهم وكان الله قد أمكنه منهم وكانوا له فيئًا فلذلك سمى أهل مكة الطلقاء.

وطاف بالكعبة سبعًا ودخلها وصلى فيها ورأى فيها صور الأنبياء فأمر بها فمحيت وكان على الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا وكان بيده قضيب فكان يشير به إلى الأصنام وهو يقرأ: {وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} [الإسراء: 81]. فلا يشير إلى صنم منها إلا سقط لوجهه.

وقيل بل أمر بها وخذمت وكسرت.

انتهى .

أخلاق القائد المسلم

لقد أعطانا النبي صلى الله عليه وسلم درسا كبيرا في ما يجب أن تكون عليه أخلاق القائد المسلم ، فقد دخل مكة متواضعا لله تعالى مطرقا رأسه وهو بموطن يدعو إلى البطر والأشر والزهو {إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى} .

ثم قال لأهل مكة وهم من ظلموه وكذبوه وقاتلوه وكفروا بما أرسل به "اذهبوا فأنتم الطلقاء" مما أدى إلى إسلامهم فيما بعد متأثرين بهذه الأخلاق النبيلة من هذا الرسول الكريم الرؤوف الرحيم ، لأن البشرية جمعاء ومنذ القدم لم تعهد في الجيوش الفاتحة إلا ما حكاه الله تعالى في كتابه {إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً} .

7 - غزوة حنين.

هي أولى الغزوات بعد الفتح العظيم الذي من الله به على عباده في مكة ولأول مرة يصبح تعداد جيش المسلمين أكثر من عدوهم ، فما هو الدرس هذه المرة ؟

قال ابن الأثير رحمه الله :

.وكانت في شوال وسببها أنه لما سمعت هوازن بما فتح الله على رسوله من مكة جمعها مالك بن عوف النصري من بني نصر بن معاوية بن بكر وكانوا مشفقين من أن يغزوهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد فتح مكة وقالوا: لا مانع له من غزونا والرأي أن نغزوه قبل أن يغزونا.

واجتمع إليه ثقيف يقودها قارب بن الأسود بن مسعود سيد الأحلاف وذو الخمار سبيع بن الحارث وأخوه الأحمر بن الحارث سيد بني مالك ولم يحضرها من قيس عيلان إلا نصر وجشم وسعد بن كر وناس من بني هلال ولم يحضرها كعب ولا كلاب وفي جشم دريد بن الصمة شيخ كبير ليس فيه شيء إلا التيمن برأيه وكان شيخًا مجربًا.

فلما أجمع مالك بن عوف المسير إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حط مع الناس أموالهم ونساءهم فلما نزلوا أوطاس جمع الناس وفيهم دريد بن الصمة فقال دريد: بأي واد أنتم فقالوا: بأوطاس.

قال: نعم مجال الخيل لا حزنٌ ضرسٌ ولا سهلٌ دهسٌ ما لي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير ويعار الشاء وبكاء الصغير قالوا: ساق مالك مع الناس ذلك.

فقال: يا مالك إن هذا يوم له ما بعده ما حملك على ما صنعت قال: سقتهم مع الناس ليقاتل كل إنسان عن حريمه وماله.

قال دريد: راعي ضأنٍ والله هل يرد المنهزم شيء إنها إن كانت لك لم ينفعل إلا رجل بسيفه ورمحه وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك.

وقال: ما فعلت كعب وكلاب قالوا: لم يشهدها أحد منهم.

قال: غاب الجد والحد لو كان يوم علاء ورفعة لم تغب عنه كعب ولا كلاب ووددت أنكم فعلتم ما فعلا.

ثم قال: يا مالك ارفع من معك إلى عليا بلادهم ثم الق الصباء على الخيل فإن كانت لك لحق بك من وراءك وإن كانت عليك كنت قد أحرزت أهلك ومالك.

قال مالك: والله لا أفعل ذلك إنك قد كبرت وكبر علمك والله لتطيعنني يا معشر هوازن أو لأتكين على هذا السيف حتى يخرج من ظهري وكره أن يكون لدريد فيها ذكر.

فقال دريد: هذا يوم لم أشهده لوم يفتني.

ثم قال مالك: أيها الناس إذا رأيتم القوم فاكسروا جفون سيوفكم وشدوا عليهم شدة رجل واحد.

وبعث مالك عيونه ليأتوه بالخبر فرجعوا إليه وقد تفرقت أوصالهم فقال: ما شأنكم قالوا: رأينا رجالًا بيضًا على خيل بلق فوالله ما تماسكنا أن حل بنا ما ترى! فلم ينهه ذلك عن وجهه أن مضى على ما يريد.

ولما بلغ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خبر هوازن أجمع المسير إليهم وبلغه أن عند صفوان بن أمية أدراعًا وسلاحًا فأرسل إليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يومئذ مشرك: "أعرنا سلاحك نلق فيه عدونا".

فقال له صفوان: أغصبًا يا محمد فقال: "بل عاريةً مضمونةً نؤديها إليك".

قال: ليس بهذا بأس فأعطاه مائة درع بما يصلحها من السلاح.

ثم سار النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه ألفان من مسلمة الفتح مع عشرة آلاف من أصحابه فكانوا اثني عشر ألفًا فلما رأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كثرة من معه قال: لن نغلب اليوم من قلة وذلك قوله تعالى: {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا} [التوبة: 25]. وقيل: إنما قالها رجل من بكر.

واستعمل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على من بمكة عتاب بن أسيد.

قال جابر: فلما استقبلنا وادي حنين انحدرنا في وادٍ أجوف حطوط إنما ننحدر فيه انحدارًا في عماية الصبح وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي فكمنوا لنا في شعابه ومضايقه قد تهيؤوا وأعدوا فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدت علينا شدة رجل واحد فانهزم الناس أجمعون لا يلوي أحد على أحد وانحاز رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذات اليمين ثم قال: "أيها الناس هلموا إلي أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله" قاله ثلاثًا ثم احتملت الإبل بعضها بعضًا إلا أنه قد بقي مع النبي ـ

صلى الله عليه وسلم ـ نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته منهم: أبو بكر وعمر وعلي والعباس وابنه الفضل وأبو سفيان بن الحارث وربيعة بن الحارث وأيمن ابن أم أيمن وأسامة بن زيد.

قال: وكان رجل من هوازن على جمل أحمر بيده راية سوداء أمام الناس فإذا أدرك رجلًا طعنه ثم رفع رايته لمن وراءه فاتبعوه فحمل عليه علي فقتله.ولما انهزم الناس تكلم رجال من أهل مكة بما في أنفسهم من الضغن فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر والأزلام معه.

وقال كلدة بن النبل وهو أخو صفوان بن أمية لأمه وكان صفوان بن أمية يومئذ مشركًا: الآن بطل السحر.

فقال له صفوان: اسكت فض الله فاك فوالله لأن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن! وقال شيبة بن عثمان: اليوم أدرك ثأري من محمد وكان أبوه قتل بأحد قال: فأدرت به لأقتله فأقبل شيء حتى تغشى فؤادي فلم أطق ذلك.

وكان العباس مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ آخذًا بحكمة بغلته دلدل وهو عليها وكان العباس جسيمًا شديد الصوت فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا عباس اصرخ يا معشر الأنصار يا أصحاب السمرة!" ففعل فأجابوه: لبيك لبيك! فكان الرجل يريد أن يثني بعيره فلا يقدر فيأخذ سلاحه ثم ينزل عنه ويؤم الصوت فاجتمع على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مائة رجل فاستقبل بهم القوم وقاتلهم فلما رأى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ شدة القتال قال: "أنا النبيّ لا كذب أنا ابن عبد المطّلب الآن حمي الوطيس" وهو أول من قالها.

واقتتل الناس قتالًا شديدًا وقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لبغلته دلدل: "البدي دلدل" فوضعت بطنها على الأرض فأخذ حفنة من تراب فرمى به في وجوههم فكانت الهزيمة فما رجع الناس إلا والأسارى في الحبال عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقيل: بل أقبل شيء أسود من السماء مثل البجاد حتى سقط بين القوم فإذا نمل أسود مبثوث فكانت الهزيمة.

ولما انهزمت هوازن قتل من ثقيف وبني مالك سبعون رجلًا فأما الأحلاف من ثقيف فلم يقتل منهم غير رجلين لأنهم انهزموا سريعًا.

وقصد بعض المشركين الطائف ومعهم مالك بن عوف واتبعت خيل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المشركين فقتلتهم فأدرك ربيعة بن رفيع السلمي دريد ابن الصمة ولم يعرفه لأنه كان في شجار لكبره وأناخ بعيره فإذا هو شيخ كبير فقال له دريد: ماذا تريد قال: أقتلك.

قال: ومن أنت فانتسب له ثم ضربه بسيفه فلم يغن شيئًا.

فقال دريد: بئس ما سلحتك أمك خذ سيفي فاضرب به ثم ارفع عن العظام واخفض عن الدماغ فإني كذلك كنت أقتل الرجال وإذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة فرب يوم قد منعت فيه نساءك.

فقتله.

فلما أخبر أمه قالت: والله لقد أعتق أمهات لك ثلاثًا.

واستلب أبو طلحة الأنصاري يوم حنين عشرين رجلًا وحده وقتلهم.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ قتل قتيلًا فله سلبه".

وقتل أبو قتادة الأنصاري قتيلًا وأجهضه القتال عن أخذ سلبه فأخذه غيره فلما قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك قام أبو قتادة فقال: قتلت قتيلًا وأخذ غيري سلبه.

فقال الذي أخذ السلب: هو عندي فارضه مني يا رسول الله.

فقال أبو بكر: لا والله لا تعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله تقاسمه فرد عليه السلب.

انتهى .

حقيقة مفهوم النصر

أنزل الله تعالى في كتابه الكريم {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} كقانون ثابت يلغي أي قيمة قد تتعلق بها النفوس التي لا تبلى حساباتها إلا من خلال لغة الأرقام ، فكان لا بد من تجربة عملية وبلغة الأرقام أيضا حتى يرسخ الإيمان بالقانون السابق .

لقد كان للتفوق العددي للمسلمين في هذه الغزوة أثره البالغ في نفوس الصحابة مما دعا أحدهم أن يقول (لن نغلب اليوم من قلة) .
فكان لا بد من درس سريع ليزيل هذا الأثر من تلك النفوس .
{وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ } أما النصر فلم ينزل إلا على الفئة القليلة الثابتة الصابرة على أمر الله الموقنة بموعوده "أنا النبي لا كذب أنا بن عبدالمطلب" .
فكان درسا راسخا في عقول وقلوب الجيل الأول من المجاهدين ، إن مسألة الأعداد لا تقدم ولا تؤخر في النصر وأن من توكل على شيء وكل إليه ، وأن النصر في حقيقته من عند الله {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} .
ولن يدرك ما عند الله إلا بطاعته ، ومن طاعته في موطن الحرب الأخذ بأسباب النصر ومنها تقوى الله والإخلاص له والتوبة من الذنوب والاحتراز منها والإعداد الجيد مع حسن التوكل والثبات وذكر الله وطاعة الأمير وترك التنازع والاستنصار بالمستضعفين والتبرؤ من الحول والقوة والالتجاء والاعتصام بالله وحده .

8 - حصار الطائف.

يعتبر السلاح المناسب على أرض المعركة عاملا حاسما في كفة من يملكه .
وعلى مر التاريخ تزامن تطور أساليب القتال مع تطور الأسلحة المستخدمة في ذلك ، ونرى في هذه الغزوة استخدام المسلمين لأول مرة [المنجنيق] في محاولتهم لفتح الطائف ، وإن كان الحصن لم يفتح إلا أنه تطور مهم في الجيش المسلم الذي واكب التقدم الموجود على الساحة واستفاد منه حتى يحقق قوله تعالى {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ} .

قال ابن الأثير رحمه الله :

لما قدم المنهزمون من ثقيف ومن انضم إليهم من غيرهم إلى الطائف أغلقوا عليهم مدينتهم واستحصروا وجمعوا ما يحتاجون إليه.

فسار إليهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما كان ببحرة الرغاء قبل وصوله إلى الطائف قتل بها رجلًا من بني ليث قصاصًا كان قد قتل رجلًا من هذيل فأمر بقتله وهو أول دمٍ أقيد به في الإسلام وسار إلى ثقيف فحصرهم بالطائف نيفًا وعشرين يومًا ونصب عليهم منجنيقًا أشار به سلمان الفارسي وقاتلهم قتالًا شديدًا حتى إذا كان يوم الشدخة عند جدار الطائف فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد المحماة فخرجوا من تحتها فرماهم من بالطائف بالنبل فقتلوا رجالًا.

فأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقطع أعناب ثقيف فقطعت ونزل إلى رسول الله نفر من رقيق أهل الطائف فأعتقهم منهم أبو بكرة نفيع بن مسروح وكان للحارث بن كلدة وإنما قيل له أبو بكرة ببكرة نزل فيها وغيره.

انتهى .

السلاح في المعركة

إن تحصيل السلاح المناسب للمعركة هو أمر مطلوب شرعا لأداء فريضة الجهاد وهو أيضا أمر منوط بالاستطاعة لقوله تعالى {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ}.
فلا يوقفنا عن الجهاد أننا لا نملك ما عند عدونا من سلاح .
فكما أن الله تعالى ينصر الفئة القليلة على الفئة الكثيرة فإنه قادر على نصر الفئة المؤمنة وإن كانت ضعيفة العدة والسلاح .
والسلاح المطلوب تحصيله هو النافع في المعركة لأن السلاح أمر متغير حسب الفاعلية والتأثير ، فما يصلح للهجوم قد لا يصلح للدفاع ، كما أن أساليب القتال قد تختلف من عصر لآخر ، فالجيوش النظامية في العصر الحديث وإن كانت تملك كل أنواع الأسلحة إلا أنها تقف عاجزة أمام حرب عصابات متقنة وطويلة الأمد ، لأن حروب العصابات تحيد بل تحرج أكثر أنواع الأسلحة في الجيوش النظامية في المعركة وتصبح بلا فاعلية في هذا النوع من القتال على وجه الخصوص .
ومن هنا تعرف أهمية اختيار السلاح والأسلوب المناسب للقتال في المعركة .

9- غزوة تبوك.

تميزت غزوة تبوك بأنها أكبر جيش خرج فيه النبي صلى الله عليه وسلم . .
وفي أطول مسافة . .
وفي أسوأ الأحوال أيضا {وَقَالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ } .
وفوق كل هذا لم يتوفر للجيش المال الكافي لتجهيزه {وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ }
فكان لا مناص من تسميته [جيش العسرة] .

قال ابن الأثير رحمه الله :

لما عاد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أقام بالمدينة بعد عوده من الطائف ما بين ذي الحجة إلى رجب ثم أمر الناس بالتجهز لغزو الروم وأعلم الناس مقصدهم لبعد الطريق وشدة الحر وقوة العدو وكان قبل ذلك إذا أراد غزوة ورى بغيرها.

وكان سببها أن النبي - صلى الله عليه وسلم - بلغه أن هرقل ملك الروم ومن عنده من متنصرة العرب قد عزموا على قصده فتجهز هو والمسلمون وساروا إلى الروم.

وكان الحر شديدًا والبلاد مجدبة والناس في عسرة وكانت الثمار قد طابت فأحب الناس المقام في ثمارهم فتجهزوا على كره فكان ذلك الجيش يسمى العسرة.

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - للجد بن قيس وكان من رؤساء المنافقين: "هل لك في جلاد بني الأصفر" فقال: والله لقد عرف قومي حبي للنساء وأخشى أن لا أصبر على نساء بني الأصفر فإن رأيت أن تأذن لي ولا تفتني.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قد أذنت لك" فأنزل الله تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي} [الآية التوبة: 49]. وقال قائل من المنافين: لا تنفروا في الحر فنزل قوله تعالى: {وَقَالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا} [التوبة: 81].

ثم إن النبي - صلى الله عليه وسلم - تجهز وأمر بالنفقة في سبيل الله وأنفق أهل الغنى وأنفق أبو بكر جميع ما بقي عنده من ماله وأنفق عثمان نفقة عظيمة لم ينفق أحد أعظم منها قيل: كانت ثلاثمائة بعير وألف دينار.

ثم إن رجالًا من المسلمين أتوا النبي - صلى الله عليه وسلم - وهم البكاؤون وكانوا سبعة نفر من الأنصار وغيرهم وكانوا أهل حاجة فاستحملوه.

فقال: "لا أجد ما أحملكم عليه" فتولوا يبكون فلقيهم يامين بن عمير بن كعب النضري فسألهم عما يبكيهم فأعلموه فأعطى أبا ليلى عبد الرحمن بن كعب وعبد الله بن مغفل المزني بعيرًا فكانا يعتقبانه مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

وجاء المعذرون من الأعراب فاعتذروا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم يعذرهم الله وكان عدد من المسلمين تخلفوا من غير شك منهم: كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية وأبو خيثمة. فلما سار رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تخلف عنه عبد الله بن أبي المنافق فيمن تبعه من أهل النفاق واستخلف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على المدينة سباع بن عرفطة وعلى أهله علي بن أبي طالب فأجف به المنافقون وقالوا: ما خلفه إلا استثقالًا له.

فلما سمع علي ذلك أخذ سلاحه ولحق برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبره ما قال المنافقون فقال: "كذبوا وإنّما خلّفتُك لما ورائي فارجعْ فاخلفْني في أهلي وأهلك أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي".

فرجع.

فسار رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ.
ثم إن أبا خيثمة أقام أيامًا فجاء يومًا إلى أهله وكانت له امرأتان وقد رشت كل امرأة منهما عريشها وبردت له ماء وصنعت طعامًا فلما رآه قال: يكون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الحر والريح وأبو خيثمة في الظل البارد والماء البارد مقيم! ما هذا بالنصف والله ما أحل عريشًا منهما حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم.

فهيأ زاده وخرج إلى ناضحه فركبه وطلب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأدركه بتبوك فقال الناس: يا رسول الله هذا راكب مقبلٌ.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كن أبا خيثمة".

فقالوا: هو والله أبو خيثمة.

وأتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبره بخبره فدعا له.

وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين مر بالحجر وهو بطريقه وهو منزل ثمود قال لأصحابه: "لا تشربوا من هذا الماء شيئًا ولا تتوضؤوا منه وما كان من عجين فألقوه واعلفوه الإبل ولا تأكلوا منه شيئًا ولا يخرج الليلة أحد إلا مع صاحب له".

ففعل ذلك الناس ولم يخرج أحدٌ إلا رجلين من بني ساعدة خرج أحدهما لحاجته فأصابه جنون وأما الذي طلب بعيره فاحتمله الريح إلى جبلي طيئ فأخبر بذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: "ألم أنهكم أن لا يخرج أحد إلا مع صاحب له" فأما الذي خنق فدعا له فشفي وأما الذي حملته الريح فأهدته طيئ إلى رسول الله بعد عوده إلى المدينة.

وأصبح الناس بالحجر ولا ماء معهم فشكوا ذلك إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فدعا الله فأرسل سحابة فأمطرت حتى روي الناس.

وكان بعض المنافقين يسير مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما جاء المطر قال له بعض المسلمين: هل بعد هذا شيء قال: سحابة مارة.

وضلت ناقة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الطريق فقال لأصحابه وفيهم عمارة بن حزم وهو عقبي بدري: "إن رجلًا قال إن محمدًا يخبركم الخبر من السماء وهو لا يدري أين ناقته وإني والله لا أعلم إلا ما علمني الله عز وجل وهي في الوادي في شعب كذا قد حبستها شجرة بزمامها" فانطلقوا فأتوه بها فرجع عمارة إلى أصحابه فخبرهم بما قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الناقة تعجبًا مما رأى.

وكان زيد بن لصيت القينقاعي منافقًا وهو في رحل عمارة قد قال هذه المقالة فأخبر عمارة بأن زيدًا قد قالها فقام عمارة يطأ عنقه وهو يقول: في رحلي داهية ولا أدري! اخرج عني يا عدو الله! فزعم بعض الناس أن زيدًا تاب بعد ذلك وحسن إسلامه وقيل: لم يزل متهمًا حتى هلك.

ووقف بأبي ذر جمله فتخلف عليه فقيل: يا رسول الله تخلف أبو ذر.

فقال: "ذروه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم".

فكان يقولها لكل من تخلف عنه فوقف أبو ذر على جمله فلما أبطأ عليه أخذ رحله عنه وحمله على ظهره وتبع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ماشيًا.

فنظر الناس فقالوا: يا رسول الله هذا رجل على الطريق وحده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كن أبا ذر".

فلما تأمله الناس قالوا: هو أبو ذر.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يرحم الله أبا ذرّ يمشي وحده ويموت وحده ويُبْعَث وحده". ويشهده عصابة من المؤمنين.

فلما نفى عثمان أبا ذر إلى الربذة أصابه بها أجله ولم يكن معه إلا امرأته وغلامه فأوصاهما أن يغسلاه ويكفناه ثم يضعاه على الطريق فأول ركب يمر بهما يستعينان بهم على دفنه ففعلا ذلك فاجتاز بهما عبد الله بن مسعود في رهط من أهل العراق فأعلمته امرأة أبي ذر بموته.

فبكى ابن مسعود وقال: صدق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تمشي وحدك وتموت وحدك وتبعث وحدك ثم واروه.
وانتهى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى تبوك فأتى يوحنا ابن رؤبة صاحب أيلة فصالحه على الجزية وكتب له كتابًا فبلغت جزيتهم ثلاثمائة دينار ثم زاد فيها الخلفاء من بني أمية.

فلما كان عمر بن عبد العزيز لم يأخذ منهم غير ثلاثمائة وصالح أهل أذرح على مائة دينار في كل رجب وصالح أهل جرباء على الجزية وصالح أهل مقنا على ربع ثمارهم.

انتهى .

الصبر

إن خروج جيش كهذا الجيش في هذا العدد وهذه المسافة وفي هذه الظروف من شدة الحر والنفقة ما كان ليتم لو لا
[الصبر] الذي حمله الصحابة معهم قبل أن يحملوا أرواحهم ومتاعهم في هذا الطريق ، لقد تعلمنا أن الصبر من العبادة بمثابة الرأس من الجسد كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وإن كان المسلم مطالبا بأنواع مختلفة من الصبر ، كالصبر على طاعة الله والصبر عن معصيته والصبر على قضائه ، فقد جمعت عبادة الجهاد هذه الأنواع الثلاثة في قالب واحد .
فالقيام بأمر الجهاد على ما فيه من مشاق ثقيلة على النفس والبدن لهو من أعظم الصبر على طاعة الله تعالى ، واجتناب الذنوب والغلول وحب الإنتقام والتعدي على الدماء المعصومة من أهل الحرب كالنساء والأطفال لهو من صميم الصبر عن معصية الله تعالى ، أما الصبر على قضاء الله فكل ما يصيب المجاهد من أسر أو بتر أو جراح فهو من ذلك إن رضي وصبر صبرا جميلا .
وقد قيل (إن الصبر مفتاح الفرج) والحقيقة أنه مفتاح لكل خير !
فهو من مفاتيح السعادة ، قال عمر رضي الله عنه (أدركنا خير معاشنا بالصبر)
ومن مفاتيح النصر (وما النصر إلا صبر ساعة)
ومن مفاتيح الشهادة " والله لا يقاتلهم اليوم رجل صابر محتسب فيقتل إلا أدخله الله الجنة ".

إن كان الصبر قد تكفل الله بثواب صاحبه "كل عمل بن آدم له إلا الصبر فإنه لي وأنا أجزي به" فقد احتل الصبر مرتبة عالية من ثواب الله تعالى {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ}وكما أن الله تعالى كتب على الإنسان البلايا والمحن سواء صبر أم لم يصبر فقد بين أن من صبر فله الرضا ومن سخط فعليه السخط ، وانظر إلى من صبر في هذه الغزوة على الإنفاق وقمع شح نفسه بما بشر به
"ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم" وانظر إلى من صبر على الخروج في الضح والحرور بما بشر به {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ}.

10 - معركة اليمامة.

قال ابن الأثير رحمه الله :

.فلما رجع خالد من البطاح إلى أبي بكر واعتذر إليه قبل عذره ورضي عنه ووجهه إلى مسيلمة وأوعب معه المهاجرين والأنصار وعلى الأنصار ثابت بن قيس بن شماس وعلى المهاجرين أبو حذيفة وزيد بن الخطاب وأقام خالد بالبطاح ينتظر وصول البعث إليه.

فلما وصلوا إليه سار إلى اليمامة وبنو حنيفة يومئذٍ كثيرون كانت عدتهم أربعين ألف مقاتل وعجل شرحبيل ابن حسنة وبادر خالدًا بقتال مسيلمة فنكب فلامه خالد وأمد أبو بكر خالدًا بسليط ليكون ردءًا له لئلا يؤتى من خلفه.

وكان أبو بكر يقول: لا أستعمل أهل بدر أدعهم حتى يلقوا الله بصالح أعمالهم فإن الله يدفع بهم وبالصالحين أكثر مما ينتصر بهم.

وكان عمر يرى استعمالهم على الجند وغيره.

وكان مع مسيلمة نهارٌ الرجال بن عنفوة وكان قد هاجر إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقرأ القرآن وفقه في الدين وبعثه معلمًا لأهل اليمامة وليشغب على مسيلمة فكان أعظم فتنة على بني حنيفة من مسيلمة شهد أن محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: إن مسيلمة قد أشرك معه فصدقوه واستجابوا له وكان مسيلمة ينتهي إلى أمره وكان يؤذن له عبد الله بن النواجة والذي يقيم له حجير بن عمير فكان حجير يقول: أشهد أن مسيلمة يزعم أنه رسول الله.

فقال له مسيلمة: أفصح حجير فليس في المجمجمة خير.

وهو أول من قالها.

وكان مما جاء به وذكر أنه وحي: (يا ضفدع بنت ضفدعين نقي ما تنقين أعلاك في الماء وأسفلك في الطين لا الشارب تمنعين ولا الماء تكدرين).

وقال أيضًا: (والمبديات زرعًا والحاصدات حصدًا والذاريات قمحًا والطاحنات طحنًا والخابزات خبزًا والثاردات ثردًا واللاقمات لقمًا إهالة وسمنًا لقد فضلتم على أهل الوبر وما سبقكم أهل المذر ريقكم فامنعوه والمعيي فأووه والباغي فناوئوه).

وأتته امرأة فقالت: إن نخلنا لسحيق وإن آبارنا لجزرٌ فادع الله لمائنا ونخلنا كما دعا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأهل هزمان.

فسأل نهارًا عن ذلك فذكر أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعا لهم وأخذ من ماء آبارهم فتمضمض منه ومجه في الآبار ففاضت ماء وأنجبت كل نخلة وأطلعت فسيلًا قصيرًا مكممًا ففعل مسيلمة ذلك فغار ماء الآبار ويبس النخل وإنما ظهر ذلك بعد مهلكه.

وقال له نهار: أمر يدك على أولاد بني حنيفة مثل محمد ففعل وأمر يده على رؤوسهم وحنكهم فقرع كل صبي مسح رأسه ولثغ كل صبي حنكه وإنما استبان ذلك بعد مهلكه.

وقيل: جاءه طلحة النمري فسأله عن حاله فأخبره أنه يأتيه رجل في ظلمة فقال: أشهد أنك الكاذب وأن محمدًا صادق ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر.فقتل معه يوم عقرباء كافرًا.

ولما بلغ مسيلمة دنو خالد ضرب عسكره بعقرباء وخرج إليه الناس وخرج مجاعة بن مرارة في سرية يطلب ثأرًا لهم في بني عامر فأخذه المسلمون وأصحابه فقتلهم خالد واستبقاه لشرفه في وترك مسيلمة الأموال وراء ظهره فقال شرحبيل بن مسيلمة: يا بني حنيفة قاتلوا فإن اليوم يوم الغيرة فإن انهزمتم تستردف النساء سبيات وينكحن غير خطيبات فقاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم.

فاقتتلوا بعقرباء وكانت راية المهاجرين مع سالم مولى أبي حذيفة وكانت قبله مع عبد الله بن حفص بن غانم فقتل فقالوا: تشى علينا من نفسك فقال: بئس حامل القرآن أنا إذًا! وكانت راية الأنصار مع ثابت بن قيس بن شماس وكانت العرب على راياتهم والتقى الناس وكان أول من لقي المسلمين نهارٌ الرجال بن عنفوة فقتل قتله زيد بن الخطاب واشتد القتال ولم يلق المسلمون حربًا مثلها قط وانهزم المسلمون وخلص بنو حنيفة إلى مجاعة وإلى خالد فزال خالد عن الفسطاط ودخلوا إلى مجاعة وهو عند امرأة خالد وكان سلمة إليها فأرادوا قتلها فنهاهم مجاعة عن قتلها وقال: أنا لها جار فتركوها وقال لهم: عليكم بالرجال فقطعوا الفسطاط.

ثم إن المسلمين تداعوا فقال ثابت بن قيس: بئس ما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين! اللهم إني أبرأ إليك مما يصنع هؤلاء يعني أهل اليمامة وأعتذر إليك مما يصنع هؤلاء يعني المسلمين ثم قاتل حتى قتل.

وقال زيد بن الخطاب: لا نحور بعد الرجال والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم أو أقتل فأكلمه بحجتي.

غضوا أبصاركم وعضوا على أضراسكم أيها الناس واضربوا في عدوكم وامضوا قدمًا.

وقال أبو حذيفة: يا أهل القرآن زينوا القرآن بالفعال.

وحمل خالد في الناس حتى ردوهم إلى أبعد مما كانوا واشتد القتال وتذامرت بنو حنيفة وقاتلت قتالًا شديدًا وكانت الحرب يومئذ تارة للمسلمين وتارة للكافرين وقتل سالم وأبو حذيفة وزيد بن الخطاب وغيرهم من أولي البصائر.

فلما رأى خالد ما الناس فيه قال: امتازوا أيها الناس لنعلم بلاء كل حي ولنعلم من أين نؤتى.

فامتازوا وكان أهل البوادي قد جنبوا المهاجرين والأنصار وجنبهم المهاجرون والأنصار.

فلما امتازوا قال بعضهم لبعض: اليوم يستحى من الفرار فما رئيس يوم كان أعظم نكاية من ذلك اليوم ولم يدر أي الفريقين كان أعظم نكاية غير أن القتل كان في المهاجرين والأنصار وأهل القرى أكثر منه في أهل البوادي.

وثبت مسيلمة فدارت رحاهم عليه فعرف خالدٌ أنها لا تركد إلا بقتل مسيلمة ولم تحفل بنو حنيفة بمن قتل منهم.

ثم برز خالد ودعا إلى البراز ونادى بشعارهم وكان شعارهم: يا محمداه! فلم يبرز إليه أحدٌ إلا قتله.

ودارت رحى المسلمين ودعا خالد مسيلمة فأجابه فعرض عليه أشياء مما يشتهي مسيلمة فكان إذا هم بجوابه أعرض ليستشير شيطانه فينهاه أن يقبل.

فأعرض بوجهه مرة وركبه خالد وأرهقه فأدبر وزال أصحابه وصاح خالد في الناس فركبوهم فكانت هزيمتهم وقال لمسيلمة: أين ما كنت عدنا.

فقال: قاتلوا عن أحسابكم.

ونادى المحكم:

وكان البراء بن مالك وهو أخو أنس بن مالك إذا حضر الحرب أخذته رعدة حتى يقعد عليه الرجال ثم يبول فإذا بال ثار كما يثور الأسد فأصابه ذلك فلما بال وثب وقال: إلي أيها الناس أنا البراء بن مالك! إلي إلي! وقاتل قتالًا شديدًا فلما دخلت بنو حنيفة الحديقة قال البراء: يا معشر المسلمين ألقوني عليهم في الحديقة.

فقالوا: لا نفعل.

فقال: والله لتطرحنني عليهم بها! فاحتمل حتى أشرف على الجدار فاقتحمها عليهم وقاتل على الباب وفتحه للمسلمين ودخلوها عليهم فاقتتلوا أشد قتال وكثر القتلى في الفريقين لاسيما في بني حنيفة فلم يزالوا كذلك حتى قتل مسيلمة.

واشترك في قتله وحشي مولى جبير بن مطعم ورجل من الأنصار أما وحشي فدفع عليه حربته وضربهٍ الأنصاري بسيفه قال ابن عمر: فصرخ رجل: قتله العبد الأسود فولت بنو حنيفة عند قتله منهزمةً وأخذهم السيف من كل جانب وأخبر خالد بقتل مسيلمة فخرج بمجاعة يرسف في الحديد ليدله على مسيلمة فجعل يكشف له القتلى حتى مر بمحكم اليمامة وكان وسيمًا فقال: هذا صاحبكم فقال مجاعة: لا هذا والله خير منه وأكرم هذا محكم اليمامة ثم دخل الحديقة فإذا رويجلٌ أصيفر أخينس فقال مجاعة: هذا صاحبكم قد فرغتم منه.

وقال خالد: هذا الذي فعل بكم ما فعل.

وكان الذي قتل محكم اليمامة عبد الرحمن بن أبي بكر رماه بسهم في نحره وهو يخطب

ويحرض الناس فقتله.

وقال مجاعة لخالد: ما جاءك إلا سرعان الناس وإن الحصون مملوءة فهلم إلى الصلح على ما ورائي فصالحه على كل شيء دون النفوس وقال: أنطلق إليهم فأشاورهم.

فانطلق إليهم وليس في الحصون إلا النساء والصبيان ومشيخة فانية ورجال ضعفى فألبسهم الحديد وأمر النساء أن ينشرن شعورهن ويشرفن على الحصون حتى يرجع إليهم.

فرجع إلى خالد فقال: قد أبوا أن يجيزوا ما صنعت فرأى خالد الحصون مملوة وقد نهكت المسلمين الحرب وطال اللقاء وأحبوا أن يرجعوا على الظفر ولم يدروا ما هو كائن وقد قتل من المهاجرين والأنصار من أهل المدينة ثلاثمائة وستون ومن المهاجرين من غير المدينة ثلاثمائة رجل وقتل ثابت بن قيس قطع رجل من المشركين رجله فأخذها ثابت وضربه بها فقتله وقتل من بني حنيفة بعقرباء سبعة آلاف وبالحديقة مثلها وفي الطلب نحو منها.

وصالحه خالد على الذهب والفضة والسلاح ونصف السبي وقيل ربعه.

فلما فتحت الحصون لم يكن فيها إلا النساء والصبيان والضعفاء فقال خالد لمجاعة: ويحك خدعتني! فقال: هم قومي ولم أستطع إلا ما صنعت.

ووصل كتاب أبي بكر إلى خالد أن يقتل كل من احتلم وكان قد صالحهم فوفى لهم ولم يغدر.ولما رجع الناس قال عمر لابنه عبد الله وكان معهم: ألا هلكت قبل زيد هلك زيد وأنت

حي! ألا واريت وجهك عني فقال عبد الله: سأل الله الشهادة فأعطيها وجهدت أن تساق إلي فلم أعطها.

انتهى .

روح الفدائية

كثير من المعارك يتوقف النصر فيها على نجاح عمل فدائي ولو كان صغيرا فيكون بمثابة المفتاح لهذا النصر ، هو صغير في حجمه لأنه غالبا يعتمد على واحد أو اثنين ولكنه كبيرا في معناه وتأثيره الفعلي في اتجاه المعركة .
وروح الفدائية هذه ليست مقتصرة على المسلمين فقد نجدها عند أعدائنا وقد يعود ذلك لفرط شجاعة أو ذبا عن عرض أو رغبة في غنيمة .
أما المسلم فهو يجمع مع ذلك ما يرجوه من ثواب الله تعالى {وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ} وكل شيء يستطيع الأعداء التعامل معه وصده إلا من يريد الموت فهو الوحيد الذي لا يملكون معه حيلة ! لأنه عادة يظهر في مكان غير متوقع وبأسلوب غير تقليدي وفي وقت حرج ! فهو بذلك إما يصل إلى هدفه أو يقتل دونه وفي كلا الحالتين يكون هو الفائز الوحيد .

وروح الفدائية هذه هي التي رفعت البراء بن مالك رضي الله عنه فوق أسوار حديقة الموت ليلقى حتفه بداخلها ويفتح الأبواب للمسلمين ، فكان هذا العمل الفدائي الفردي ....النصر في هذه المعركة الحساسة والحساسة من حياة الأمة .
ويكفينا كمسلمين أن نذكر أعداء الله بهذه الروح الفدائية التي نتميز بها بين الأمم حتى نملأ قلوبهم وصدورهم رعبا وهو ما أشار إليه شيخ الإسلام في رسالته الشهيرة إلى ملك قبرص في شأن

الأسرى المسلمين عنده (ثم عند المسلمين من الرجال الفداوية الذين يغتالون الملوك في فرشها وعلى ....من قد بلغ الملك خبرهم قديما وحديثا).

11 -معركة اليرموك.

قال ابن الأثير رحمه الله :

فلما تكامل جمع المسلمين باليرموك وكانوا سبعة وعشرين ألفًا قدم خالد في تسعة آلاف فصاروا ستة وثلاثين ألفًا سوى عكرمة فإنه كان ردءًا لهم وقيل: بل كانوا سبعة وعشرين ألفًا وثلاثة آلاف من فلال خالد ابن سعيد وعشرة آلاف مع خالد بن الوليد فصاروا أربعين ألفًا سوى ستة آلاف مع عكرمة بن أبي جهل وقيل في عددهم غير ذلك والله أعلم.

وكان فيهم ألف صحابي منهم نحو مائة ممن شهد بدرًا.

وكان الروم في مائتي ألف وأربعين ألف مقاتل منهم ثمانون ألف مقيد وأربعون ألف مسلسل للموت وأربعون ألفًا مربطون بالعمائم لئلا يفروا وثمانون ألف راجل وقيل: كانوا مائة ألف وكان قتال المسلمين لهم على تساند كل أمير على أصحابه لا يجمعهم أحد حتى قدم خالد بن الوليد من العراق وكان القسيسون والرهبان يحرضون الروم شهرًا ثم خرجوا إلى القتال الذي لم يكن بعده قتال في جمادى الآخرة.

فلما أحس المسلمون بخروجهم أرادوا الخروج متساندين فسار فيهم خالد بن الوليد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم فإن هذا يوم له ما بعده ولا تقاتلوا قومًا على نظام وتعبية وأنتم متساندون فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي وإن من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه رأي من واليكم ومحبته.

قالوا: هات فما الرأي قال: إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أنا سنتياسر ولو علم بالذي كان ويكون لقد جمعكم إن الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم وأنفع للمشركين من أمدادهم ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم فالله الله! فقد أفرد كل رجل منكم ببلد لا ينتقصه منه إن دان لأحد من الأمراء ولا يزيده عليه إن دانوا له.

إن تأمير بعضكم لا ينتقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

هلموا فإن هؤلاء قد تهيؤوا وإن هذا يوم له ما بعده إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم وإن هزمونا لم نفلح بعدها.

فهلموا فلنتعاور الإمارة فليكن بعضنا اليوم والآخر غدًا والآخر بعد غد حتى تتأمروا كلكم ودعوني أتأمر اليوم.

فأمروه وهم يرون أنها كخرجاتهم وأن الأمر لا يطول.

فخرجت الروم في تعبية لم ير الراؤون مثلها قط وخرج خالد في تعبية لم تعبها العرب قبل ذلك فخرج في ستة وثلاثين كردوسًا إلى الأربعين وقال: إن عدوكم كثير وليس تعبية أكثر في رأي العين من الكراديس فجعل القلب كراديس وأقام فيه أبا عبيدة وجعل الميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة وجعل الميسرة كراديس وعليها يزيد بن أبي سفيان وكان على كردوسٍ القعقاع بن عمرو وجعل على كل كردوس رجلًا من الشجعان وكان القاضي أبو الدرداء وكان القاص أبو سفيان بن حرب وعلى الطلائع قباث بن أشيم وعلى الأقباض عبد الله بن مسعود.

قال رجل لخالد: ما أكثر الروم وأقل المسلمين! فقال خالد: ما أكثر المسلمين وأقل الروم وإنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان والله لوددت أن الأشقر يعني فرسه براء من توجيه وأنهم أضعفوا في العدد وكان قد حفي في مسيره.

فأمر خالدٌ عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو فأنشبا القتال.

والتحم الناس وتطارد الفرسان وتقاتلوا فإنهم على ذلك قدم البريد من المدينة واسمه محمية بن زنيم فسألوه الخبر فأخبرهم بسلامة وأمداد وإنما جاء بموت أبي بكر وتأمير أبي عبيدة فبلغوه خالدًا فأخبره خبر أبي بكر سرًا.وخرج جرجة إلى بين الصفين وطلب خالدًا فخرج إليه فآمن كل واحد منهما صاحبه فقال جرجة: يا خالد اصدقني ولا تكذبني فإن الحر لا يكذب ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع المسترسل هل أنزل الله نبيكم سيفًا من السماء فأعطاكه فلا تسله على قوم إلا هزمتهم قال: لا.

قال: ففيم سميت سيف الله فقال له: إن الله بعث فينا نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكنت فيمن كذبه وقاتله ثم إن الله هداني فتابعته فقال: "أنت سيف الله سله على المشركين"! ودعا لي بالنصر.

قال: فأخبرني إلى ما تدعوني.

قال خالد: إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب.

قال: فما منزلة الذي يجيبكم ويدخل فيكم قال: منزلتنا واحدة.

قال: فهل له مثلكم من الأجر والذخر قال: نعم وأفضل لأننا اتبعنا نبينا وهو حي يخبرنا بالغيب ونرى منه العجائب والآيات وحق لمن رأى ما رأينا وسمع ما سمعنا أن يسلم وأنتم لم تروا مثلنا ولم تسمعوا مثلنا فمن دخل بنية وصدقٍ كان أفضل منا.

فقلب جرجة ترسه ومال مع خالد وأسلم وعلمه الإسلام واغتسل وصلى ركعتين ثم خرج مع خالد فقاتل الروم.

وحملت الروم حملة أزالوا المسلمين عن مواقفهم إلا المحامية عليهم عكرمة وعمه الحارث بن هشام فقال عكرمة: قاتلت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في كل موطن ثم أفر اليوم! ثم نادى: من

يبايع على الموت فبايعه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا قدام فسطاط خالد حتى أثبتوا جميعًا جراحًا فمنهم من برأ ومنهم من قتل.

وقاتل خالد وجرجة قتالًا شديدًا فقتل جرجة عند آخر النهار وصلى الناس الأولى والعصر إيماء وتضعضع الروم ونهد خالد بالقلب حتى كان بين خيلهم ورجلهم فانهزم الفرسان وتركوا الرجالة.

ولما رأى المسلمون خيل الروم قد توجهت للمهرب أفرجوا لها فتفرقت وقتل الرجالة واقتحموا في خندقهم فاقتحمه عليهم فعمدوا إلى الواقوصة حتى هوى فيها المقترنون وغيرهم ثمانون ألفًا من المقترنين وأربعون ألف مطلق سوى من قتل في المعركة وتجلل الفيقار وجماعة من أشراف الروم برانسهم وجلسوا فقتلوا متزملين.

ودخل خالد الخندق ونزل في رواق تذارق.

فلما أصبحوا أتى خالد بعكرمة بن أبي جهل جريحًا فوضع رأسه على فخذه وبعمرو بن عكرمة فجعل رأسه على ساقه ومسح وجوههما وقطر في حلوقهما الماء وقال: زعم ابن حنتمة يعني عمر أنا لا نستشهد! وقاتل النساء ذلك اليوم وأبلين.

قال عبد الله بن الزبير: كنت مع أبي باليرموك وأنا صبي لا أقاتل فلما اقتتل الناس نظرت إلى ناسٍ على تل لا يقاتلونٍ فركبت وذهبت إليهم وإذا أبو سفيان بن حرب ومشيخة من قريش من مهاجرة الفتح فرأوني حدثًا فلم يتقوني قال: فجعلوا والله إذا مال المسلمون وركبتهم الروم يقولون: إيه بني الأصفر! فإذا مالت الروم وركبهم المسلمونٍ: قال: ويح بني الأصفر! فلما هزم الله الروم أخبرت أبي فضحك فقال: قاتلهم الله! أبوا إلا ضغنًا لنحن خير لهم من الروم! وفي اليرموك أصيبت عين أبي سفيان بن حرب.

ولما انهزمت الروم كان هرقل بحمص فنادى بالرحيل عنها قريبًا وجعلها بينه وبين المسلمين وأمر عليها أميرًا كما أمر على دمشق.

وكان من أصيب من المسلمين ثلاثة آلاف منهم عكرمة وابنه عمرو وسلمة بن هشام وعمرو ابن سعيد وأبان بن سعيد وجندب بن عمرو والطفيل بن عمرو وطليب بن عمير وهشام بن العاص وعياش بن أبي ربيعة في قول بعضهم.

انتهى .

يد الله مع الجماعة

قال الله تعالى {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا} .

كثيرة هي النصوص التي تحض على الاجتماع والوحدة ونبذ الاختلاف والفرقة سواء كانت في الأمور التعبدية المحضة كالصلاة التي رغب في ثواب الجماعة فيها أو في السياسة التي أرشد النبي صلى الله عليه وسلم أن تكون كلمتنا فيها واحدة وخلف إمام واحد "من أتاكم وأمركم على رجل واحد يريد أن يفرق جماعتكم فاقتلوه" فالاجتماع مقدمة ضرورية من مقدمات النصر والنجاح كما حدث في اجتماع جيوش المسلمين تحت راية واحدة .
فيد الله مع الجماعة والذئب لا يأكل من الغنم إلا القاصية .

وعلى مر السنين قديما وحديثا نجد أن العائق الوحيد دون اجتماع المسلمين ووحدة كلمتهم هي تلك الشهوة الخفية من حب الرياسة والتي قد تكون مخفية على صاحبها نفسه ولا تظهر إلا عندما ينازع في شيء من جاهه أو سلطته .
وكم من نصر حرم منه المسلمون بسبب الطمع في الرياسة وما ترتب عليه من حسابات خاصة لمصالح شخصية ولو كانت بالتحالف مع أعداء الله ضد إخوانهم المسلمين كما حدث في دويلات الأندلس .
وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يولي من يسأل الإمارة لنفسه "إنا والله لا نولي هذا العمل أحدا سأله أو أحدا حرص عليه" لأنها دلالة واضحة على تلك الشهوة الخفية .
فعند التجرد لله وحده وعند التخلص من هذه الشوائب التي تشوب النفس البشرية عندها ينزل نصر الله والفتح ، وعندها فقط يدخل الناس في دين الله أفواجا .

12 - وقعة الجسر.

قال ابن الأثير رحمه الله :

ولما رجع الجالينوس إلى رستم منهزمًا ومن معه من جنده قال رستم: أي العجم أشد على العرب قال: بهمن جاذويه المعروف بذي الحاجب وإنما قيل له ذو الحاجب لأنه كان يعصب حاجبيه بعصابة ليرفعهما كبرًا.

فوجهه ومعه فيلة ورد الجالينوس معه وقال لبهمن: إن انهزم الجالينوس ثانيةً فاضرب عنقه.

فأقبل بهمن جاذويه ومعه درفش كابيان راية كسرى وكانت من جلود النمر عرض ثمانية أذرع وطول اثني عشر ذراعًا فنزل بقس الناطف.

وأقبل أبو عبيد فنزل بالمروحة فرأت دومة امرأته أم المختار ابنه أن رجلًا نزل من السماء بإناء فيه شراب فشرب أبو عبيد ومعه نفر فأخبرت بها أبا عبيد فقال: لهذه إن شاء الله الشهادة! وعهد إلى الناس فقال: إن قتلت فعلى الناس فلان فإن قتل فعليهم فلان حتى أمر الذين شربوا من الإناء ثم قال: فإن قتل فعلى الناس المثنى.

وبعث إليه بهمن جاذويه: إما أن تعبر إلينا وندعكم والعبور وإما أن تدعونا نعبر إليكم.

فنهاه الناس عن العبور ونهى سليط أيضًا فلج وترك الرأي وقال: لا يكونوا أجرأ على الموت منا.

فعبر إليهم على جسر عقده ابن صلوبا للفريقين وضاقت الأرض بأهلها واقتتلوا فلما نظرت الخيول إلى الفيلة والخيل عليها التجافيف رأت شيئًا منكرًا لم تكن رأت مثله فجعل المسلمون إذا حملوا عليهم لم تقدم عليهم خيولهم وإذا حملت الفرس على المسلمين بالفيلة والجلاجل فرقت خيولهم وكراديسهم ورموهم بالنشاب.

واشتد الأمر بالمسلمين فترجل أبو عبيد والناس ثم مشوا إليهم ثم صافحوهم بالسيوف فجعلت الفيلة لا تحمل على جماعة إلا دفعتهم فنادى أبو عبيد: احتوشوا الفيلة واقطعوا بطانها واقلبوا عنها أهلها ووثب هو على الفيل الأبيض فقطع بطانه ووقع الذين عليه وفعل القوم مثل ذلك فما تركوا فيلًا إلا حطوا رحله وقتلوا أصحابه. وأهوى الفيل لأبي عبيد فضربه أبو عبيد بالسيف وخبطه الفيل بيده فوقع فوطئه الفيل وقام عليه.

فلما بصر به الناس تحت الفيل خشعت أنفس بعضهم ثم أخذ اللواء الذي كان أمره بعده فقاتل الفيل حتى تنحى عن أبي عبيد فأخذه المسلمون فأحرزوه ثم قتل الفيل الأمير الذي بعد أبي عبيد وتتابع سبعة أنفس من ثقيف كلهم يأخذ اللواء ويقاتل حتى يموت ثم أخذ اللواء المثنى فهرب عنه الناس.فلما رأى عبد الله بن مرثد الثقفي ما لقي أبو عبيد وخلفاؤه وما يصنع الناس بادرهم إلى الجسر فقطعه وقال: يا أيها الناس موتوا على ما مات عليه أمراؤكم أو تظفروا! وحاز المشركون المسلمين إلى الجسر فتواثب بعضهم إلى الفرات فغرق من لم يصبر وأسرعوا فيمن صبر وحمى المثنى وفرسان من المسلمين الناس وقال: إنا دونكم فاعبروا على هينتكم ولا تدهشوا فإنا لن نزايل حتى نراكم من ذلك الجانب ولا تغرقوا نفوسكم فعبروا الجسر.

وقاتل عروة بن زيد الخيل قتالًا شديدًا وأبو محجن الثقفي وقاتل أبو زبيد الطائي حمية للعربية وكان نصرانيًا قدم الحيرة لبعض أمره ونادى المثنى: من عبر نجا.

فجاءه العلوج فعقدوا الجسر وعبر الناس.وكان آخر من قتل عند الجسر سليط بن قيس وعبر المثنى وحمى جانبه فلما عبر ارفض عنه وأخبر عمر عمن سار في البلاد من الهزيمة استحياء فاشتد عليه وقال: اللهم إن كل مسلم في حل مني أنا فئة كل مسلم يرحم الله أبا عبيد! لو كان انحاز إلي لكنت له فئة.

وهلك من المسلمين أربعة آلاف بين قتيل وغريق وهرب الفان وبقي ثلاثة آلاف وقتل من الفرس ستة آلاف.

وأراد بهمن جاذويه العبور خلف المسلمين فأتاه الخبر باختلاف الفرس وأنهم قد ثاروا برستم ونقضوا الذي بينهم وبينه وصاروا فريقين: الفهلوج على رستم وأهل فارس على الفيرزان فرجع إلى المدائن. وكانت هذه الوقعة في شعبان.

وكان فيمن قتل بالجسر عقبة وعبد الله ابنا قبطي بن قيس وكانا شهدا أحدًا وقتل معهما أخوهما عباد ولم يشهد معهما أحدًا وقتل أيضًا قيس ابن السكن بن قيس أبو زيد الأنصاري وهو بدري لا

عقب له وقتل يزيد بن قيس بن الحطيم الأنصاري شهد أحدًا وفيها قتل أبو أمية الفزاري له صحبة والحكم بن مسعود أخو أبي عبيد وابنه جبر بن الحكم ابن مسعود.

انتهى .

أهمية الشورى

من الواضح عبر أحداث هذه المعركة أن القرار الذي اتخذه أمير الجيش أبو عبيد الثقفي بعبور الجسر والذي خالف به أهل الخبرة والرأي قد جعل المسلمين في وضعية صعبة للقتال وبين فكي كماشة فحدث ما حدث ولله الأمر من قبل ومن بعد .
إن الشورى وإن كانت غير ملزمة للأمير إلا أن فيها من البركة والسداد ما ليس في غيرها وقد عمل بها النبي صلى الله عليه وسلم وهو من يوحى إليه من السماء وهو الأكمل عقلا ودينا ورأيا حتى يعلم من بعده أنها سنة ربانية يستضيء بها كل من توجه في أمر صغير أو كبير .
إن ميزة الشورى أنها تختصر لك عقول وتجارب الناس في حياتهم الطويلة في بضع دقائق فقط فتبدأ حينها من حيث انتهوا فتكون بذلك أقرب إلى الصواب وتكون بذلك أيضا قد اختصرت على نفسك الوقت والجهد بخلاف ما لو بدأت من نقطة الصفر .

فالقرار السليم يمر بثلاث مراحل ذكرها الله تعالى في كتابه العزيز {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} فالمشورة أولا ثم العزم الصادق ثم التوكل على الله عز وجل ولا تخف بعدها شيئا (ما خاب من استخار ولا ندم من استشار)

13 - وقعة البويب.

قال ابن الأثير رحمه الله :

لما بلغ عمر خبر وقعة أبي عبيد بالجسر ندب الناس إلى المثنى وكان فيمن ندب بجيلة وأمرهم إلى جرير بن عبد الله لأنه كان قد جمعهم من القبائل وكانوا متفرقين فيها فسأل النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يجمعهم فوعده ذلك فلما ولي أبو بكر تقاضاه بما وعده النبي - صلى الله عليه وسلم - فلم يفعل فلما ولي عمر طلب منه ذلك دعاه بالبينة فأقامها فكتب إلى عماله: إنه من كان ينسب إلى بجيلة في الجاهلية وثبت عليه في الإسلام فأخرجوه إلى جرير ففعلوا ذلك فلما اجتمعوا أمرهم عمر بالعراق وأبوا إلا الشام فعزم عمر على العراق وينفلهم ربع الخمس فأجابوا وسيرهم إلى المثنى بن حارثة وبعث عصمة بن عبد الله الضبي فيمن تبعه إلى المثنى وكتب إلى أهل الردة فلم يأته أحد إلا رمى به المثنى وبعث المثنى الرسل فيمن يليه من العرب

فتوافوا إليه في جمع عظيم.

وكان فيمن جاءه أنس بن هلال النمري في جمع عظيم من النمر نصارى وقالوا: نقاتل مع قومنا.

وبلغ الخبر رستم والفيرزان فبعثا مهران الهمذاني إلى الحيرة فسمع المثنى ذلك وهو بين القادسية وخفان فاستبطن فرات بادقلى وكتب إلى جرير وعصمة وكل من أتاه ممدًا له يعلمهم الخبر ويأمرهم بقصد البويب فهو الموعد فانتهوا إلى المثنى وهو بالبويب ومهران بإزائه من وراء الفرات فاجتمع المسلمون بالبويب مما يلي الكوفة اليوم وأرسل مهران إلى المثنى يقول: إما أن تعبر إلينا وإما أن نعبر إليك.

فقال المثنى: اعبروا.

فعبر مهران فنزل على شاطئ الفرات وعبأ المثنى أصحابه وكان في رمضان فأمرهم بالإفطار ليقووا على عدوهم فأفطروا.

وكان على مجنبتي المثنى بشير بن الخصاصية وبسر بن أبي رهم وعلى مجردته المعنى أخوه وعلى الرجل مسعود أخوه وعلى الردء مذعور وكان على مجنبتي مهران بن الازاذبه مرزبان الحيرة ومردانشاه.

وأقبل الفرس في ثلاثة صفوف مع كل صف فيل ورجلهم أمام فيلهم ولهم زجلٌ فقال المثنى للمسلمين: إن الذي تسمعون فشل فالزموا الصمت.

ودنوا من المسلمين وطاف المثنى في صفوفه يعهد إليهم وهو على فرسه الشموس وإنما سمي بذلك للينه وكان لا يركبه إلا إذا قاتل فوقف على الرايات يحرضهم ويهزهم ولكلهم يقول: إني لعامتكم.

فيجيبونه بمثل ذلك وأنصفهم من نفسه في القول والفعل وخلط الناس في المحبوب والمكروه فلم يقدر أحد أن يعيب له قولًا ولا فعلًا وقال: إني مكبر ثلاثًا فتهيؤوا ثم احملوا في الرابعة.

فلما كبر أول تكبيرة أعجلتهم فارس وخالطوهم وركدت خيلهم وحربهم مليًا فرأى المثنى خللًا في بني عجل فجعل يمد لحيته لما يرى منهم وأرسل إليهم يقول: الأمير يقرأ عليكم السلام ويقول: لا تفضحوا المسلمين اليوم.

فقالوا: نعم واعتدلوا.

فضحك فرحًا.

فلما طال القتال واشتد قال المثنى لأنس بن هلال النمري: إنك امرؤ عربي وإن لم تكن على ديننا فإذا حملت على مهران فاحمل معي فأجابه فحمل المثنى على مهران فأزاله حتى دخل في ميمنته ثم خالطوهم واجتمع القلبان وارتفع الغبار والمجنبات تقتل لا يستطيعون أن يفرغوا لنصر أميرهم لا المسلمون ولا المشركون وارتث مسعود أخو المثنى يومئذٍ وجماعة من أعيان المسلمين فلما أصيب مسعود تضعضع من معه فقال: يا معشر بكر ارفعوا رايتكم رفعكم الله ولا يهولنكم مصرعي!

وكان المثنى قال لهم: إذا رأيتمونا أصبنا فلا تدعوا ما أنتم فيه فإن الجيش ينكشف ثم ينصرف الزموا مصافكم وأغنوا غناء من يليكم.

وأوجع قلب المسلمين في قلب المشركين وقتل غلام نصراني من تغلب مهران واستوى على فرسه ثم انتمى أنا الغلام التغلبي أنا قتلت المرزبان فجعل المثنى سلبه لصاحب خيله وكان التغلبي قد جلب خيلًا هو وجماعة من تغلب فلما رأوا القتال قاتلوا مع العرب قال: وأفنى المثنى قلب المشركين والمجنبات بعضها يقاتل بعضًا.

فلما رأوا قد أزال القلب وأفنى أهله وثب مجنبات المسلمين على مجنبات المشركين وجعلوا يردون الأعاجم على أدبارهم وجعل المثنى والمسلمون في القلب يدعون لهم بالنصر ويرسل إليهم من يذمرهم ويقول لهم: عاداتكم في أمثالهم انصروا الله ينصركم حتى هزموا الفرس وسبقهم المثنى إلى الجسر وأخذ طريق الأعاجم فافترقوا مصعدين ومنحدرين وأخذتهم خيول المسلمين حتى قتلوهم وجعلوهم جثًا.
فما كانت بين المسلمين والفرس وقعة أبقى رمة منها بقيت عظام القتلى دهرًا طويلًا وكانوا يحرزون القتلى مائة ألف وسمي ذلك اليوم الأعشار أحصي مائة رجل قتل كل رجل منهم عشرة.

وكان عروة بن زيد الخيل من أصحاب التسعة وغالب الكناني وعرفجة الأزدي من أصحاب التسعة.

وقتل المشركون فيما بين السكون اليوم وضفة الفرات وتبعهم المسلمون إلى الليل ومن الغد إلى الليل.

وندم المثنى على أخذه بالجسر وقال: عجزت عجزة وقى الله شرها بمسابقتي إياهم إلى الجسر حتى أحرجتهم فلا تعودوا أيها الناس إلى مثلها فإنها كانت زلة فلا ينبغي إحراج من لا يقوى على امتناع.

ومات أناس من الجرحى منهم: مسعود أخو المثنى وخالد بن هلال فصلى عليهم المثنى

انتهى .

التعبئة النفسية والبدنية

جاءت وقعة [البويب] كرد اعتبار للمسلمين وانتقاما ليوم الجسر ، فكان لزاما على المسلمين أن يأخذوا للأمر أهبته ويعدوا العدة للقاء الفرس ، فكان من أول ما أمر به المثنى أمير الجيش وهو يصف الصفوف أن عزم على جنده أن يفطروا وقال (إنه أقوى لكم) وهو ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة في فتح مكة بقوله "إنكم ملاقوا عدوكم غدا والفطر أقوى لكم فأفطروا" .
نأخذ من ذلك ضرورة أن يكون المقاتل في أفضل حالاته البدنية والنفسية ، ونرى ذلك في حرص المثنى وعزمه على الجند بأن يفطروا لأنه أقوى لهم على القتال .

أما على الجانب النفسي فقد كانت لكلماته المباشرة وهو يتفقد الصفوف أعظم الأثر في تحريض وتطييب وتقوية نفوس من معه .
فالكلمة الطيبة لها أثر عظيم على النفوس خاصة في هذه المواقف المزلزلة التي تبحث فيها القلوب عمن يشجعها ويثبتها ولو بكلمات قليلة .
فرب كلمة أشعلت حماس جيش بأكمله ، ورب كلمة قتلته قبل المعركة !

14 - معركة القادسية.

قال ابن الأثير رحمه الله :

لما عبر الفرس العتيق جلس رستم على سريره وضرب عليه طيارة وعبى في القلب ثمانية عشر فيلًا عليها صناديق ورجال وفي المجنبتين ثمانية وسبعة وأقام لجالينوس بينه وبين ميمنته والفيرزان بينه وبين ميسرته وبقيت القنطرة بين خيلين من خيول المسلمين وخيول المشركين وكان يزدجرد قد وضع بينه وبين رستم رجالًا على كل دعوة رجلًا أولهم على باب إيوانه وآخرهم مع رستم فكلما فعل رستم شيئًا قال الذي معه للذي يليه: كان كذا وكذا ثم يقول الثاني ذلك للذي يليه وهكذا إلى أن ينتهي إلى يزدجرد في أسرع وقت.

وأخذ المسلمون مصافهم.

وكان بسعد دماميل وعرق النسا فلا يستطيع الجلوس وإنما هو مكب على وجهه في صدره وسادة على سطح القصر يشرف على الناس والصف في أصل حائطه لو أعراه الصف فواق ناقةٍ لأخذ برمته فما كرثه هول تلك الأيام شجاعة وذكر ذلك الناس وعابه بعضهم بذلك فقال:
نقاتل حتى أنزل الله نصره وسعدٌ بباب القادسية معصم
فأبنا وقد آمت نساءٌ كثيرةٌ ونسوة سعدٍ ليس فيهن أيم
فبلغت أبياته سعدًا فقال:
اللهم إن كان هذا كاذبًا وقال الذي قاله رياء وسمعةً فاقطع عني لسانه! إنه لواقفٌ في الصف يومئذ أتاه سهم غرب فأصاب لسانه فما تكلم بكلمة حتى لحق بالله تعالى.

فقال جرير بن عبد الله نحو ذلك أيضًا وكذلك غيره ونزل سعدٌ إلى الناس فاعتذر إليهم وأراهم ما به من القروح في فخذيه وأليتيه فعذره الناس وعلموا حاله ولما عجز عن الركوب استخلف خالد عرفطة على الناس فاختلف عليه فأخذ نفرًا ممن شغب عليه فحبسهم في القصر منهم: أبو محجن الثقفي وقيدهم وقيل: بل كان حبس أبي محجن بسبب الخمر وأعلم الناس أنه قد استخلف خالدًا وإنما يأمرهم خالد فسمعوا وأطاعوا وخطب الناس يومئذٍ وهو يوم الاثنين من المحرم سنة أربع عشرة وحثهم على الجهاد وذكرهم ما وعدهم الله من فتح البلاد وما نال من كان قبلهم من المسلمين من الفرس وكذلك فعل أمير كل قوم وأرسل سعد نفرًا من ذوي الرأي والنجدة منهم: المغيرة وحذيفة وعاصم وطليحة وقيس الأسدي وغالب وعمرو ابن معدي كرب وأمثالهم ومن الشعراء: الشماخ والحطيئة وأوس بن مغراء وعبدة بن الطبيب وغيرهم وأمرهم بتحريض الناس على القتال ففعلوا.

وكان صف المشركين على شفير العتيق وكان صف المسلمين مع حائط قديس والخندق فكان المسلمون والمشركون بين الخندق والعتيق ومع الفرس ثلاثون ألف مسلسل وثلاثون فيلًا تقاتل وأمر سعد الناس بقراءة سورة الجهاد وهي الأنفال فلما قرئت هشت قلوب الناس وعيونهم وعرفوا السكينة مع قراءتها.

فلما فرغ القراء منها قال سعد: الزموا مواقفكم حتى تصلوا الظهر فإذا صليتم فإني مكبر تكبيرة فكبروا واستعدوا فإذا سمعتم الثانية فكبروا والبسوا عدتكم.

ثم إذا كبرت الثالثة فكبروا ولينشط فرسانكم الناس فإذا كبرت الرابعة فازحفوا جميعًا حتى تخالطوا عدوكم وقولوا لا حول ولا قوة إلا بالله.

فلما كبر سعد الثالثة برز أهل النجدات فأنشبوا القتال وخرج إليهم من الفرس أمثالهم فاعتوروا الطعن والضرب وقال غالب بن عبد الله

قد علمت واردة المشائح ذات اللبان والبيان الواضح

أني سمام البطل المسالح وفارج الأمر المهم الفادح

فخرج إليه هرمز وكام من ملوك الباب والأبواب وكان متوجًا فأسره غالب فجاء به سعدًا ورجع وخرج عاصم وهو يقول:

قد علمت بيضاء صفراء اللبب مثل اللجين إذ تغشاه الذهب

أني امروٌ لا من يعيبه السبب مثلي على مثلك يغريه العتب

فطارد فارسيًا فانهزم فاتبعه عاصم حتى خالط صفهم فحموه فأخذ عاصم رجلًا على بغل وعاد به وإذا هو خباز الملك معه من طعام الملك وخبيصٌ فأتى به سعدًا فنفله أهل موقفه.

وخرج فارسي فطلب البراز فبرز إليه عمرو بن معدي كرب فأخذه وجلد به الأرض فذبحه وأخذ سواريه ومنطقته.

وحملت الفيلة عليهم ففرقت بين الكتائب فنفرت الخيل وكانت الفرس قد قصدت بجيلة بسبعة عشر فيلًا فنفرت خيل بجيلة فكادت بجيلة تهلك لنفار خيلها عنها وعمن معها وأرسل سعد إلى بني أسد أن دافعوا عن بجيلة وعمن معها من الناس.

فخرج طليحة بن خويلد وحمال بن مالك ققي كتائبهما فباشروا الفيلة حتى عدلها ركبانها.

وخرج إلى طليحة عظيم منهم فقتله طليحة وقام الأشعث بنِ قيس في كندة حين استصرخهم سعد فقال: يا معشر كندة لله در بني أسد أي فري يفرون وأي هذٍ يهذون عن موقفهم أغنى كل قوم ما يليهم وأنتم تنتظرون من يكفيكم أشهد ما أحسنتم أسوة قومكم من العرب.

فنهد ونهدوا معه فأزالوا الذين بإزائهم.

فلما رأى الفرس ما يلقى الناس والفيلة من أسد رموهم بحدهم وحملوا عليهم وفيهم ذو الحاجب والجالينوس والمسلمون ينتظرون التكبيرة الرابعة من سعد فاجتمعت حلبة فارس على أسد ومعهم

تلك الفيلة فثبتوا لهم وكبر سعد الرابعة وزحف إليهم المسلمون ورحى الحرب تدور على أسد وحملت الفيول على الميمنة والميسرة فكانت الخيول تحيد عنها.

فأرسل سعد إلى عاصم بن عمرو التميمي: يا معشر بني تميم أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة قالوا: بلى والله! ثم نادى في رجال من قومه رماة وآخرين لهم ثقافة فقال: يا معشر الرماة ذبوا ركبان الفيلة عنهم بالنبل.

وقال: يا معشر أهل الثقافة استدبروا الفيلة فقطعوا وضنها وخرج يحميهم ورحى الحرب تدور على أسد وقد جالت الميمنة والميسرة غير بعيد وأقبل أصحاب عاصم على الفيلة فأخذوا بأذناب توابيتها فقطعوا وضنها وارتفع عواؤهم فما بقي لهم فيل إلا أوى وقتل أصحابها ونفس عن أسد وردوا فارسًا عنهم إلى مواقفهم واقتتلوا حتى غربت الشمس ثم حتى ذهبت هدأة من الليل ثم رجع هؤلاء وهؤلاء وأصيب من أسد تلك العشية خمسمائة وكانوا ردءًا للناس وكان عاصم حامية للناس وهذا اليوم الأول وهو يوم أرماث فقال عمرو بن شأس الأسدي:

جلبنا الخيل من أكناف نيقٍ إلى كسرى فوافقها رعالا
تركن لهم على الأقسام شجوًا وبالحقوبين أيامًا طوالا
قتلنا رستمًا وبنيه قسرًا تثير الخيل فوقهم الهيالا
الأبيات.

وكان سعد قد تزوج سلمى امرأة المثنى بن حارثة الشيباني بعده بشراف فلما جال الناس يوم أرماث وكان سعد لا يطيق الجلوس جعل سعد يتململ جزعًا فوق القصر فلما رأت سلمى ما يصنع الفرس قالت: وامثنياه! ولا مثنى للخيل اليوم! قالت ذلك عند رجل ضجر مما يرى في أصحابه ونفسه فلطم وجهها وقال: أين المثنى عن هذه الكتيبة التي تدور عليها الرحا! يعني أسدًا وعاصمًا.

فقالت: أغيرةً وجبنًا فقال: والله لا يعذرني اليوم أحد إن لم تعذريني وأنت ترين ما بي! فتعلقها الناس لم يبق شاعر إلا اعتد بها عليه وكان غير جبان ولا ملوم.

ذكر يوم أغواث

ولما أصبح القوم وكل سعد بالقتلى والجرحى من ينقلهم إلى العذيب فسلم الجرحى إلى النساء ليقمن عليهم وأما القتلى فدفنوا هنالك على مشرق وهو وادٍ بين العذيب وعين الشمس.

فلما نقل سعد القتلى والجرحى طلعت نواصي الخيل من الشام وكان فتح دمشق قبل القادسية بشهر فلما قدم كتاب عمر على أبي عبيدة بن الجراح بإرسال أهل العراق سيرهم وعليهم هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو التميمي فتعجل القعقاع فقدم على الناس صبيحة هذا اليوم وهو يوم أغواث وقد عهد إلى أصحابه أن يتقطعوا أعشارًا وهم ألفٌ كلما بلغ عشرة مدى البصر سرحوا عشرة فقدم أصحابه في عشرة فأتى الناس فسلم عليهم وبشرهم بالجنود وحرضهم على القتال وقال: اصنعوا كما أصنع وطلب البراز فقالوا فيه بقول أبي بكر: (لا يهزم جيش فيهم مثل هذا).

فخرج إليه ذو الحاجب فعرفه القعقاع فنادى: يا لثارات أبي عبيد وسليط وأصحاب يوم الجسر! وتضاربا فقتله القعقاع وجعلت خيله ترد إلى الليل وتنشط الناس وكأن لم يكن بالأمس مصيبة وفرحوا بقتل ذي الحاجب وانكسرت الأعاجم بذلك.

وطلب القعقاع البراز فخرج إليه الفيرزان والبنذوان فانضم إلى القعقاع الحارث بن ظبيان بن الحارث أحد بني تيم اللات فتبارزوا فقتل القعقاع الفيرزان وقتل الحارث البنذوان ونادى

القعقاع: يا معشر المسلمين باشروهم بالسيوف فإنما يحصد الناس بها! فاقتتلوا حتى المساء فلم ير أهل فارس في هذا اليوم شيئًا مما يعجبهم وأكثر المسلمون فيهم القتل ولم يقاتلوا في هذا اليوم على فيل كانت وابيتها تكسرت بالأمس فاستأنفوا عملها فلم يفرغوا منها حتى كان الغد.

وجعل القعقاعِ كلما طلعت قطعة من أصحابه كبر وكبر المسلمون ويحمل ويحملون وحمل بنو عم للقعقاع عشرةً عشرة على إبل قد ألبسوها وهي مجللة مبرقعة وأطاف بهم خيولهم تحميهم وأمرهم القعقاع أن يحملوها على خيل الفرس يتشبهون بالفيلة ففعلوا بهم هذا اليوم وهو يوم أغواث كما فعلت فارس يوم أرماث فجعلت خيل الفرس تفر منها وركبتها خيول المسلمين.

فلما رأى الناس ذلك استنوا بهم فلقي الفرس من الإبل يوم أغواث أعظم مما لقي المسلمون من الفيلة يوم أرماث.

وحمل رجل من تميم على رستم يريد قتله فقتل دونه.

وخرج رجل من فارس يبارز فبرز إليه الأعرف بن الأعلم العقيلي فقتله ثم برز إليه آخر فقتله وأحاطت به فوارس منهم فصرعوه وأخذوا سلاحه فغبر في وجوههم التراب حتى رجع إلى أصحابه.

وحمل القعقاع بن عمرو يومئذٍ ثلاثين حملة كلما طلعت قطعة حمل حملة وأصاب فيها وقتل فكان آخرهم بزرجمهر الهمذاني.

وبارز الأعور بن قطبة شهريار سجستان فقتل كل واحد منهما صاحبه وقاتلت الفرسان إلى انتصاف النهار.

فلما اعتدل النهار تزاحف الناس فاقتتلوا حتى انتصف الليل.

فكانت ليلة أرماث تدعى الهدأة وليلة أغواث تدعى السواد ولم يزل المسلمون يرون يوم أغواث الظفر وقتلوا فيه عامة أعلامهم وجالت فيه خيل القلب وثبت رجلهم فلولا أن خيلهم عادت أخذ رستم أخذًا.

وبات الناس على ما بات عليه القوم ليلة أرماث ولم يزل المسلمون ينتمون.

فلما سمع سعد ذلك قال لبعض من عنده: إن تم الناس على الانتماء فلا توقظني فإنهم أقوياء وإن سكتوا ولم ينتم الآخرون فلا توقظني فإنهم على السواء فإن سمعتهم ينتمون فأيقظني فإن انتماءهم عن السوء.

ولما اشتد القتال وكان أبو محجن قد حبس وقيد فهو في القصر فصعد حين أمسى إلى سعد يستعفيه ويستقيله فزبره ورده فنزل فأتى فقال لسلمى زوج سعد: هل لك أن تخلي عني وتعيريني البلقاء فلله علي إن سلمني الله أن أرجع إليك حتى أضع رجلي في قيدي.

فقال:
كفى حزنًا أن تلتقي الخيل بالقنا ** وأترك مشدودًا علي وثاقيـــا

إذا قمت عناني الحديد وأغلقت ** مصاريع دوني قد تصم المناديا

وقد كنت ذا مالٍ كثيرٍ وإخوةٍ ** فقد تركوني واحدًا لا أخـــا ليا

فرقت له سلمى وأطلقته وأعطته البلقاء فرس سعد فركبها حتى إذا كان بحيال الميمنة كبر ثم حمل على ميسرة الفرس ثم رجع خلف المسلمين وحمل على ميمنتهم وكان يقصف الناس قصفًا منكرًا وتعجب الناس منه وهم لا يعرفونه فقال بعضهم: هو من أصحاب هاشم أو هاشم نفسه وكان سعد يقول: لولا محبس أبي محجن لقلت هذا أبو محجن وهذه البلقاء.

وقال بعض الناس: هذا الخضر.

وقال بعضهم: لولا أن الملائكة لا تباشر الحرب لقلنا إنه ملك.

فلما انتصف الليل وتراجع المسلمون والفرس عن القتال أقبل أبو محجن فدخل القصر وأعاد رجليه في القيد وقال: لقد علمت ثقيفٌ غير فخرٍ بأنا نحن أكرمهم سيوفا
وأكثرهم دروعًا سابغاتٍ وأصبرهم إذا كرهوا الوقوفا
وأنا وفدهم في كل يومٍ فإن عموا فسل بهم عريفا
وليلة قادسٍ لم يشعروا بي ولم أشعر بمخرجي الزحوفا
فإن أحبس فذلكم بلائي وإن أترك أذيقهم الحتوفا
فقالت له سلمى: في أي شيء حبسك فقال: والله ما حبسني بحرام أكلته ولا شربته ولكنني كنت صاحب شرابٍ في الجاهلية وأنا امرؤ شاعر يدب الشعر على لساني فقلت:

ولا تدفنني بالفلاة فإنني أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها فلذلك حبسني.

فلما أصبحت أتت سعدًا فصالحته وكانت مغاضبة له وأخبرته بخبر أبي محجن فأطلقه فقال: اذهب فما أنا مؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله.

قال: لا جرم والله لا أجيب لساني إلى صفة قبيح أبدًا! ذكر يوم عماس ثم أصبحوا اليوم الثالث وهم على مواقفهم وبين الصفين من قتلى المسلمين ألفان من جريحٍ وميتٍ ومن المشركين عشرة آلاف

فجعل المسلمون ينقلون قتلاهم إلى المقابر والجرحى إلى النساء وكان النساء والصبيان يحفرون القبور وكان على الشهداء حاجب بن زيد.

وأما قتلى المشركين فبين الصفين لم ينقلوا وكان ذلك مما قوى المسلمين وبات القعقاع تلكٍ الليلة يسرب أصحابه إلى المكان الذي فارقهم فيه من الأمس وقال: إذا طلعت الشمس فأقبلوا مائةً مائة فإن جاء هاشم فذاك وإلا جددتم للناس رجاء وجدًا ففعلوا ولا يشعر به أحد.

وأصبح الناس على مواقفهم فلما ذر قرن الشمس أقبل أصحاب القعقاع فحين رآهم كبر وكبر المسلمون وتقدموا وتكتبت الكتائب واختلفوا الضرب والطعن والمدد متتابع فما جاء آخر أصحاب القعقاع حتى انتهى إليهم هاشم فأخبر بما صنع القعقاع فعبى أصحابه سبعين سبعين وكان فيهم قيس بن هبيرة ابن عبد يغوث المعروف بقيس بن المكشوح المرادي ولم يكن من أهل الأيام إنما كان باليرموك فانتدب مع هاشم حتى إذا خالط القلب كبر وكبر المسلمون وقال: أول قتال المطاردة ثم المراماة ثم حمل على المشركين يقاتلهم حتى خرق صفهم إلى العتيق ثم عاد.

وكان المشركون قد باتوا يعملون توابيتهم حتى أعادوها وأصبحوا على مواقفهم وأقبلت الرجالة مع الفيلة يحمونها أن تقطع وضنها ومع الرجالة فرسان يحمونهم فلم تنفر الخيل منهم كما كانت بالأمس لأن الفيل إذا كان وحده كان أوحش وإذا أطافوا به كان آنس وكان يوم عماس من أوله إلى آخره شديدًا العرب والعجم فيه سواء ولا تكون بينهم نقطة إلا أبلغوها يزدجر بالأصوات فيبعث إليهم أهل النجدات ممن عنده فلولا أن الله ألهم القعقاع ما فعل في اليومين وإلا كسر ذلك المسلمين.

وقاتل قيس بن المكشوح وكان قد قدم مع هاشم قتالًا شديداً وحرض أصحابه وقال عمرو بن معدي كرب: إني حاملٌ على الفيل ومن حوله لفيل بإزائه فلا تدعوني أكثر من جزر جزور فإن تأخرتم عني فقدتم أبا ثور يعني نفسه وأين لكم مثل أبي ثور! فحمل وضرب فيهم حتى ستره الغبار وحمل أصحابه فأفرج المشركون عنه بعدما صرعوه وإن سيفه لفي يده يصارمهم وقد طعن فرسه فأخذ برجل فرس أعجمي فلم يطق الجري فنزل عنه صاحبه إلى أصحابه وركب عمرو.

وبرز فارسي فبرز إليه رجل من المسلمين يقال له شبر بن علقمة وكان قصيرًا فترجل الفارسي إليه فاحتمله وجلس على صدره ثم أخذ سيفه ليذبحه ومقود فرسه مشدود في منطقته فلما سلّ سيفه نفر الفرس فجذبه المقود فقلبه عنه وتبعه المسلم فقتله وأخذ سلبه فباعه باثني عشر ألفًا.

فلما رأى سعد الفيول قد فرقت بين الكتائب وعادت لفعلها أرسل إلى القعقاع وعاصم ابني عمرو: اكفياني الأبيض وكانت كلها آلفة له وكان بإزائهما وقال لحمال والزبيل: اكفياني الأجرب وكان بإزائهما فأخذ القعقاع وعاصم رمحين وتقدما في خيل ورجل وفعل حمال والزبيل مثل فعلهما فحمل القعقاع وعاصم فوضعا رمحيهما في عين الفيل الأبيض فنفض رأسه فطرح سائسه ودلى مشفره فضربه القعقاع فرمى به ووقع لجنبه وقتلوا من كان عليه وحمل حمال والزبيل الأسديان على الفيل الآخر فطعنه حمال في عينه فأقعى ثم استوى وضربه الزبيل فأبان مشفره وبصر به سائسه فبقر أنفه وجبينه بالطبرزين فأفلت الزبيل جريحًا فبقي الفيل جريحًا متحيرًا بين الصفين كلما جاء صف المسلمين وخزوه وإذا أتى صف المشركين نخسوه.

وولى الفيل وكان يدعى الأجرب وقد عور حمالٌ عينيه فألقى نفسه في العتيق فاتبعته الفيلة فخرقت صف الأعاجم فعبرت في أثره فأتت المدائن في توابيتها وهلك من فيها.

فلما ذهبت الفيلة وخلص المسلمون والفرس ومال الظل تزاحف المسلمون فاجتلدوا حتى أمسوا وهم على السواء.

فلما أمسى الناس اشتد القتال وصبر الفريقان فخرجا على السواء.

ذكر ليلة الهرير وقتل رستم

قيل: إنما سميت بذلك لتركهم الكلام إنما كانوا يهرون هريرًا.

وأرسل سعد طليحة وعمرًا ليلة الهرير إلى مخاضة أسفل العسكر ليقوموا عليها خشية أن يأتيه القوم منها.

فلما أتياها قال طليحة: لو خضنا وأتينا الأعاجم من خلفهم.

قال عمرو: بل نعبر أسفل.

فافترقا وأخذ طليحة وراء العسكر وكبر ثلاث تكبيرات ثم ذهب وقد ارتاع أهل فارس وتعجب المسلمون وطلبه الأعاجم فلم يدركوه.

وأما عمرو فإنه أغار أسفل المخاضة ورجع وخرج مسعود بن مالك الأسدي وعاصم بن عمرو وابن ذي البردين الهلالي وابن ذي السهمين وقيس ابن هبيرة الأسدي وأشباههم فطاردوا القوم فإذا هم لا يشدون ولا يريدون غير الزحف فقدموا صفوفهم وزاحفهم الناس بغير إذن سعد وكان أول من زاحفهم القعقاع وقال سعد: اللهم اغفرها له وانصره فقد أذنت له إن لم يستأذني.

ثم قال: أرى الأمر ما فيه هذا فإذا كبرت ثلاثًا فاحملوا وكبر واحدةً فلحقهم أسد فقال: اللهم اغفرها لهم وانصرهم.

ثم حملت النخع فقال: اللهم اغفرها لهم وانصرهم.

ثم حملت بجيلة فقال: اللهم اغفرها لهم وانصرهم.

ثم حملت كندة فقال: اللهم اغفرها لهم وانصرهم.

ثم زحف الرؤساء ورحى الحرب تدور على القعقاع وتقدم حنظلة بن الربيع وأمراء الأعشار وطليحة وغالب وحمالٍ وأهل النجدات ولما كبر الثالثة لحق الناس بعضهم بعضًا وخالطوا القوم واستقبلوا الليل استقبالًا بعد ما صلوا العشاء وكان صليل الحديد فيها كصوت القيون ليلتهم إلى

الصباح وأفرغ الله الصبر عليهم إفراغًا وبات سعد بليلة لم يبت بمثلها ورأى العرب والعجم أمرًا لم يروا مثله قط وانقطعت الأخبار والأصوات عن سعد ورستم وأقبل سعد على الدعاء فلما كان عند الصبح انتمى الناس فاستدل بذلك على أنهم الأعلون وكان أول شيء سمعه نصف الليل الباقي صوت القعقاع بن عمرو وهو يقول:

نحن قتلنا معشرًا
وزائدًا أربعةً وخمسةً وواحدا
نحسب فوق اللبد الأساودا
حتى إذا ماتوا دعوت جاهدا
الله ربي واحترزت عامدا

وقتلت كندة تركًا الطبري وكان مقدمًا فيهم.

وأصبح الناس ليلة الهرير - وتسمى ليلة القادسية من بين تلك الليالي - وهم حسرى لم يغمضوا ليلتهم كلها.

فسار القعقاع في الناس فقال: إن الدائرة بعد ساعة لمن بدأ القوم فاصبروا ساعة واحملوا فإن النصر مع الصبر فأثروا الصبر على الجزع.

فاجتمع إليه جماعة من الرؤساء وصمدوا لرستم حتى خالطوا الذين دونه مع الصبح فلما رأت ذلك القبائل قام فيها رؤساؤهم وقالوا: لا يكونن هؤلاء أجد في أمر الله منكم ولا هؤلاء يعني الفرس أجرأ على الموت منكم.

فحملوا فيما يليهم وخالطوا من بإزائهم فاقتتلوا حتى قام قائم الظهيرة فكان أول من زال الفيرزان والهرمزان فتأخرا وثبتا حيث انتهيا وانفرج القلب وركد عليهم النقع وهبت ريح عاصف فقلعت طيارة رستم عن سريره فهوت في العتيق وهي دبور ومال الغبار عليهم وانتهى القعقاع ومن معه إلى السرير فعثروا به وقد قام رستم عنه حين أطارت الريح الطيارة إلى بغال قد قدمت عليه بمال فهي واقفة فاستظل في ظل بغل وحمله وضرب هلال بن علقمة الحمل الذي تحته رستم فقطع حباله ووقع عليه أحد العدلين ولا يراه هلال ولا يشعر به فأزال عن ظهره فقارًا وضربه هلال ضربة فنفحت مسكًا.

ومضى رستم نحو العتيق فرمى بنفسه فيه واقتحمه هلال عليه وأخذ برجليه ثم خرج به فضرب جبينه بالسيف حتى قتله ثم ألقاه بين أرجل البغال ثم صعد السرير وقال: قتلت رستم ورب الكعبة! إلي إلي! فأطافوا به وكبروا فنفله سعد سلبه وكان قد أصابه الماء ولم يظفر بقلنسوته ولو ظفر فها لكانت قيمتها مائة ألف.

وقيل: إن هلالًا لما قصد رستم رماه رستم بنشابة أثبت قدمه بالركاب فحمل عليه هلال فضربه فقتله ثم احتز وعلقه ونادى: قتلت رستم! فانهزم قلب المشركين.

وقام الجالينوس على الردم ونادى الفرس إلى العبور وأما المقترنون فإنهم جشعوا فتهافتوا في العتيق فوخزهم المسلمون برماحهم فما أفلت منهم مخبر وهم ثلاثون ألفًا وأخذ ضرار بن الخطاب

درفش كابيان وهو العلم الأكبر الذي كان للفرس فعوض منه ثلاثين ألفًا وكانت قيمته ألف ألف ومائتي ألف.

وقتلوا في المعركة عشرة آلاف سوى من قتلوا في الأيام قبله وقتل من المسلمين قبل ليلة الهرير ألفان وخمسمائة وقتل ليلة الهرير ويوم القادسية ستة آلاف فدفنوا في الخندق حيال مشرق ودفن ما كان قبل ليلة الهرير على مشرق وجمعت الأسلاب والأموال فجمع منها شيء لم يجمع قبله ولا بعده مثله.

انتهى .

القيادة في قلب المعركة

[القيادة في قلب المعركة] هو قانون ثابت في الحرب الناجحة قديما وحديثا ، ولذا نرى إصرار سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه على الإطلاع والإشراف على المعركة بنفسه بالرغم من مرضه لقناعته أن القائد لا مكان له إلا وسط المعمعة وأن بعده عن المعركة سيؤثر في صحة تقديره للأمور فينعكس ذلك على صحة أوامره للجيش .
إن أولى أوليات الضربة الأولى في المعارك الحديثة هي قطع الاتصالات بين القيادة والجيش لأنها بمثابة قطع العنق الذي بقطعه ينفصل الرأس عن الجسد فيتعطل الجسد كله تبعا لذلك .
وانظر إلى المعارك قديما تجد أن حمل اللواء [لواء الحرب] في المعركة وبقاءه ثابتا مرتفعا فوق الرؤوس دليلا على بقاء القيادة ، ولذلك انعكاس مباشر على معنويات الجيش بأكمله .

فالألوية والرايات في المعركة وتحريكها بشكل معين ما هو إلا تعبير عن تواجد القيادة وتواصلها مع باقي أطراف الجيش الذي يرمي ببصره دائما نحو اللواء ويقاتل حوله .

15 - معركة جلولاء.

قال ابن الأثير رحمه الله :

وسببها أن الفرس لما انتهوا بعد الهرب من المدائن إلى جلولاء وافترقت الطرق بأهل أذربيجان والباب وأهل الجبال وفارس تذامروا قالوا: لو افترقتم لم تجتمعوا أبدًا وهذا مكان يفرق بيننا فهلموا فلنجتمع للعرب به ولنقاتلهم فإن كانت لنا فهو الذي نحب وإن كانت الأخرى كنا قد قضينا الذي علينا وأبلينا عذرًا.

فاحتفروا خندقًا واجتمعوا فيه على مهران الرازي وتقدم يزدجرد إلى حلوان فنزل بها ورماهم بالرجال وخلف فيهم الأموال فأقاموا وأحاطوا خندقهم بحسك الحديد إلا طرقهم.

فبلغ ذلك سعدًا فأرسل إلى عمر فكتب إليه عمر: أن سرح هاشم بن عتبة إلى جلولاء واجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو وعلى ميمنته مسعر بن مالك وعلى ميسرته عمرو بن مالك بن عتبة وأجعل على ساقته عمرو بن مرة الجهني وإن هزم الله الفرس فاجعل القعقاع بين السواد والجبل وليكن الجند اثني عشر ألفًا.

ففعل سعدٌ ذلك وسار هاشم من المدائن بعد قسمة الغنيمة في اثني عشر ألفًا منهم وجوه المهاجرين والأنصار وأعلام العرب ممن كان ارتد ومن لم يرتد فسار من المدائن فمر ببابل مهروذ فصالحه دهقانها على أن يفرش له جريب الأرض دراهم ففعل وصالحه ثم مضى حتى قدم جلولاء فحاصرهم في خنادقهم وأحاط بهم وطاولهم الفرس وجعلوا لا يخرجون إلا إذا أرادوا وزاحفهم المسلمون نحو ثمانين يومًا كل ذلك ينصر المسلمون عليهم وجعلت الأمداد ترد من يزدجرد إلى مهران وأمد سعد المسلمين وخرجت الفرس وقد احتفلوا فاقتتلوا فأرسلٍ الله عليهم الريح حتى أظلمت عليهم البلاد فتحاجزوا فسقط فرسانهم في الخندق فجعلوا فيه طرقًا مما يليهم يصعد منه خيلهم فأفسدوا حصنهم.

وبلغ ذلك المسلمين فنهضوا إليهم وقاتلوهم قتالًا شديدًا لم يقتتلوا مثله ولا ليلة الهرير إلا أنه كان أعجل.

وانتهى القعقاع بن عمرو من الوجه الذي زحف فيه إلى باب خندقهم فأخذ به وأمر مناديًا فنادى: يا معاشر المسلمين هذا أميركم قد دخل الخندق وأخذ به فأقبلوا إليه ولا يمنعكم من بينكم وبينه من دخوله.

وإنما بذلك ليقوي المسلمين.

فحملوا ولا يشكون بأن هاشمًا في الخندق فإذا هم بالقعقاع بن عمرو وقد أخذ به فانهزم المشركون عن المجال يمنة ويسرة فهلكوا فيما أعدوا من الحسك فعقرت دوابهم وعادوا رجالة واتبعهم المسلمون فلم يفلت منهم إلا من لا يعد وقتل يومئذٍ منهم مائة ألف فجللت القتلى المجال وما بين يديه وما خلفه فسميت جلولاء بما جللها من قتلاهم فهي جلولاء الوقيعة.

انتهى .

دور الإعلام الجهادي

إن إعجاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه بكلام وأسلوب زياد بن أبيه جعله يطلب منه أن يلقيه على عامة المسلمين لينقل لهم تلك الأحداث بهذه الصورة المشرقة ،فليس من رأى كمن سمع ، وليس الخبر كالمعاينة .
فالإعلام الجهادي الذي مثله هنا زياد بن أبيه هو صلة الوصل بين الأمة وأبنائها المجاهدين .

فأخبار المعارك والفتوحات وقصص الشهداء هي التي تجعل الأمة في قلب المعركة فتلهج بالدعاء وتبذل العطاء وتشارك المجاهدين أفراحهم وجراحهم وهو من جهاد الكلمة الذي رغب به النبي صلى الله عليه وسلم في قوله "جاهدوا المشركين بأنفسكم وأموالكم وألسنتكم" وفي قوله لحسان بن ثابت "اهجهم وروح القدس معك" وقوله في غزوة حنين" لصوت أبي طلحة في الجيش خير من ألف رجل " .
فعلى القائمين على الإعلام الجهادي أن يدركوا أهمية دورهم جيدا وليكن رائدهم في ذلك "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه".

16 - معركة نهاوند.

قال ابن الأثير رحمه الله :

فرحل النعمان وعبى أصحابه وهم ثلاثون ألفًا فجعل على مقدمته نعيم ابن مقرن وعلى مجنبتيه حذيفة بن اليمان وسويد بن مقرن وعلى المجردة القعقاع بن عمرو وعلى الساقة مجاشع بن مسعود.

وقد توافت إليه أمداد المدينة فيهم المغيرة بن شعبة فانتهوا إلى إسبيذهان والفرس وقوف على تعبيتهم وأميرهم الفيرزان وعلى مجنبتيه الزردق وبهمن جاذويه الذي جعل مكان ذي الحاجب.

وقد توافى إليهم الأمداد بنهاوند كل من غاب عن القادسية ليسوا بدونهم فلما رآهم النعمان كبر وكبر معه الناس فتزلزلت الأعاجم وحطت العرب الأثقال وضرب فسطاط النعمان فابتدر أشراف الكوفة فضربوه منهم: حذيفة بن اليمان وعقبة بن عامر والمغيرة بن شعبة وبشير ابن الخصاصية وحنظلة الكاتب وجرير بن عبد الله البجلي والأشعث ابن قيس وسعيد بن قيس الهمداني ووائل بن حجر وغيرهم.

فلم ير بناء فسطاط بالعراق كهؤلاء.
وأنشب النعمان القتال بعد حط الأثقال فاقتتلوا يوم الأربعاء ويوم الخميس والحرب بينهم سجالٌ وإنهم انجحروا في خنادقهم يوم الجمعة وحصرهم المسلمون وأقاموا عليهم ما شاء الله والفرس بالخيار لا يخرجون إلا إذا أرادوا الخروج فخاف المسلمون أن يطول أمرهم حتى إذا كان ذات يوم في جمعة من الجمع تجمع أهل الرأي من المسلمين وقالوا: نراهم علينا بالخيار.

وأتوا النعمان في ذلك فوافوه وهو يروي في الذي رووا فيه فأخبروه فبعث إلى من بقي من أهل النجدات والرأي فأحضرهم فتكلم النعمان فقال: (قد ترون المشركين واعتصامهم بخنادقهم ومدنهم وأنهم لا يخرجون إلينا إلا إذا شاؤوا ولا يقدر المسلمون على إخراجهم وقد ترون الذي فيه المسلمون من فتكلم عمرو بن ثني وكان أكبر الناس وكانوا يتكلمون على الأسنان فقال: التحصن عليهم أشد من المطاولة عليكم فدعهم وقاتل من أتاك منهم.

فردوا عليه رأيه.

وتكلم عمرو بن معد يكرب فقال: ناهدهم وكابرهم ولا تخفهم فردوا جميعًا عليه رأيه وقالوا: إنما يناطح بنا الجدران وهي أعوان علينا.

وقال طليحة: أرى أن نبعث خيلًا لينشبوا القتال فإذا اختلطوا بهم رجعوا إلينا استطرادًا فإنا لم نستطرد لهم في طول ما قاتلناهم فإذا رأوا ذلك طمعوا وخرجوا فقاتلناهم حتى يقضي الله فيهم وفينا ما أحب.

فأمر النعمان القعقاع بن عمرو وكان على المجردة فأنشب القتال فأخرجهم من خنادقهم كأنهم جبال حديد قد تواثقوا أن لا يفروا وقد قرن بعضهم بعضًا كل سبعة في قران وألقوا حسك الحديد خلفهم لئلا ينهزموا.

فلما خرجوا نكص ثم نكص واغتنمها الأعاجم ففعلوا كما ظن طليحة وقالوا: هي هي فلم يبق أحد إلا من يقوم على الأبواب وركبوهم.

ولحق القعقاع بالناس وانقطع الفرس عن حصنهم بعض الانقطاع والمسلمون على تعبية في يوم جمعة صدر النهار وقد عهد النعمان إلى الناس عهده وأمرهم أن يلزموا الأرض ولا يقاتلوا حتى يأذن لهم ففعلوا واستتروا بالحجف من الرمي واقبل المشركون عليهم يرمونهم حتى أفشوا فيهم الجراح.

وشكا بعض الناس وقالوا للنعمان: ألا ترى ما نحن فيه فما تنتظر بهم ائذن للناس في قتالهم.

فقال: رويدًا رويدًا.

وانتظر النعمان بالقتال أحب الساعات كانت إلى رسول الله - إن شاء الله - أن يلقى العدو فيها وذلك عند الزوال فلما كان قريبًا من تلك الساعة ركب فرسه وسار في الناس ووقف على كل راية يذكرهم ويحرضهم ويمنيهم الظفر وقال لم: إني مكبر ثلاثًا فإذا كبرت الثالثة فإني حامل فاحملوا وإن قتلت فالأمير بعدي حذيفة فإن قتل ففلان حتى عد سبعة آخرهم المغيرة.

ثم قال: اللهم أعزز دينك وانصر عبادك واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك.

وقيل: بل قال: اللهم إني أسألك أن تقر عيني اليوم بفتح يكون فيه عز الإسلام واقبضني شهيدًا.

فبكى الناس.

ورجع إلى موقفه فكبر ثلاثًا والناس سامعون مطيعون مستعدون للقتال وحمل النعمان والناس معه وانقضت رايته انقضاض العقاب والنعمان معلم ببياض القباء والقلنسوة فاقتتلوا قتالًا شديدًا لم يسمع السامعون بوقعة كانت أشد منها وما كان يسمع إلا وقع الحديد وصبر لهم المسلمون صبرًا عظيمًا وانهزم الأعاجم وقتل منهم ما بين الزوال والإعتام ما طبق أرض المعركة دمًا يزلق الناس والدواب.

فلما أقر الله عين النعمان بالفتح استجاب له فقتل شهيدًا زلق به فرسه فصرع.

وقيل: بل رمي بسهم في خاصرته فقتله فسجاه أخوه نعيم بثوب وأخذ الراية قبل أن تقع وناولها حذيفة فأخذها وتقدم إلى موضع النعمان وترك نعيمًا مكانه.

وقال لهم المغيرة: اكتموا مصاب أميركم حتى ننتظر ما يصنع الله فينا وفيهم لئلا يهن الناس.

فاقتتلوا.

فلما أظلم الليل عليهم انهزم المشركون وذهبوا ولزمهم المسلمون وعمي عليهم قصدهم فتركوه وأخذوا نحو اللهب الذي كانوا دونه بأسبيذهان فوقعوا فيه فكان الواحد منهم يقع فيقع عليه ستة بعضهم على بعضهم في قياد واحد فيقتلون جميعًا وجعل يعقرهم حسك الحديد فمات منهم في اللهب مائة ألف أو يزيدون سوى من قتل في المعركة.

انتهى .

الوقت المناسب

يعتبر اختيار الوقت المناسب من أهم عوامل النصر في المعارك ، فمن أهم مهمات الأمير في المعركة معرفة الوقت الأنسب للهجوم أو للكرة بعد الفرة أو الوقت المناسب للانقضاض على العدو مع استدراجه كما حدث مع [النعمان بن مقرن] ، فمع كل ما أصابه ومن معه من جراح وألم آثر ألا يستعجل في الانقضاض على الفرس وفضل التروي وانتظار الوقت الأنسب ، لعلمه أن ذلك يعطيه وضعية أفضل للقتال ويقطع الفرصة على الفرس في العودة السريعة للحصن أو اكتشاف الكمين في وقت مبكر ، فكان هذا التقدير الجيد للوقت هو العامل الحاسم في المعركة والذي أدى إلى فتح الحصن فيما بعد .
وقد روي عن عمر رضي الله عنه أن الحرب لا يصلح لها إلا الرجل (المكيث) أي المتروي .

17 - فتح مصر.

قال ابن الأثير رحمه الله :

وأما فتحها فإنه لما فتح عمر بيت المقدس وأقام به أيامًا وأمضى عمرو ابن العاص إلى مصر وأتبعه الزبير بن العوام مددًا له فأخذ المسلمون باب اليون وساروا إلى مصر فلقيهم هناك أبو مريم جاثليق مصر ومعه الأسقف بعثه المقوقس لمنع بلادهم فلما نزل بهم عمرو قاتلوه فأرسل إليهم: لا تعجلونا حتى نعذر إليكم وترون رأيكم بعد وليبرز إلي أبو مريم وأبو مريام فكفوا وخرجا إليه

فدعاهما إلى الإسلام أو الجزية وأخبرهما بوصية ـ النبي صلى الله عليه وسلم ـ بأهل مصر بسبب هاجر أم إسماعيل عليه السلام فقالوا: قرابة بعيدة لا يصل مثلها إلا الأنبياء آمنا حتى نرجع إليك.

فقال عمرو: مثلي لا يخدع ولكني أؤجلكما ثلاثًا لتنظرا.

فقالا: زدنا فزادهما يومًا فرجعا إلى المقوقس فهم.

فأبى أرطبون أن يجيبهما وأمر بمناهدتهم فقال لأهل مصر: أما نحن فسنجهد أن ندفع عنكم.

فلم يفجأ عمرًا إلا البيات وهو على عدة فلقوه فقتل أرطبون وكثير ممن معه وانهزم الباقون وسار عمرو والزبير إلى عين الشمس وبها جمعهم وبعث إلى فرما أبرهة بن الصباح وبعث عوف بن مالك إلى الإسكندرية فنزل عليها.

قيل: وكان الإسكندر وفرما أخوين ونزل عمرو بعين الشمس فقال أهل مصر لملكهم: ما تريد إلى قتال قوم هزموا كسرى وقيصر وغلبوهم على بلادهم! فلا تعرض لهم ولا تعرضنا لهم ـ وذلك في اليوم الرابع ـ فأبى وناهدوهم وقاتلوهم.

فلما التقى المسلمون والمقوقس بعين الشمس واقتتلوا جال المسلمون فذمرهم عمرو فقال له رجل من اليمن: إنا لم نخلق من حديد.

فقال له عمرو: اسكت إنما أنت كلب.

قال: فأنت أمير الكلاب.

فنادى عمرو بأصحاب ـ النبي صلى الله عليه وسلم ـ فأجابوه فقال: تقدموا فبكم ينصر الله المسلمين فتقدموا وفيهم أبو بردة وأبو برزة وتبعهم الناس وفتح الله على المسلمين وظفروا وهزموا المشركين فارتقى الزبير بن العوام سورها فلما أحسوا فتحوا الباب لعمرو وخرجوا إليه مصالحين فقبل منهم ونزل الزبير عليهم عنوةً حتى خرج على عمرو من الباب معهم فاعتقدوا صلحًا بعد ما أشرفوا على الهلكة فأجروا ما أخذوا عنوةً مجرى الصلح فصاروا ذمة وأجروا من دخل في صلحهم من الروم والنوبة مجرى أهل مصر ومن اختار الذهاب فهو آمنٌ حتى يبلغ مأمنه.

انتهى .

الحذر

قال الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعا}
قال ابن كثير : يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بأخذ الحذر من عدوهم وهذا يستلزم التأهب لهم بإعداد الأسلحة والعدد . انتهى كلامه

الحذر مطلوب شرعي في الجهاد على وجه الخصوص حتى لا يؤخذ المسلمون على حين غرة فكم من إمارات ودول ذهبت بسبب تفريطها في ذلك
وكم من خطط نفذها أعداؤنا بنفس طويل حتى نأمن جانبهم ويذهب حذرنا منهم ويحل مكانه الغفلة فنكون بذلك فريسة سهلة لهم .
لقد كانت الدولة الإسلامية في أقوى حالاتها عندما كانت سياستها (لست بالخب ولا الخب يخدعني).
فحسن الظن بالعدو أو بمن لا تعرفه مزلة عظيمة قد تؤدي بصاحبها إلى التهلكة ولذلك لم يغتر الصحابي الجليل عمرو بن العاص رضي الله عنه بما أبداه أهل مصر من لين الخطاب ولم يمهلهم في الرد أكثر من أربعة أيام حتى لا يتمكنوا من الاستعداد لقتاله أو يراسلوا من يعينهم في ذلك ، فالأصل في الحرب أنها موطن حذر وترقب مستمر ، وقد أمر الله عباده المجاهدين بأن يأخذوا حذرهم من العدو وهم في [الصلاة] وهي محل خشوع وسكينة فقال تعالى: {وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً } .

18 - فتح خراسان.

قال ابن الأثير رحمه الله :

وخرج الأحنف من مرو الشاهجان واستخلف عليها حارثة بن النعمان الباهلي بعد ما لحقت به أمداد أهل الكوفة وسار نحو مرو الروذ.

فلما سمع يزدجرد سار عنها إلى بلخ ونزل الأحنف مرو الروذ.

وقدم أهل الكوفة إلى يزدجرد واتبعهم الأحنف فالتقى أهل الكوفة ويزدجرد ببلخ فانهزم يزدجرد وعبر النهر ولحق الأحنف وتتابع أهل خراسان من هرب وشذ على الصلح فيما بين نيسابور إلى طخارستان وعاد الأحنف إلى مرو الروذ فنزلها واستخلف على طخارستان ربعي بن عامر وكتب الأحنف إلى عمر بالفتح فقال عمر: وددت أن بيننا وبينها بحرًا من نار.

فقال علي: ولم يا أمير المؤمنين قال: لأن أهلها سينفضون منها ثلاث مرات فيجتاحون في الثالثة فكان ذلك بأهلها أحب إلي من أن يكون بالمسلمين.

وكتب عمر إلى الأحنف أن يقتصر على ما دون النهر ولا يجوزه.

ولما عبر يزدجرد النهر مهزومًا أنجده خاقان في الترك وأهل فرغانة والصغد فرجع يزدجرد وخاقان إلى خراسان فنزلا بلخ ورجع أهل الكوفة إلى الأحنف بمرو الروذ ونزل المشركون عليه بمرو أيضًا.

وكان الأحنف لما بلغه خبرٍ عبور يزدجرد وخاقان النهر إليه خرج ليلًا يتسمع هل يسمع برأي ينتفع به فمر برجلين ينقيان علفًا وأحدهما يقول لصاحبه: لو أسندنا الأمير إلى هذا الجبل فكان النهر بيننا وبين عدونا خندقًا وكان الجبل في ظهورنا فلا يأتونا من خلفنا وكان قتالنا من وجه واحد رجوت أن ينصرنا الله.

فرجع فلما أصبح جمع الناس ورحل بهم إلى سفح الجبل وكان معه من أهل البِصرة عشرة آلاف ومن أهل الكوفة نحو منهم وأقبلت الترك ومن معها فنزلت فخرج الأحنف ليلةً طليعةً لأصحابه حتى إذا كان قريبًا من عسكر خاقان وقف فلما كان وجه الصبح خرج فارس من الترك بطوقه فضرب بطبله ثم وقف من العسكر موقفًا يقفه مثله فحمل عليه الأحنف فتقاتلا فطعنه الأحنف فقتله وأخذ طوق التركي ووقف فخرج آخر من الترك ففعل فعل صاحبه فحمل عليه الأحنف فتقاتلا فطعنه فقتله وأخذ طوقه ووقف ثم خرج الثالث من الترك ففعل فعل الرجلين فحمل عليه الأحنف فقتله ثم انصرف الأحنف إلى عسكره.

وكانت عادة الترك أنهم لا يخرجون حتى يخرج ثلاثة من فرسانهم أكفاء كلهم يضرب بطبله ثم يخرجون بعد خروج الثالث.

فلما خرجوا تلك الليلة بعد الثالث فأتوا على فرسانهم مقتلين تشاءم خاقان وتطير فقال: قد طال مقامنا وقد أصيب فرساننا ما لنا في قتال هؤلاء القوم خير فرجعوا.

وارتفع النهار للمسلمين ولم يروا منهم أحدًا وأتاهم الخبر بانصراف خاقان والترك إلى بلخ وقد كان يزدجرد ترك خاقان مقابل المسلمين بمرو الروذ وانصرف إلى مرو الشاهجان فتحصن حارثة بن النعمان ومن معه فحصرهم واستخرج خزائنه من موضعها وخاقان مقيم ببلخ.

فقال المسلمون للأحنف: ما ترى في اتباعهم فقال: أقيموا بمكانكم ودعوهم.

فلما جمع يزدجرد خزائنه وكانت كبيرة عظيمة وأراد أن يلحق بخاقان قال له أهل فارس: أي شيء تريد أن تصنع قال: أريد اللحاق بخاقان فأكون معه أو بالصين.

قالوا له: إن هذا رأي سوء ارجعنا إلى هؤلاء القوم فنصالحهم فإنهم أوفياء وهم أهل دين وإن عدوًا يلينا في بلادنا أحب إلينا مملكة من عدو يلينا في بلاده ولا دين لهم ولا ندري ما وفاؤهم. فأبى عليهم.

فقالوا: دع خزائننا نردها إلى بلادنا ومن يلينا لا تخرجها من بلادنا.

فأبى فاعتزلوه وقاتلوه فهزموه وأخذوا الخزائن واستولوا عليها وانهزم منهم ولحق بخاقان وعبر النهر من بلخ إلى فرغانة وأقام يزدجرد ببلد الترك فلم يزل مقيمًا زمن عمر كله إلى أن كفر أهل خراسان زمن عثمان وكان يكاتبهم ويكاتبونه

انتهى.

تأمين الظهر

وهو ما خشيه عمر رضي الله عنه على الأحنف بن قيس بعد أن أوغل في خراسان فلم يأمن عليه أن يكون ظهره مكشوفا في هذه الحالة .
إن من أكثر ما يهدد الجيوش قديما وحديثا هو انكشاف جهة من جهاتها على العدو ، ولذلك يعتبر [الانسحاب] أخطر خط حركي للجيش لإمكانية ضربه أثناء الانسحاب وهي وضعية لا تساعده على القتال أو الدفاع ، فتجد الجيوش الحديثة تعتمد على زرع الألغام في الأراضي التي يخلفونها وراءهم أثناء الانسحاب لضمان سلامتهم من الخلف .

فيجب على الجيش المسلم أن يراعي مكان العدو منه حتى لا يقع في الحصارات المميتة أو بين فكي كماشة ! .

19 - معركة [فساودارابجرد].

قال ابن الأثير رحمه الله :

وقصد سارية بن زنيم الدئلي فسا ودار ابجرد حتى انتهى إلى عسكرهم فنزل عليهم وحاصرهم ما شاء الله ثم إنهم استمدوا وتجمعوا وتجمعت إليهم أكراد فارس فدهم المسلمين أمر عظيم وجمعٌ كثير وأتاهم الفرس من كل جانب فرأى عمر فيما يرى النائم تلك الليلة معركتهم وعددهم في ساعة من النهار فنادى من الغد: الصلاة جامعة! حتى إذا كان في الساعة التي رأى فيها ما رأى خرج إليهم وكان ابن زنيم والمسلمون بصحراء إن أقاموا فيها أحيط بهم وإن استندوا إلى جبل من خلفهم لم يؤتوا إلا من وجه واحد.

فقام فقال: يا أيها الناس إني رأيت هذين الجمعين وأخبر بحالهما.

وصاح عمر وهو يخطب: يا سارية بن زنيم الجبل الجبل! ثم أقبل عليهم وقال: إن لله جنودًا ولعل بعضها أن يبلغهم.

فسمع سارية ومن معه الصوت فلجؤوا إلى الجبل ثم قاتلوهم فهزمهم الله وأصاب المسلمون مغانمهم

انتهى.

الكرامات

أمر الله عباده المؤمنين بنشر الدين الذي ارتضاه لنفسه في الأرض كلها وأمر بجهاد من وقف في وجه هذه الدعوة الربانية ، ثم دلهم على مفاتيح النصر في كل معركة {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ }.
فإن هم صدقوا وصبروا على ذلك :
جعلهم ستارا لقدرته فأصبحوا قوة لا تقهر مهما كثر أعداؤها {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى}
وإن هم صدقوا وصبروا على ذلك :
سخر لهم كل ما حولهم من كائنات فتقاتل معهم الملائكة والريح والرمال والبحار والطير والمطر والسحاب والسباع وغيرها فتكون معركة كونية كبرى وجيش مهول لا يصمد في وجهه أحد .
وإن هم صدقوا وصبروا على ذلك :
تولاهم بنصره {وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً} .
إن الحسابات الدنيوية المنطقية لتصطدم في أفهام الخبراء العسكريين عندما يرون فئة قليلة ضعيفة الإمكانيات تثبت في مكانها وتحقق النصر تلو النصر على الفئة الكثيرة في العدد والعدة ، وصدق الله العظيم {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ } .

فالصورة السابقة هي المشاهد الحقيقية في كل معركة يلتقي فيها صفي الحق والباطل ، فكلما خرجت فئة تقاتل في سبيل الله جعل الله لهم من الكرامات ما يثبتهم به وينصرهم بحسب إيمانهم وتوكلهم عليه .

20 - غزوة إفريقية.

لا تقتصر الحرب على القتال فقط ، بل إن لها مقدمات وملحقات لا تقل أهمية عن القتال نفسه لما لها من تأثير على الجو العام للحرب ولذا نرى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان لا يكتفي بإرسال المقاتلين في الجيش فقط بل يضم إليهم الشعراء والخطباء والحكماء ليكونوا عونا لهم في الجوانب الأخرى التي لا تتعلق بالقتال نفسه ومنها الرد على خطاب الأعداء وما يلقونه من شبه أو ما يحرضون به أنفسهم وهو ما أشار إليه هنا عبدالله بن الزبير . . . .

قال ابن الأثير رحمه الله :

ثم إن عبد الله بن سعد لما ولي أرسل إلى عثمان في غزو إفريقية والاستكثار من الجموع عليها وفتحها فاستشار عثمان من عنده من الصحابة فأشار أكثرهم بذلك فجهز إليه العساكر من المدينة وفيهم جماعة من أعيان الصحابة منهم عبد الله بن عباس وغيره فسار بهم عبد الله بن سعد إلى أفريقية.

فلما وصلوا إلى برقة لقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين وكانوا بها وساروا إلى طرابلس الغرب فنهبوا من عندها من الروم.

وسار نحو إفريقية وبث السرايا في كل ناحية وكان ملكهم اسمه جرجير وملكه من طرابلس إلى طنجة وكان هرقل ملك الروم قد ولاه إفريقية فهو يحمل إليه الخراج كل سنة.

فلما بلغه خبر المسلمين تجهز وجمع العساكر وأهل البلاد فبلغ عسكره مائة ألف وعشرين ألف فارس والتقى هو والمسلمون بمكان بينه وبين مدينة سبيطلة يوم وليلة وهذه المدينة كانت ذلك الوقت دار الملك فأقاموا هناك يقتتلون كل يوم وراسله عبد الله بن سعد يدعوه إلى الإسلام أو الجزية فامتنع منهما وتكبر عن قبول أحدهما.

وانقطع خبر المسلمين عن عثمان فسير عبد الله بن الزبير في جماعة إليهم ليأتيه بأخبارهم فسار مجدًا ووصل إليهم وأقام معهم ولما وصل كثر الصياح والتكبير في المسلمين فسأل جرجير

ورأى عبد الله بن الزبير قتال المسلمين كل يوم من بكرة إلى الظهر فإذا أذن بالظهر عاد كل فريق إلى خيامه وشهد القتال من الغد فلم ير ابن أبي سرح معهم فسأل عنه فقيل إنه سمع منادي جرجير يقول: من قتل عبد الله بن سعد فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتي وهو يخاف فحضر عنده وقال له: تأمر مناديًا ينادي: من أتاني برأس جرجير نفلته مائة ألف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده.

ففعل ذلك فصار جرجير يخاف أشد من عبد الله.

ثم إن عبد الله بن الزبير قال لعبد الله بن سعد: إن أمرنا يطول مع هؤلاء وهم في أمداد متصلة وبلاد هي لهم ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم وقد رأيت أن نترك غدًا جماعة صالحة من أبطال المسلمين في خيامهم متأهبين ونقاتل نحن الروم في باقي العسكر إلى أن يضجروا ويملوا فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون ركب من كان في الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون ونقصدهم على غرة فلعل الله ينصرنا عليهم فأحضر جماعة من أعيان الصحابة واستشارهم فوافقوه على ذلك.

فلما كان الغد فعل عبد الله ما اتفقوا عليه وأقام جميع شجعان المسلمين في خيامهم وخيولهم عندهم مسرجة ومضى الباقون فقاتلوا الروم إلى الظهر قتالًا شديدًا.

فلما أذن بالظهر هم الروم بالانصراف على العادة فلم يمكنهم ابن الزبير وألح عليهم بالقتال حتى أتعبهم ثم عاد عنهم هو والمسلمون فكل من الطائفتين ألقى سلاحه ووقع تعبًا فعند ذلك أخذ عبد الله بن الزبير من كان مستريحًا من شجعان المسلمين وقصد الروم فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم وحملوا حملة رجل واحد وكبروا فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم حتى غشيهم المسلمون وقتل جرجير قتله ابن الزبير وانهزم الروم وقتل منهم مقتلة عظيمة وأخذت ابنة الملك جرجير سبية.

ونازل عبد الله بن سعد المدينة فحصرها حتى فتحها ورأى فيها من الأموال ما لم يكن في غيرها فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألف دينار.

انتهى .

الرد على خطاب الأعداء

وتكمن أهمية الرد على إعلام العدو في أن المخاطبين به إن لم يسمعوا ردا عليه فسيفهمون وبتلقائية طبيعية على أنه دليل على قوته أو صحة ما جاء فيه من اتهامات أو غيره ، ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد لما سمع أبا سفيان يقول : أعل هبل ، قال : "ألا تجيبونهم؟" قالوا : ماذا نقول ؟ قال : "قولوا: الله أعلى وأجل" .
ومن أهم السمات التي يجب مراعاتها في الرد على خطاب الأعداء الموجه للناس عامة أن يكون خطابنا يتماشى مع أفهام الناس وعقولهم فلا نخاطبهم بما لا يفهمون كما قال ابن مسعود رضي الله عنه " إنك لن تحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة ".

ويجب أن نكون واضحين ومن البداية كما قال سيد قطب رحمه الله (يجب أن يكون المنهج واضحا في العقيدة بدون أي غموض وتلبيس على العامة ولكن اللين والتلطف والمراعاة تكون في [الأسلوب]
ويجب أن يكون الخطاب صادقا في محتواه حتى تكسب ثقة الناس لأن الصدق وحده هو من يجعل لكلماتك وزن وقيمة وتأثير والكذب مهما نفع في أول الأمر فلن يستمر لأنه يقف على رمال متحركة سرعان ما تهوي بصاحبها وينكشف زيفها للجميع) .

21 - فتح قبرص.

هي أول غزوة للمسلمين في البحر بعد تردد كبير في مسألة الدخول في هذه التجربة الجديدة على المسلمين ، فما الذي دعا المسلمين إلى كسر هذا الحاجز ؟

قال ابن الأثير رحمه الله :

غزاها معاوية هذه السنة غزا معه جماعة من الصحابة فيهم أبو ذر وعبادة بن الصامت ومعه زوجته أم حرام وأبو الدرداء وشداد بن أوس وكان معاوية قد لج على عمر في غزو البحر وقرب الروم من حمص وقال: إن قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم وصياح دجاجهم.

فكتب عمر إلى عمرو بن العاص: صف لي البحر وراكبه.

فكتب إليه عمرو بن العاص: إني رأيت خلقًا كبيرًا يركبه خلقٌ صغير ليس إلا السماء والماء إن ركد خرق القلوب وإن تحرك أزاغ العقول يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة هم فيه كدود على عود إن مال غرق وإن نجا برق.

فلما قرأه كتب إلى معاوية: والذي بعث محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالحق لا أحمل فيه مسلمًا أبدًا وقد بلغني أن بحر الشام يشرف على أطول شيء من الأرض فيستأذن الله في كل يوم وليلة في أني يغرق الأرض فكيف أحمل الجنود على هذا الكافر! وبالله لمسلم أحب إلي مما حوت الروم.

وإياك أن تعرض إلي فقد علمت ما لقي العلاء

قال: وترك ملك الروم الغزو وكاتب عمر وقاربه.

وبعثت أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب زوج عمر بن الخطاب إلى امرأة ملك الروم بطيب وشيء يصلح للنساء مع البريد فأبلغه إليها فأهدت امرأة الملك إليها هدية منها عقد فاخر.

فلما رجع البريد أخذ عمر ما معه ونادى: الصلاة جامعة فاجتمعوا وأعلمهم الخبر فقال القائلون: هو لها بالذي كان لها وليست امرأة الملك بذمة فتصانعك.

وقال آخرون: قد كنا نهدى لنستثيب.

فقال عمر: لكن الرسول رسول المسلمين والبريد بريدهم والمسلمون عظموها في صدرها فأمر بردها إلى بيت المال وأعطاها بقدر نفقتها.

فلما كان زمن عثمان كتب إليه معاوية يستأذنه في غزو البحر مرارًا فأجابه عثمان بأخرة إلى ذلك وقال له: لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم خيرهم فمن اختار الغزو طائعًا فاحمله وأعنه.
ففعل واستعمل عبد الله بن قيس الجاسي حليف بني فزارة وسار المسلمون من الشام إلى قبرص وسار إليها عبد الله بن سعد من مصر فاجتمعوا عليها فصالحهم أهلها على جزية سبعة آلاف دينار كل سنة يؤدونها إلى الروم مثلها لا يمنعهم المسلمون عن ذلك وليس على المسلمين منعهم ممن أرادهم ممن وراءهم وعليهم أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوهم من الروم إليهم ويكون طريق المسلمين إلى العدو عليهم.

قال جبير بن نفير: ولما فتحت قبرص ونهب منها السبي نظرت إلى أبي الدرداء يبكي فقلت: ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله وأذل فيه الكفر وأهله قال: فضرب منكبي بيده وقال: ثكلتك أمك يا جبير ما أهون الخلق على الله إذا تركوا أمره بينما هي أمة ظاهرة قاهرة للناس لهم الملك إذا تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى فسلط عليهم السباء وإذا سلط السباء على قوم فليس له فيهم حاجة.

انتهى .

فضل الغزو في البحر

وردت فضائل كثيرة للغزو في البحر ولا يكاد يخلو كتاب في الجهاد عن ذكر شيء منها وقد ساعدت هذه الغزوة على فتح الباب البحري للدعوة الإسلامية لتصل إلى آفاق لم تكن قادرة على الوصول إليها إلا من خلال هذا الباب .

ولأهمية هذا النوع من الغزو وصعوبته جعل الله فيه من الفضل والمثوبة لصاحبه ما ليس في غيره ، فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال "عجبت من قوم يركبون البحر كالملوك على الأسرة"
وقال أيضا "إن المائد في البحر الذي يصيبه القيء له أجر شهيد والغريق له أجر شهيدين" .

22 - غزوة ذات الصواري.

إن كان فتح قبرص أول غزو للمسلمين عن طريق البحر فإن غزوة [ذات الصواري] هي أول قتال يجري للمسلمين في عرض البحر ، فكانت بحق ملحمة بحرية مني فيها الروم بشر هزيمة ولله الحمد .

قال ابن الأثير رحمه الله :

وأما سبب هذه الغزوة فإن المسلمين لما أصابوا من أهل إفريقية وقتلوهم وسبوهم خرج قسطنطين بن هرقل في جمع له لم تجمع الروم مثله مذ كان الإسلام فخرجوا في خمسمائة مركب أو ستمائة وخرج المسلمون وعلى أهل الشام معاوية بن أبي سفيان وعلى البحر عبد الله بن سعد بن أبي سرح وكانت الريح على المسلمين لما شاهدوا الروم فأرسى المسلمون والروم وسكنت الريح فقال المسلمون: الأمان بيننا وبينكم فباتوا ليلتهم والمسلمون يقرؤون القرآن ويصلون ويدعون والروم يضربون بالنواقيس وقربوا من الغد سفنهم وقرب المسلمون سفنهم فربطوا بعضها مع بعض واقتتلوا بالسيوف والخناجر وقتل من المسلمين بشرٌ كثير وقتل من الروم ما لا يحصى وصبروا يومئذٍ صبرًا لم يصبروا في موطن قط مثله ثم أنزل الله نصره على المسلمين فانهزم قسطنطين جريحًا ولم ينج من الروم إلا الشريد.

انتهى .

الدعاء قبل المعركة

تذكرنا هذه المعركة في حجمها وأهميتها بغزوة بدر الكبرى ، فكل منهما كانا لقاءين مصيريين للمسلمين ، وكعادة المسلمين والكفار إذا التقوا في ساحة المعركة يلجأ كل واحد منهما قبل المعركة إلى ما يعينه عليها .
فنجد الكفار يلجؤون إلى الشراب والطعام والمعازف كما كان حالهم يوم بدر في قول أبي جهل (والله لا نرجع حتى نقيم ثلاثا فننحر الجزور وتعزف القيان) وهذا الحال هو نفس ما كانوا عليه ليلة ذات الصواري .

أما المسلمون فلم تختلف حالهم عن حال أهل بدر كثيرا فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو ويستنصر ربه في [العريش] يوم بدر حتى رأف لحاله أبو بكر فقال : (بعض مناشدتك ربك فإنه منجز لك ما وعدك) وهو ما كان عليه المسلمون وسط سفنهم في الليلة التي كان صبيحتها القتال .

لقد رأوا من عدد السفن والسلاح والمقاتلين ما ليس لهم به طاقة ، فاستغاثوا بمن بيده ملكوت السموات والأرض بمن إذا أراد شيئا قال له كن فيكون ، هذا الدعاء وهذا اللجوء وهذه الاستغاثة هو من يورث صاحبه ذاك اليقين الصادق الذي يجعله يستصغر كل شيء في سبيل مرضاة ربه ، وأنى لمن كان هذا يقينه وإيمانه أن يقف أمامه شيء .

فالدعاء هو السلاح الحقيقي للمسلم في المعركة وهو الترس الذي يتقي به ضربات عدوه وهو الدرع الذي تنكسر دونه السيوف والسهام ، لهذا جعله الله تعالى من أول ما يفعله المسلم قبل القتال {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم دعاءه عند اللقاء "اللهم أنت عضدي ونصيري بك أجول وبك أصول وبك أقاتل" ، وأثر عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أنه كان في قتال الروم يلهج ب{ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } يستحضر بها عون الله ونصره .

23 - فتح الداور.

لما كان الغرض من الجهاد نشر الدين الإسلامي والقضاء على أي قوة تحول بين الناس وبين هذا النور الذي أنزله الله رحمة للعالمين ، كان من أول ما أمر الله به عباده المجاهدين بعد التمكين أن يأمروا الناس بالمعروف وينهونهم عن المنكر .
وأهم ما يؤمر به من المعروف هو توحيد الله عز وجل بالعبادة وأعظم ما ينهى عنه من المنكر هو الشرك بالله وما يؤدي إليه قال تعالى { الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ } .

قال ابن الأثير رحمه الله :

فاستعمل ابن عامر عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس على سجستان فسار إليها فحصر زرنج فصالحه مرزبانها على ألفي ألف درهم وألفي وصيف.

وغلب عبد الرحمن على ما بين زرنج والكش من ناحية الهند وغلب من ناحية الرخج على ما بينه وبين الدوار.

فلما انتهى إلى بلد الدوار حصرهم في جبل الزوز ثم صالحهم ودخل على الزوز وهو صنم من ذهب عيناه ياقوتتان فقطع يده وأخذ الياقوتتين ثم قال للمرزبان: دونك الذهب والجوهر: وإنما أردت أن أعلمك أنه لا يضر ولا ينفع.

انتهى .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لقد دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وفيها ثلاثمائة وستون صنما فأخذ يسقطهم واحدا تلو الآخر وهو يقول "جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا" .
يبين لنا ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم في فتح مكة من تحطيم الأصنام قبل كل شيء ، قبل توزيع الغنائم أو الحكم في الأسرى أو النظر في المظالم يبين لنا المهمة الحقيقية للمجاهد في سبيل الله "بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده" وهو ما جرى عليه أصحابه من بعده صلاة الله وسلامه عليه .
فكان أول ما يبدؤون به إزالة مظاهر الشرك كالأصنام والأوثان والقبور المعبودة من دون الله ، فالناس وإن دخلوا في الدين في أول الأمر تظل نفوسهم متعلقة بشيء من الشرك الذي ألفوه ، فكان من اللازم كسر ذلك وتحطيمه وإزالته حتى يزول تعظيمه من قلوبهم وهذا ما أراده عبدالرحمن بن سمرة من كسره للصنم في هذه الغزوة .

24 - غزوة القسطنطينية.

قال ابن الأثير رحمه الله :

في هذه السنة وقيل: سنة خمسين سير معاوية جيشًا كثيفًا إلى بلاد الروم للغزاة وجعل عليهم سفيان بن عوف وأمر ابنه يزيد بالغزاة معهم فتثاقل واعتل فأمسك عنه أبوه فأصاب الناس في غزاتهم جوعٌ ومرض شديد فأنشأ يزيد يقول:
ما إن أبالي بما لاقت جموعهم بالفرقدونة من حمى ومن موم
إذا اتكأت على الأنماط مرتفقًا بدير مروان عندي أم كلثوم
وأم كلثوم امرأته وهي ابنة عبد الله بن عامر.

فبلغ معاوية شعره فأقسم عليه ليلحقن بسفيان في أرض الروم ليصيبه ما أصاب الناس فسار ومعه جمع كثير أضافهم إليه أبوه وكان في الجيش ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري وغيرهم وعبد العزيز ابن زرارة الكلابي فأوغلوا في بلاد الروم حتى بلغوا القسطنطينية فاقتتل المسلمون والروم في بعض الأيام واشتدت الحرب بينهم فلم يزل عبد العزيز يتعرض للشهادة فلم يقتل فأنشأ يقول:
قد عشت في الدهر أطوارًا على طرقٍ شتى فصادفت منها اللين والبشعا
كلًا بلوت فلا النعماء تبطرني ولا تجشّمت من لأوائها جزعا
لا يملأ الأمر صدري قبل موقعه ولا أضيق به ذرعًا إذا وقعا
ثم حمل على من يليه فقتل فيهم وانغمس بينهم فشجره الروم برماحهم حتى قتلوه رحمه الله.

فبلغ خبر قتله معاوية فقال لأبيه: والله هلك فتى العرب! فقال: ابني أو ابنك قال: ابنك فآجرك الله.

فقال:
فإن يكن الموت أودى به وأصبح مخ الكلابي زيرا
فكل فتىً شاربٌ كأسه فإما صغيرًا وإما كبيرا
ثم رجع يزيد والجيش إلى الشام وقد توفي أبو أيوب الأنصاري عند القسطنطينية فدفن بالقرب من سورها وكان قد شهد بدرًا وأحدًا والمشاهد كلها مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وشهد صفين مع علي وغيرها من حروبه.

انتهى .

نفير العلماء والأعيان

نلاحظ في هذه الغزوة أن الجيش المسلم ضم في كتائبه ثلة من أعلام الدولة الإسلامية آنذاك ، فابن عمر وابن عباس من علماء المسلمين وأبو أيوب الأنصاري من كبار الصحابة وابن الزبير من العباد المشهورين وعبدالعزيز بن زرارة من شجعانهم ، بالإضافة إلى أن الجيش ضم ابن الخليفة نفسه في إشارة مهمة إلى أن الأمة تقاتل بكل فئاتها لأن الجهاد لم يفرض على فئة دون غيرها .
فقعود العالم المسلم عن الجهاد مدعاة لقعود غيره من باب أولى ، لأن العامة لن يفهموا هذا القعود إلا على أنه أفضل من الخروج للقتال ، وستحدثهم أنفسهم أن لو كان الجهاد أفضل لخرج فلان من الناس .
ولذا حرص النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة من بعده على أن يكونوا في مقدمة الجيوش "والذي نفس محمد بيده لولا أن أشق على المؤمنين ما قعدت خلف سرية تغزو في سبيل الله"
وحتى لا يكونوا ممن قال الله فيهم { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ }

25 -فتح كمخ.

قال ابن الأثير رحمه الله :

وفيها غزا المسلمون حصن كمخ ومعهم عمير بن الحباب السلمي فصعد عمير السور ولم يزل يقاتل عليه وحده حتى كشف الروم فصعد المسلمون ففتحه بعمير وبذلك كان يفتخر ويفخر له بذلك.

انتهى .

الفخر

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : "إنما الأعمال بالنيات".

فالنية الصالحة شرط لقبول العمل ، وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة أو رياء أو ليرى مكانه ، فقال : "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله".
ففساد النية بالرياء وما شابهه محبط للعمل ، إلا أن هناك حالات يباح فيها التحدث عن الأعمال الصالحة أو القيام بها أمام أعين الناس إن أمن صاحبها من الرياء وقصد بذلك تشجيع غيره على العمل الصالح حتى يعم الخير .
ومن ذلك افتخار المقاتلين بما قاموا به في المعارك ليشجعوا إخوانهم ويقووا قلوبهم ، فمن أعظم ما يرفع الهمم في مصابرة الأعداء هي القصص البطولية لشجعان المسلمين وعملياتهم الفدائية ، ومن يتصفح الغزوات يجد ذلك واضحا في كلام الصحابة عن أنفسهم وعن غيرهم كقول أبي بكر عندما سئل عن يوم أحد فقال (ذلك يوم كله لطلحة) وقول علي بن أبي طالب لفاطمة يوم أحد (خذي السيف حميدا)
فيحق إذن لعمير بن الحباب السلمي أن يفتخر بما أعانه الله عليه من عمل بطولي أدى إلى هذا الفتح المبارك ، ويحق لنا كمسلمين أن نفتخر به وبأمثاله من أبطال المسلمين حتى نربي الأجيال القادمة على مثل هذه النماذج الفذة من شجعان المسلمين .

26 - فتح باغاية.

قال ابن الأثير رحمه الله :

قد ذكرنا عزل عقبة عن إفريقية وعوده إلى الشام فلما وصل إلى معاوية وعده بإعادته إلى إفريقية وتوفي معاوية وعقبة بالشام فاستعمله يزيد على إفريقية في هذه السنة وأرسله إليها فوصل إلى القيروان مجداً وقبض أبا المهاجر أميرها وأوثقه في الحديد وترك بالقيروان جنداً مع الذراري والأموال واستخلف بها زهير بن قيس البلوي وأحضر أولاده فقال له: إني قد بعت نفسي من الله عز وجل فلا أزال أجاهد من كفر بالله.

وأوصى بما يفعل بعده.

ثم سار في عسكر عظيم حتى دخل مدينة باغاية وقد اجتمع بها خلق كثير من الروم فقاتلوه قتالًا شديدًا وانهزموا عنه وقتل فيهم قتلًا ذريعًا وغنم منهم غنائم كثيرة ودخل المنهزمون المدينة وحاصرهم عقبة.

ثم كره المقام عليهم فسار إلى بلاد الزاب وهي بلاد واسعة فيها عدة مدن وقرى كثيرة فقصد مدينتها العظمى واسمها أربة فامتنع بها من هناك من الروم والنصارى وهرب بعضهم إلى الجبال فاقتتل المسلمون ومن بالمدينة من النصارى عدة دفعات ثم انهزم النصارى وقتل كثير من فرسانهم ورحل إلى تاهرت.
انتهى .

وقف المجاهد نفسه لله تعالى

من الطبيعي أن نجد من يجعل بئرا وقفا لله تعالى أو يجعل كتبه وقفا يستفيد منها طلبة العلم أو غيرها من أنواع الوقف الخيري ، ولكن أن نجد من يجعل من نفسه وقفا للجهاد في سبيل الله فهذه من أنواع الوقف النادر والذي لم يذكر في كتب الفقه ! .
قال مجاهد : نزل قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ} إلى قوله : . . . { صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ } في نفر من الأنصار منهم عبدالله بن رواحة ، قالوا في مجلس (لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملنا به حتى نموت) ، فلما نزل فيهم قال ابن رواحة (لا أزال حبيسا في سبيل الله حتى أموت) فقتل شهيدا .
وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى وبين أنه من أفضل الناس معيشة فقال "من خير معاش الناس لهم رجل آخذ بعنان فرسه كلما سمع هيعة أو فزعة طار على متنه" قال الشيخ عبدالله عزام رحمه الله : (آخذ بعنان فرسه " كناية عن الاستمرار في الجهاد).
وهو ما نواه عقبة بن نافع في قوله لأبنائه (إني قد بعت نفسي لله عز وجل فلا أزال أجاهد من كفر بالله) ، ليكون من أحق الناس بالصفقة الرابحة { إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ } .

27 - يوم مقتل عقبة.

قال ابن الأثير رحمه الله :

هذا كسيلة بن كمرم البربري كان قد أسلم لما ولي أبو المهاجر إفريقية وحسن إسلامه وهو من أكابر البربر وأبعدهم صوتًا وصحب أبا المهاجر فلما ولي عقبة عرفه أبو المهاجر محل كسيلة وأمره بحفظه فلم يقبل واستخف به وأتى عقبة بغنم فأمر كسيلة بذبحها وسلخها مع السلاخين فقال كسيلة: هؤلاء فتياني وغلماني يكفونني المؤونة.فشتمه وأمره بسلخها ففعل فقبح أبو المهاجر هذا عند عقبة فلم يرجع فقال له: أوثق الرجل فإني أخاف عليك منه! فتهاون به عقبة.

فأضمر كسيلة الغدر فلما كان الآن ورأى الروم قلة من مع عقبة أرسلوا إلى كسيلة وأعلموه حاله وكان في عسكر عقبة مضمرًا للغدر وقد أعلم الروم ذلك وأطمعهم.

فلما راسلوه أظهر ما كان يضمره وجمع أهله وبني عمه وقصد عقبة فقال أبو المهاجر: عاجله قبل أن يقوى جمعه.

وكان أبو المهاجر موثقًا في الحديد مع عقبة.

فزحف عقبة إلى كسيلة فتنحى كسيلة عن طريقه ليكثر جمعه فلما رأى أبو المهاجر ذلك تمثل بقول أبي محجن الثقفي:

كفى حزنًا أن تمرغ الخيل بالقنا وأترك مشدودًا علي وثاقيا
إذا قمت عناني الحديد وأغلقت مصارع من دوني تصم المناديا
فبلغ عقبة ذلك فأطلقه فقال له: الحق بالمسلمين وقم بأمرهم وأنا أغتنم الشهادة.

فلم يفعل وقال: وأنا أيضًا أريد الشهادة.
فكسر عقبة والمسلمون أجفان سيوفهم وتقدموا إلى البربر وقاتلوهم فقتل المسلمون جميعهم لم يفلت منهم أحد

انتهى .

تأليف القلوب

لم يأت الإسلام ليلغي ما تعارف عليه الناس وارتضوه من زعامات ووجاهة إن أسلمت هذه الزعامات ودخلت في الدين ، فالجهاد لم يفرض لتسود قومية معينة على غيرها وإنما فرض ليسود الإسلام نفسه .

ولهذا المعنى نجد أن من السياسة الشرعية التي سنها النبي صلى الله عليه وسلم إقرار الملوك على بلدانهم إن أسلموا وتأليف قلوب وجهاء الناس والمتبوعين منهم حتى لا يكونوا فتنة لغيرهم أو عقبة في طريق الدعوة .
فكسب هذه الناس وإرضائها ولو بشيء من الدنيا مطلب شرعي لما فيه من المصالح العظيمة في تأمين الأراضي المفتوحة وقطع الطريق على الأعداء من أن يجدوا من بيننا من يمد لهم يد العون ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يجعل لبعض الناس من الوجاهة ما يسكن به طبائعهم وهو ما أشار به العباس رضي الله عنه يوم فتح مكة فقال (يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر ، فاجعل له شيئا) فقال النبي صلى الله عليه وسلم "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن" .
أما إهانة [كسيلة] من قبل [عقبة بن نافع] فقد كانت مقدمة طبيعية للخروج على عقبة وقتله .
فكسيلة من أكابر البربر وإهانته إهانة لقومه ولذا يجب على المجاهد أن يتعرف على طبائع الناس في أراضي الجهاد حتى يكون أقدر على التعامل معهم ومن ثم كسب قلوبهم .
فمعركة كسب القلوب هذه مهمة وضرورية لكسب الحرب في النهاية .

28 - غزوة رتبيل.

قال ابن الأثير رحمه الله :

لما ولى الحجاج عبيد الله بن أبي بكرة سجستان وذلك سنة ثمان وسبعين مكث سنة لم يغز وكان رتبيل مصالحًا وكان يؤدي الخراج وربما امتنع منه.

فبعث الحجاج إلى عبيد الله بن أبي بكرة يأمره بمناجزته وأن لا يرجع حتى يستبيح بلاده ويهدم قلاعه ويقيد رجاله.
فسار عبيد الله في أهل البصرة وأهل الكوفة وكان على أهل الكوفة شريح بن هانئ وكان من أصحاب علي ومضى عبيد الله حتى دخل بلاد رتبيل فأصاب من الغنائم ما شاء وهدم حصونًا وغلب على أرض من أراضيهم وأصحاب رتبيل من الترك يتركون لهم أرضًا بعد أرض حتى أمعنوا في بلادهم ودنوا من مدينتهم وكانوا منها على ثمانية عشر فرسخًا فأخذوا على المسلمين العقاب والشعاب فسقط في أيدي المسلمين فظنوا أن قد هلكوا فصالحهم عبيد

الله على سبعمائة ألف درهم يوصلها إلى رتبيل ليمكن المسلمين من الخروج من أرضه فلقيه شريح فقال له: إنكم لا تصالحون على شيء إلا حسبه السلطان من أعطياتكم وقد بلغت من العمر طويلًا وقد كنت أطلب الشهادة منذ زمان وإن فاتتني اليوم الشهادة ما أدركها حتى أموت.ثم قال شريح: يا أهل الإسلام تعاونوا على عدوكم.

فقال له ابن أبي بكرة: إنك شيخ قد خرفت.

فقال له شريح: إنما حسبك أن يقال بستان عبيد الله وحمام عبيد الله.

يا أهل الإسلام من أراد منكم الشهادة فإلي.

فاتبعه ناس من المتطوعة غير كثير وفرسان الناس وأهل الحفاظ قاتلوا حتى أصيبوا إلا قليلًا وجعل شريح يرتجز ويقول:
أصبحت ذا بثٍ أقاسي الكبرا قد عشت بين المشركين أعصرا
ثمة أدركنا النبي المنذرا وبعده صديقه وعمرا
ويوم مهران ويوم تسترا والجمع في صفينهم والنهرا
وباجميراتٍ مع المشقرا هيهات ما أطول هذا عمرا
وقاتل حتى قتل في ناس من أصحابه ونجا منهم .

انتهى .

الغزو كل عام

قال القرطبي (فرض على الإمام إغزاء طائفة إلى العدو كل سنة مرة ، يخرج معهم بنفسه أو يخرج من يثق به يدعوهم إلى الإسلام ويزعهم ويكف أذاهم ويظهر دين الله حتى يدخلوا في الإسلام أو يعطوا الجزية) .
ولذا نجد أن الحجاج لم يبعث لرتبيل من يذكره بموعد الجزية لأنه علم أن رتبيل اعتبر عدم قيام المسلمين بالجهاد ولأكثر من عام دليل كبير على ضعفهم فلم يدفع لهم ، فكان لزاما على الحجاج أن يسير له جيشا يذكره بقوة الدولة الأموية وبروح الجهاد عند المسلمين .

فالجهاد صوت الأمة الذي يدل على يقظتها فلا تطمع نفس لص فيها ، أما ترك الجهاد فهو الداعي القوي للاستهانة بها والتجرؤ عليها كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم "يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن . فقال قائل : يا رسول الله وما الوهن ؟ فقال : حب الدنيا وكراهية الموت" .

29 - غزو بلاد ما وراء النهر

قال ابن الأثير رحمه الله :

في هذه السنة قطع المهلب نهر بلخ ونزل على كش وكان على مقدمته أبو الأدهم زياد بن عمرو الزماني في ثلاثة آلاف وهو في خمسة آلاف وكان أبو الأدهم يغني غناء ألفين في البأس والتدبير والنصيحة فأتى المهلب وهو نازل على كش ابن عم ملك الختل فدعاه إلى غزو الختل فوجه معه ابنه يزيد وكان اسم ملك الختل الشبل فنزل يزيد ونزل ابن عم الملك ناحية فبيته الشبل وأخذه فقتله وحصر يزيد قلعة الشبل فصالحوه على فدية حملت إليه ورجع يزيد عنهم ووجه المهلب ابنه حبيبًا فوافى صاحب بخارى في أربعين ألفًا فنزل جماعة من العدو قرية فسار إليهم حبيب في أربعة آلاف فقتلهم وأحرق القرية فسميت المحترقة ورجع حبيب إلى أبيه.

انتهى .

تقديم الشجعان وأهل التدبير

تهتم الجيوش قديما بإبراز الشجعان وأهل الرأي والتدبير في المقدمة حتى يكونوا قدوة لبقية الجيش في الشجاعة والإقدام وحتى يستفاد من حسن رأيهم في إدارة المعركة بالطريقة الصحيحة ، ولهذا عد الواحد منهم بالألف والألفين وأكثر لما له من تأثير قوي على اتجاه المعركة .
وهو ما دعا المهلب بن أبي صفرة لوضع [أبو الأدهم] على مقدمة الجيش ،وهو ما دعا أبو بكر إلى أن يقول (والله لأشغلن النصارى عن وساوس الشيطان بخالد بن الوليد) ، وهو ما دعا عمر بن الخطاب ليقول (لأضربن أرطبون الروم بأرطبون العرب) .
أما في العصر الحديث فلم يتغير الوضع كثيرا ، فما زالت الجيوش تعتمد على [الفرق الخاصة] لعمليات الاقتحام أو العمليات خلف خطوط العدو وغيرها من العمليات التي تعتمد على الشجاعة والإقدام وحسن التصرف ، لأن نجاح هذه الفرق في مهمتها يؤدي إلى رفع الروح المعنوية للجيش ويكون بمثابة المفتاح الأول للنصر في المعركة .

30 - غزو الديلم [قزوين].

قال ابن الأثير رحمه الله :

:كانت قزوين ثغر المسلمين من ناحية ديلم فكانت العساكر لا تبرح مرابطة بها يتحارسون ليلًا ونهارًا فلما كان هذه السنة كان في جماعة من رابط بها محمد بن أبي سبرة الجعفي وكان فارسًا شجاعًا عظيم الغناء في حروبه فلما قدم قزوين رأى الناس يتحارسون فلا ينامون الليل فقال لهم: أتخافون أن يدخل عليكم العدو مدينتكم قالوا: نعم.

قال: لقد أنصفوكم إن فعلوا افتحوا الأبواب ولا بأس عليكم ففتحوها.

وبلغ ذلك الديلم فساروا إليهم وبيتوهم وهجموا إلى البلد وتصايح الناس فقال ابن أبي سبرة:

أغلقوا أبواب المدينة علينا وعليهم فقد أنصفونا وقاتلوهم.

فأغلقوا الأبواب وقاتلوهم وأبلى ابن أبي سبرة بلاءً عظيمًا وظفر بهم المسلمون فلم يفلت من الديلم أحد واشتهر اسمه بذلك ولم يعد الديلم بعدها يقدمون على مفارقة أرضهم.

فصار محمد فارس ذلك الثغر المشار إليه وكان يدمن شرب الخمر وبقي كذلك إلى أيام عمر بن عبد العزيز فأمر بتسييره إلى زرارة وهي دار الفساق بالكوفة فسير إليها فأغارت الديلم ونالت من المسلمين وظهر الخلل بعده فكتبوا إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن أمير الكوفة يسألونه أن يرد عليهم ابن أبي سبرة فكتب بذلك إلى عمر فأذن له في عوده إلى الثغر فعاد إليه وحماه.

انتهى .

الاستدراج

الاستدراج فن من فنون القتال المهمة والتي يعتمدها المخططون للحروب قديما وحديثا وهو فن لا يجيده إلا القلة من دهاة الحروب الذين تمرسوا ذلك .
والاستدراج عبارة عن حيلة عسكرية لإخراج العدو إلى المكان المناسب للقتال لنا أو في الوقت غير المناسب له ، وفي كلا الحالتين يكون فاقدا لجهوزيته الكاملة للمعركة ، كما فعل محمد بن أبي سبرة في استدراجه للديلم حتى دخلوا الحصن ثم أطبق عليهم .

فعلى القائد المسلم أن يغذي حسه العسكري حتى يميز الأحداث من حوله فيعرف الطبيعي من المصنوع وقد يساعده في ذلك دراسة تاريخ العدو العسكري أو أساليب قتاله فتتشكل عنده في النهاية [فراسة عسكرية] في معرفة حقيقة تحركات العدو إن كانت طبيعية أو مفتعلة بقصد الاستدراج ! .

31 - فتح قلعة نيزك.

قال ابن الأثير رحمه الله :

في هذه السنة فتح يزيد بن المهلب قلعة نيزك وكان يزيد قد وضع على نيزك العيون فلما بلغه خروج نيزك عنها سار إليها فحاصرها فملكها وما فيها من الأموال والذخائر وكانت من أحصن القلاع وأمنعها وكان نيزك إذا رآها سجد لها تعظيمًا لها وقال كعب بم معدان الأشقري يذكرها:
وباذغيس التي من حل ذروتها عز الملوك فإن شا جار أو ظلما
منيعة لم يكدها قبله ملك إلا إذا واجهت جيشًا له وجما
تخال نيرانها من بعد منظرها بعض النجوم إذا ما ليلها عتما

نفى نيزكًا عن باذغيس ونيزك بمنزلةٍ أعيا الملوك اغتصابها
محلقةٍ دون السماء كأنها غمامة صيفٍ زال عنها سحابها
ولا تبلغ الأروى شماريخها العلى ولا الطير إلا نسرها وعقابها
وما خوفت بالذئب ولدان أهلها ولا نبحت إلا النجوم كلابها
في أبيات غيرها.

انتهى .

التجسس

تعتمد الجيوش ومنذ القدم في رسم خططها العسكرية على المعلومات الواردة من [أجهزة المخابرات] لديها ، فكم من عمليات عسكرية ألغيت بسبب نقص المعلومات اللازمة للقيام بها كعدد العدو ومعداته ونظام توزيع الحراسة لديه ونقاط ضعفه أو الأماكن الحساسة في الدولة وهكذا . . .
قديما كان الاعتماد في الحصول على مثل هذه المعلومات القيمة يتم عن طريق [الجاسوس] كما فعل يزيد بن المهلب في هذه الغزوة .
وكما هو واضح في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم في بعثه للعيون قبل أي تحرك عسكري ، أما الآن فقد دخلت أساليب جديدة على الخط مثل أجهزة التصنت على اتصالات العدو وفك الشيفرة في ذلك أو عن طريق الأقمار الصناعية والصور الملتقطة لتحرك الجيوش وغيرها . . .
وبما أن أعداءنا اليوم يملكون التفوق التقني في هذا المجال فيجب أن نعتمد على الطرق التي تقطع عليهم الاستفادة من هذا التفوق عبر التشويش عليهم وإرسال إشارات وهمية أو معلومات مغلوطة بين فترة وأخرى تكون كفيلة في إبقائهم في حيرة من أمرهم .

32 - أسرى باذغيس.

قال ابن الأثير رحمه الله :

ولما صالح قتيبة ملك شومان كتب إلى نيزك طرخان صاحب باذغيس في إطلاق من عنده من أسراء المسلمين وكتب إليه يتهدده فخافه نيزك فأطلق الأسرى وبعث بهم إليه وكتب إليه قتيبة مع

سليم الناصح مولى عبيد الله بن أبي بكرة يدعوه إلى الصلح وإلى أن يؤمنه وكتب إليه بحلف بالله لئن لم يقدم عليه ليغزونه ثم ليطلبنه حيث كان حتى يظفر به أو يموت دونه.

فقدم سليم بالكتاب فقال له نيزك وكان يستنصحه: يا سليم ما أظن عند صاحبك خيرًا كتب إلي كتابًا لا يكتب إلى مثلي.

فقال له سليم: إنه رجل شديد في سلطانه سهل إذا سوهل صعب إذا عوسر فلا يمنعك منه غلظة كتابه إليك فأحسن حالك عنده.

فقام نيزك مع سليم فصالحه أهل باذعيس على أن لا يدخلها قتيبة.

انتهى .

التهديد

اتفق الفقهاء على وجوب استنقاذ الأسرى المسلمين من أيدي العدو وبذل الوسع في ذلك بإرسال الجيوش أو فدائهم بالمال أو كما فعل النبي صلى الله عليه الصلاة والسلام في قصة خطف [العقيلي] وفدائه برجلين من الأسرى المسلمين .
فكل أمر يتوصل به إلى فكاك الأسرى فهو واجب ومنها ما فعله قتيبة بن مسلم عندما قام بتهديد [نيزك] وإجباره على إطلاق من عنده من أسرى المسلمين .
ففي عالم الحروب يستطيع من عنده القوة والسطوة تحقيق أهدافه ورغباته عن طريق كلمات قليلة فقط .
فأسلوب [التهديد] له أثر قوي في النفوس وقد أجاد التتار استخدام هذا الأسلوب في فتح بعض المدن أثناء اجتياحهم للعالم الإسلامي ، فكانت كلماتهم المرعبة كفيلة باستسلام من أمامهم أو فرارهم من المدن قبل أن يصلوا إليهم .

33 - غزوة [بيكند].

قال ابن الأثير رحمه الله :

ولما صالح قتيبة نيزك أقام إلى وقت الغزو فغزا بيكند سنة سبع وثمانين وهي أدنى مدائن بخاري إلى النهر فلما نزل بهم استنصروا السعد واستمدوا من حولهم فأتوهم في جمع كثير وأخذوا الطرق على قتيبة فلم ينفذ لقتيبة رسول ولم يصل إليه خبر شهرين وأبطأ خبره على الحجاج فأشفق على الجند فأمر الناس بالدعاء لهم في المساجد وهم يقتلون كل يوم.

وكان لقتيبة عين من العجم يقال له تندر فأعطاه أهل بخارى مالًا ليرد عنهم قتيبة فأتاه فقال له سرًا من الناس: إن الحجاج قد عزل وقد أتى عامل إلى خراسان فلو رجعت بالناس كان أصلح.

فأمر به فقتل خوفًا من أن يظهر الخبر فيهلك الناس ثم أمر أصحابه بالجد في القتال فقاتلهم قتالًا شديدًا فانهزم الكفار يريدون المدينة وتبعهم المسلمون قتلًا وأسرًا كيف شاؤوا وتحصن من دخل المدينة بها فوضع قتيبة الفعلة ليهدم سورها فسألوه الصلح وقتلوا العامل ومن معه فرجع قتيبة فنقب سورهم فسقط فسألوه الصلح فلم يقبل ودخلها عنوةً وقتل من كان بها من المقاتلة.

وكان فيمن أخذوا في المدينة رجل أعور هو الذي استجاش الترك على المسلمين فقال لقتيبة: أنا أفدي نفسي بخمسة آلاف حريرة قيمتها ألف ألف.

فاستشار قتيبة الناس فقالوا: هذه زيادة في الغنائم وما عسى أن يبلغ كيد هذا! قال: لا والله لا يروع بك مسلم أبدًا! فأمر به فقتل.

وأصابوا فيها من الغنائم والسلاح وآنية الذهب والفضة ما لا يحصى ولا أصابوا بخراسان مثله فقوي المسلمون وولي قسم الغنائم عبد الله بن وألان العدوي أحد بني نلكان وكان قتيبة يسميه الأمين ابن الأمين فإنه كان أمينًا.

انتهى .

قتل أهل الرأي والمكيدة

قال النبي صلى الله عليه وسلم "اقتلوا شيوخ المشركين واستبقوا شرخهم" وقيل أن العلة في قتل شيوخ المشركين هنا لما لهم من رأي وخبرة في الحروب ولذا أقر النبي صلى الله عليه وسلم قتل دريد بن الصمة يوم حنين وكان شيخا كبيرا في السن خرجت به ثقيف لما له من رأي ومكيدة .
وهنا فضل قتيبة بن مسلم قتل الرجل التركي على أخذ المال الذي بذله لفدائه ، لأنه يشكل خطرا حقيقيا على المسلمين .
فهناك صنف معين من أعدائنا لا يجب التهاون معه ، ولن نبقى في مأمن منه إلا عند قتله لأنه لن ينفك عن تأليب الأعداء علينا والكيد بنا ، ومن كان هذا دأبه وعقله فمن الخطأ أن يطلق سراحه أو يكف عن قتله .
والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين .

34 - فتح [طوانة].

قال ابن الأثير رحمه الله :

غزا مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد بن عبد الملك بلد الروم وكان الوليد قد كتب إلى صاحب أرمينية يأمره أن يكتب إلى ملك الروم يعرفه أن الخزر وغيرهم من ملوك جبال أرمينية قد اجتمعوا على قصد بلاده ففعل ذلك وقطع الوليد البعث على أهل الشام إلى أرمينية وأكثر وأعظم جهازه وساروا نحو الجزيرة ثم عطفوا منها إلى بلد الروم فاقتتلوا هم والروم فانهزم الروم ثم رجعوا فانهزم المسلمون فبقي العباس في نفر منهم ابن محيريز الجمحي فقال العباس: أين أهل القرآن الذين يريدون الجنة فقال ابن محيريز: نادهم يأتوك.

فنادى العباس: يا أهل القرآن! فأقبلوا جميعًا فهزم الله الروم حتى دخلوا طوانة وحصرهم المسلمون وفتحوها في جمادى الأولى.

انتهى .

أهل القرآن

هناك نداءات معينة تثير الحماسة وتذكر المعني بها بما يجب عليه تجاه ذلك ، ولنأخذ مثالا بسيطا على ذلك : فلو أن هناك ابن لملك وقام بتصرفات غير لائقة ، لقال له من حوله (انتبه ! أنت ابن الملك ولا ينبغي لك ذلك) فيكفيه فقط تذكيره حتى يعود إلى اللباقة والأدب وحسن التصرف .
وكذلك حامل القرآن يلزمه الكثير تجاه ما وهبه الله تعالى ، كما قال سالم مولى حذيفة يوم اليمامة عندما قيل له (نخشى أن نؤتى من قبلك يا سالم ، فقال : بئس حامل القرآن أنا إن أوتيتم من قبلي) .

فأهل القرآن يقاتلون عن عقيدة ، فإن رأوا كثرة من عدوهم قالوا {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} وإن هدد الأعداء قالوا {قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا} وإن اشتد عليهم الحصار والكرب قالوا {وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} وإن كثرت فيهم الجراح قالوا {إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ} وإن قتلوا قالوا: (فزت ورب الكعبة). فهم يقاتلون ولكن عن عقيدة راسخة ، وهذا هو الداعي الذي دعا [العباس] أن يخصهم بالنداء من دون الجيش (أين أهل القران) .

35 - فتح بلاد السند.

قال ابن الأثير رحمه الله :

في هذه السنة قتل محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي يجتمع هو والحجاج في الحكم ذاهر بن صعصعة ملك السند وملك بلاده وكان الحجاج بن يوسف استعمله على ذلك الثغر وسير معه ستة آلاف مقاتل وجهزه بكل ما يحتاج إليه حتى المسال والإبر والخيوط فسار محمد إلى مكران فأقام بها أيامًا ثم أتى قنزبور ففتحها ثم سار إلى ارمائيل ففتحها ثم سار إلى الديبل فقدمها يوم جمعة ووافته سفن كان حمل فيها الرجال والسلاح والأداة فخندق حين نزل الديبل بد عظيم عليه دقل عظيم وعلى الدقل راية حمراء إذا هبت الريح أطافت بالمدينة وكانت تدور والبد صنم في بناء عظيم تحت منارة عظيمة مرتفعة وفي رأس المنارة هذا الدقل وكل ما يعبد فهو عندهم بد.

فحصرها وطال حصارها فرمى الدقل بحجر العروس فكسره فتطير الكفار بذلك ثم إن محمد أتى وناهضهم وقد خرجوا إليه فهزمهم حتى ردهم إلى البلد وأمر بالسلاليم فنصبت وصعد عليها الرجال وكان أولهم صعودًا رجل من مراد من أهل الكوفة ففتحت عنوة وقتل فيها ثلاثة أيام وهرب عامل ذاهر عنها وأنزلها محمد أربعة آلاف من المسلمين وبنى جامعها وسار عنها إلى البيرون وكان أهلها بعثوا إلى الحجاج فصالحوه فلقوا محمدًا بالميرة وأدخلوه مدينتهم وسار عنها وجعل لا يمر بمدينة إلا فتحها حتى عبر نهرًا دون مهران فأتاه أهل سربيدس فصالحوه ووظف عليهم الخراج وسار عنهم إلى سهبان ففتحها ثم سار إلى نهر مهران فنزل في وسطه.

وبلغ خبره ذاهر فاستعد لمحاربته وبعث جيشًا إلى سدوستان فطلب أهلها الأمان والصلح فآمنهم ووظف عليهم الخراج ثم عبر محمد مهران مما يلي بلاد راسل الملك على جسر عقده وذاهر مستخف به فلقيه محمد والمسلمون وهو على فيل وحوله الفيلة ومعه التكاكرة فاقتتلوا قتالًا شديدًا لم يسمع بمثله وترجل ذاهر فقتل عند المساء ثم انهزم الكفار وقتلهم المسلمون كيف شاؤا . انتهى .

تجهيز الجيش

قال الله تعالى {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ }
ويدخل في صميم الإعداد المطلوب تجهيز ما يلزم الجيش من معدات وغذاء وذخيرة وغيره . . .
لأن التجهيز الجيد مقدمة مهمة للثبات على أرض المعركة .
فكم من عمليات عسكرية ألغيت بسبب نقص معدات معينة لعبور جسر أو إصلاح أسلحة أو غيره . . .
ولذا ينصح بعمل قائمة للاحتياجات اللازمة للعملية وتأمينها قبل الانطلاق .
والتجهيز الكامل الذي قام به الحجاج هنا لجيش محمد بن القاسم ساعده كثيرا في الولوغ في بلاد السند ، والثبات عليها ومن ثم فتحها بفضل الله وعونه .
فالأخذ بالأسباب مع حسن التوكل على الله تعالى خطوة أساسية لنيل كل مطلوب .

36 - غزوة [الملتان].

قال ابن الأثير رحمه الله :

وسار - أي : محمد بن القاسم - يريد الرور وبغرور فلقيه أهل ساوندرى فطلبوا الأمان فأعطاهم إياه واشترط عليهم ضيافة المسلمين ثم أسلم أهلها بعد ذلك.

ثم تقدم إلى بسمد وصالح أهلها ووصل إلى الرور وهي من مدائن السند على جبل فحصرهم شهورًا فصالحوه وسار إلى السكة ففتحها ثم قطع نهر بياس إلى الملتان فقاتله أهلها وانهزموا فحصرهم محمد فجاءه إنسان ودله على قطع الماء الذي يدخل المدينة فقطعه فعطشوا فألقوا بأيديهم ونزلوا على حكمه فقتل المقاتلة وسبى الذرية وسدنة البد وهم ستة آلاف وأصابوا ذهبًا كثيرًا فجمع في بيت طوله عشرة أذرع وعرضه ثمانية أذرع يلقى إليه من كوة في وسطه فسميت الملتان فرج بيت

الذهب والفرج الثغر وكان بد الملتان تهدى إليه الأموال ويحج من البلاد ويحلقون رؤوسهم ولحاهم عنده ويزعمون أن صنمه هو أيوب النبي صلى الله عليه وسلم.

انتهى .

إتلاف مال العدو

اتفق الفقهاء على جواز استخدام كل ما يمكن الجيش المسلم من كسب المعركة إلا أن يكون ورد فيه نهي بعينه كقتل النساء والأطفال وما شابه ، فالجهاد كعبادة ورد فيها من الرخص ما لم يرد في غيرها من العبادات .
ومن ذلك أن الله تعالى أذن في إتلاف مال العدو إن رجونا مصلحة وراء ذلك {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ} .
وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ردم آبار بدر قبل المعركة حتى لا يمكن كفار قريش من الماء ، وهو ما فعله محمد بن القاسم في هذه الغزوة فكان سببا في فتح الحصن ، هذا على مستوى أرض المعركة أما على مستوى الاستنزاف العام فقد منع الصحابي ثمامة بن أثال _وهو من زعماء نجد_ الميرة عن قريش فضيق عليهم حتى خاطبوا النبي صلى الله عليه وسلم يستعطفونه في ذلك .
فالحصار الاقتصادي سلاح فعال لمن أحسن استخدامه ، وأعداؤنا في هذه الأيام يعتمدون بشكل كبير على الحصار الاقتصادي في تركيع الدول لهم أو إضعافها قبل غزوها .

37 - غزو [طنجة] عام تسعة وثمانين للهجرة.

قال ابن الأثير رحمه الله :

فوصل موسى إلى إفريقية وبها صالح الذي استخلفه حسان على إفريقية وكان البربر قد طمعوا في البلاد بعد مسير حسان فلما وصل موسى عزل صالحًا وبلغه أن بأطراف البلاد قومًا خارجين عن الطاعة فوجه إليه ابنه عبد الله فقاتلهم فظفر بهم وسبى منهم ألف رأس وسيره في البحر إلى جزيرة ميورقة فنهبها وغنم منها مالا يحصى وعاد سالمًا فوجه ابنه هارون إلى طائفة أخرى فظفر بهم وسبى منهم نحو ذلك وتوجه هو بنفسه إلى طائفة أخرى فغنم نحو ذلك فبلغ الخمس ستين ألف رأس من السبي ولم يذكر أحد أنه سمع بسبي أعظم من هذا.

ثم إن إفريقية قحطت واشتد بها الغلاء فاستسقى بالناس وخطبهم ولم يذكر الوليد وقيل له في ذلك فقال: هذا مقام لا يدعى فيه لأحد ولا يذكر إلا الله عز وجل فسقى الناس ورخصت الأسعار ثم خرج غازيًا إلى طنجة يريد من بقي من البربر وقد هربوا خوفًا منه فتبعهم وقتلهم قتلًا ذريعًا حتى بلغ

السوس الأدنى لا يدافعه أحد فاستأمن البربر إليه وأطاعوه واستعمل على طنجة مولاه طارق بن زياد ويقال: إنه صدفي.

وجعل معه جيشًا كثيفًا جلهم من البربر وجعل معهم من يعلمهم القرآن والفرائض وعاد إلى إفريقية.

انتهى .

التفقه بالدين في ظل الجهاد

إن أفضل بيئة لدراسة فن معين هي البيئة التي تكون قريبة من موضوع الدراسة ، فالدراسة المبنية على التجربة العملية أرسخ في الأذهان من الدراسات النظرية المجردة ، وقد يقول قائل لو أن موسى بن نصير جعل تعليم أفراد جيشه من البربر شرائع الإسلام في مكان هادئ وآمن لكان أفضل حتى يستوعبوا النصوص والأحكام بشكل جيد .
ولكن الحقيقة أن موسى بن نصير قد وفر لحديثي الإسلام في جيشه المناخ والبيئة التي تعلم الصحابة من خلالها القرآن والأحكام .

فآيات الجهاد ونصوصه لا يشعر بحقيقة معانيها إلا من عاش في أعماقها ، فترسخ تلك المعاني في ذهنه وقلبه كرسوخ الجبال الراسيات .
وقد أثبتت الدراسات أن التربية من خلال التجارب هي الأفضل وهو ما نجده في قوله تعالى {فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ} قال سيد قطب رحمه الله (إن هذا الدين منهج حركي لا يفقهه إلا من يتحرك به ، فالذين يخرجون للجهاد به هم أولى الناس بفقهه بما يتكشف لهم من أسراره ومعانيه وبما ينجلي لهم من آياته وتطبيقاته العملية أثناء الحركة به).

38 - فتح بخارى.

قال ابن الأثير رحمه الله :

قد ذكرنا ورود كتاب الحجاج إلى قتيبة بأمره بالتوبة عن انصرافه عن وردان خذاه ملك بخارى ويعرفه الموضع الذي يأتي بلده منه
في هذه السنة أتى قتيبة كتاب الحجاج يأمره بقصد وردان خذاه فعبر النهر من زم فلقي الصغد وأهل كش ونسف في طريق المفازة فقاتلوه فظفر بهم ومضى إلى بخارى فنزل خرقانة السفلى عن يمين وردان فلقوه في جمع كثير فقاتلهم يومين وليلتين فظفر بهم وغزا وردان خذاه ملك بخارى فلم يظفر بشيء فرجع إلى مرو وكتب إلى الحجاج بخبره فكتب إليه الحجاج أن صورها لي فبعث إليه بصورتها فكتب إليه الحجاج أن تب إلى الله جل ثناؤه مما كان منك وأتها من مكان كذا وكذا وكتب إليه: أن كس بكش وانسف نسف ورد وردان وإياك والتحويط ودعنب من ثنيات الطريق .
فلما ورد الكتاب على قتيبة خرج غازيًا إلى بخارى سنة تسعين فاستجاش وردان خذاه بالصغد والترك من حوله فأتوه وقد سبق إليها قتيبة فحصرها فلما جاءتهم أمدادهم خرجوا إلى المسلمين يقاتلونهم فقالت الأزد: اجعلونا ناحية وخلوا بيننا وبين قتلاهم.

فقال قتيبة: تقدموا وقاتلوهم قتالًا شديدًا ثم إن الأزد انهزموا حتى دخلوا العسكر وركبهم المشركون فحطموهم حتى أدخلوهم عسكرهم وجازوه حتى ضرب النساء وجوه الخيل وبكين فكروا راجعين فانطوت مجنبتا المسلمين على الترك فقاتلوهم حتى ردوهم إلى مواقفهم فوقف الترك على نشز فقال قتيبة: من يزيلهم عن هذا الموضع فلم يقدم عليهم أحد من العرب فأتى بني تميم فقال لهم: يوم كأيامكم فأخذ وكيع اللواء وقال: يا بني تميم أتسلمونني اليوم قالوا: لا يا أبا مطرف.

وكان هريم بن أبي طحمة على خيل تميم ووكيع رأسهم فقال وكيع: يا هريم قدم خيلك.

ودفع إليه الراية فتقدم هريم وتقدم وكيع في الرجالة فانتهى هريم إلى نهر بينهم وبين الترك فوقف فقال وكيع: تقدم يا هريم فنظر هريم نظر الجمل الهائج الصائل وقال: أأقحم الخيل هذا النهر فإن انكشفت كان هلاكها يا أحمق.

فقال وكيع: يا بن اللخناء ترد أمير! فحذفه بعمود كان معه فعبر هريم في الخيل وانتهى وكيع إلى النهر فعمل عليه جسرًا من خشب وقال لأصحابه: من وطن نفسه على الموت فليعبر وإلا فليثبت مكانه.

فما عبر معه إلا ثمانمائة رجل فلما عبر بهم ودنا من العدو قال لهريم: غني مطاعنهم فاشغلهم عنا بالخيل فحمل عليهم حتى خالطهم وحمل هريم في الخيل فطاعنوهم ولم يزالوا يقاتلونهم حتى حدروهم من التل ونادى قتيبة: ما ترون العدو منهزمين فلم يعبر أحد النهر حتى انهزموا وعبر الناس ونادى قتيبة: من أتى برأس فله مائة فأتي برؤوس كثيرة فجاء يومئذٍ أحد عشر رجلًا من بني قريع كل رجل برأس فيقال له: من أنت فيقول: قريعي.

فجاء رجل من الأزد برأس فيل له: من أنت فقال: قريعي فعرفه جهم بن زحر فقال: كذب والله إنه أزدي.

فقال له قتيبة: ما دعاك إلى هذا فقال: رأيت كل من جاء يقول قريعي فظننت أنه ينبغي لكل من جاء برأس يقوله. فضحك قتيبة.

انتهى .

الاستشارة العسكرية

تواجه بعض الجيوش مشكلات تكتيكية تحتاج إلى خبرة خاصة في طبيعة الأرض أو الجغرافيا السكانية أو غيره من المعلومات الضرورية والتي قد لا تتوفر في خبراء الجيش أنفسهم فيلجؤون عندها لطلب استشارة عسكرية من أحد مراكز البحوث والدراسات الإستراتيجية أو الرجوع إلى القيادة الخلفية في حال فشل الخطة ، كما فعل قتيبة بن مسلم في رجوعه واستشارته للحجاج في

فتح بخارى ، وكما كان الحال مع عمر بن الخطاب في توجيهه للجيوش الفاتحة لأرض العراق وهو في المدينة .
فالقيادة الخلفية قد يتوفر لديها من المعلومات ما ليس عند الجيش نفسه من ناحية الوضع العسكري العام وخطط العدو أو المخاطر التي قد تحيط بالجيش في حال توغله وغيرها .

39 - فتح [الطالقان].

قال ابن الأثير رحمه الله :

قيل: لما رجع قتيبة من بخارى ومعه نيزك وقد خاف لما يرى من الفتوح فقال لأصحابه: أنا مع هذا ولست آمنه فلو استأذنته ورجعت كان الرأي.

قالوا: افعل.

فاستأذن قتيبة فأذن له وهو بآمل فرجع يريد طخارستان وأسرع السير حتى أتى النوبهار فنزل يصلي فيه ويتبرك به وقال لأصحابه: لا أشك أن قتيبة قد ندم على إذنه لي وسيبعث إلى المغيرة بن عبد الله يأمره بحبسي.

وندم قتيبة على إذنه له فأرسل إلى المغيرة يأمره بحبس نيزك وسار نيزك وتبعه المغيرة فوجده قد دخل شعب خلم فرجع المغيرة وأظهر نيزك الخلع وكتب إلى أصبهبذ بلخ وإلى باذان ملك مرو الوذ وإلى ملك الكالقان وإلى ملك الفارياب وإلى ملك الجوزجان أن يدعوهم إلى خلع قتيبة فأجابوه فواعدهم الربيع أن يجتمعوا ويغزو قتيبة وكتب إلى كابل شاه يستظهر به وبعث إليه بثقله وماله وسأله أن يأذن له إن اضطر إليه أن يأتيه فأجابه إلى ذلك.

وكان جبغويه ملك طخارستان ضعيفًا فأخذه نيزك فقيده بقيد من ذهب لئلا يخالف عليه وكان جبغويه هو الملك ونيزك عبده فاستوثق منه وأخرج عامل قتيبة من بلاد جبغويه.

وبلغ قتيبة خلعه قبل الشتاء وقد تفرق الجند فبعث أخاه عبد الرحمن بن مسلم في اثني عشر ألفًا إلى البورقان وقال: أقم بها ولا تحدث شيئًا فإذا انقضى الشتاء سر نحو طخارستان واعلم أني قريب منك.

فسار فلما كان آخر الشتاء كتب قتيبة إلى نيسابور وغيرها من البلاد ليقدم عليه الجنود فقدموا قبل أوانهم فسار نحو الطالقان وكان ملكها قد خلع وطابق نيزك على الخلع فأتاه قتيبة فأوقع بأهل الطالقان فقتل من أهلها مقتلة عظيمة وصلب منهم سماطين أربعة فراسخ في نظام واحد .

انتهى .

معاقبة أهل الغدر

قال تعالى {الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ * فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} قوله "فشرد بهم من خلفهم" قال ابن عباس (أي نكل بهم) وقال ابن كثير في تفسيره ما معناه (غلظ عقوبتهم وأثخنهم قتلا ليخاف من سواهم من الأعداء من الحرب وغيرهم) .
ويأتي الأمر بالتنكيل هنا لأن الغدر مفاسده عظيمة ومخاطره كبيرة فتوجب أن يكون العقاب رادعا حتى يعتبر غيره ويرى شؤم الغدر وعاقبته .
والتنكيل الذي أمر به قتيبة بن مسلم في الغادرين من أهل [الطالقان] قد آتى أكله وارتدع غيرهم عن نقض العهود فكان باب للشر قد أوصد والحمد لله ، وهو عين ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم في بني قريظة لما خانت ونقضت العهد في وقت حرج فحاصرهم حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ والذي حكم بقتل المقاتلة وسبي الذرية فقال النبي صلى الله عليه وسلم "لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سماوات" .

40 - فتح الأندلس.

قال ابن الأثير رحمه الله :

وكانت عادة ملوك الأندلس إنهم يبعثون أولادهم الذكور والإناث إلى مدينة طليطلة يكونون في خدمة الملك لا يخدمه غيرهم يتأدبون بذلك فإذا بلغوا الحلم أنكح بعضهم بعضاً وتولي تجهيزهم فلما ولي رذريق أرسل إليه يوليان وهو صاحب الجزيرة الخضراء وسبتة وغيرهما ابنة له فاستحسنها رذريق وافتضها فكتبت إلى أبيها فأغضبه ذلك فكتب إلى موسى بن نصير عامل الوليد بن عبد الملك على إفريقية بالطاعة واستدعاه إليه فسار إليه فأدخله يوليان مدائنه وأخذ عليه العهود له ولأصحابه بما يرضى به ثم وصف له الأندلس ودعاه إليها وذلك آخر سنة تسعين.

فكتب موسى إلى الوليد بما فتح الله عليه وما دعاه إليه يوليان.

فكتب إليه الوليد: خضها بالسرايا ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال.

فكتب إليه موسى: إنه ليس ببحر متسع وإنما هو خليج يبين ما وراءه.

فكتب إليه الوليد أن اختبرها بالسرايا وإن كان الأمر على ما حكيت.

فبعث رجلاً من مواليه يقال له طريف في أربعمائة رجل ومعهم مائة فرس فسار في أربع سفائن فخرج في جزيرة بالأندلس فسميت جزيرة طريف لنزوله فيها ثم أغار على الجزيرة الخضراء فأصاب غنيمة كثيرة ورجع سالماً في رمضان سنة إحدى وتسعين.

فلما رأى الناس ذلك تسرعوا إلى الغزو.

ثم إن موسى دعا مولى له كان على مقدمات جيوشه يقال له طارق بن زياد فبعثه في سبعة آلاف من المسلمين أكثرهم البربر والموالي وأقلهم العرب فساروا في البحر وقصد إلى جبل منيف وهو متصل بالبر فنزله فسمي الجبل جبل طارق إلى اليوم ولما ملك عبد المؤمن البلاد أمر ببناء مدينة على هذا الجبل وسماه جبل الفتح فلم يثبت له هذا الاسم وجرت الألسنة على الأول.

وكان حلول طارق فيه في رجب سنة اثنتين وتسعين من الهجرة.

ولما ركب طارق البحر غلبته عينه فرأى النبي ومعه المهاجرون والأنصار قد تقلدوا السيوف ونكبوا القسي فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: يا طارق تقدم لشأنك.

وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد فنظر طارق فرأى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه قد دخلوا الأندلس أمامه فاستيقظ من نومه مستبشراً وبشر أصحابه وقويت نفسه ولم يشك في الظفر.

ونزل من الجبل إلى الصحراء وافتتح الجزيرة الخضراء وغيرها وفارق الحصن الذي في الجبل.

ولما بلغ رذريق غزو طارق بلاده عظم ذلك عليه وكان غائباً في غزاته فرجع منها طارق قد دخل بلاده فجمع له جمعاً يقال بلغ مائة ألف فلما بلغ طارقاً الخبر كتب إلى موسى يستمده ويخبره بما فتح وأنه زحف إليه ملك الأندلس بما لا طاقة له به.

فبعث إليه بخمسة آلاف فتكامل المسلمون اثني عسر ألفاً ومعهم يوليان يدلهم على عورة البلاد ويتجسس لهم الأخبار.

فأتاهم رذريق في جنده فالتقوا على نهر لكة من أعمال شذونة لليلتين بقيتا من رمضان سنة اثنتين وتسعين واتصلت الحرب ثمانية أيام وكان على ميمنته وميسرته ولدا الملك الذي كان قبله وغيرهما من أبناء الملوك واتفقوا على الهزيمة بغضاً لرذريق وقالوا: إن المسلمين إذا امتلأت أيديهم من الغنيمة عادوا إلى بلادهم وبقي الملك لنا.

فانهزموا وهزم الله رذريق ومن معه وغرق رذريق في النهر وسار طارق إلى مدينة إستجة متبعاً لهم فلقيه أهلها ومعهم من المنهزمين خلق كثير فقاتلوه قتالاً شديداً ثم انهزم أهل الأندلس ولم يلق المسلمون بعدها حرباً مثلها.

انتهى .

استغلال خلافات الأعداء

كان مما صنعه الله تعالى للمسلمين قبيل فتح الأندلس ذلك الخلاف القوي بين يوليان ولذريق ، فكان بمثابة المفتاح الأول لفتح الأندلس ، وهو الأمر الذي لم يدعه موسى بن نصير يمر دون أن يستغله .
فاستغلالات الخلافات بين الأعداء يوفر لك الكثير من المعلومات المهمة والتسهيلات الضرورية ويوفر عليك أيضا الكثير من الجهد والعناء في الحرب .
فالمناورات السياسية المضبوطة بالسياسة الشرعية تأتي بالتوازي مع القتال في المعركة ولا تنفك عنه .
وقد جاءت السيرة النبوية بالكثير من الاتفاقيات مع الأعداء كل بحسب ما يناسبه ، فقد صالح النبي صلى الله عليه وسلم أقواما وعاهد آخرين ، وتحالف مع خزاعة وهم من المشركين ضد قريش وحلفائهم بني بكر .

فاستغلال الخلافات السياسية وتوظيفها التوظيف الصحيح معركة أخرى لا تقل أهمية عن المعركة على أرض الميدان .

41 - فتح سمرقند.

قال ابن الأثير رحمه الله :

فلما قبض قتيبة صلح خوارز مشاه قال إليه المجشر بن مزاحم السلمي.

فقال له سراً: إن أردت الصغد يوماً من الدهر فالآن فإنهم آمنون من أن يأتيهم عامل هذا وإنما بينك وبينهم عشرة أيام.

قال: أشار عليك بهذا أحد قال: لا.

قال: فسمعه منك أحد قال: لا.

قال: والله لئن تكلم به أحد لأضربن عنقك.

فلما كان الغد أمر أخاه عبد الرحمن فسار في الفرسان والرماة وقدم الأثقال إلى مرو فسار يومه فلما أمسى كتب إليه قتيبة: إذا أصبحت فوجه الأثقال إلى مرو وسر بالفرسان والرماة نحو الصغد واكتم الأخبار فإني في الأثر.

ففعل عبد الرحمن ما أمره وخطب قتيبة الناس وقال لهم: إن الصغد شاغرة برجلها وقد نقضوا العهد الذي بيننا وصنعوا ما بلغكم وإني أرجو أن يكون خوارزم والصغد كقريظة والنضير.

ثم سار فأتى الصغد فبلغها بعد عبد الرحمن بثلاث أو أربع وقدم معه أهل خوارزم وبخارى فقاتلوه شهراً من وجه واحد وهم محصورون.

وخاف أهل الصغد طوال الحصار فكتبوا إلى ملك الشاش وخاقان واخشاد فرغانة: إن العرب إن ظفروا بنا أتوكم بمثل ما أتونا به فانظروا لأنفسكم ومهما كان عندك من قوة فابذلوها.

فنظروا وقالوا: إنما نؤتى من سفلتنا فإنهم لا يجدون كوجدنا.

فانتخبوا من أولاد الملوك وأهل النجدة من أبناء المرازبة والأساورة والأبطال وأمروهم أن يأتوا عسكر قتيبة فيبيتوه فإنه مشغول عنه بحصار سمرقند وولوا عليه ابناً لخاقان فساروا.

وبلغ قتيبة الخبر فانتخب من عسكره أربعمائة وقيل: ستمائة من أهل النجدة والشجاعة وأعلمهم الخبر وأمرهم بالمسير إلى عدوهم فساروا وعليهم صالح بن مسلم فنزلوا على فرسخين من العسكر على طريق القوم فجعل صالح له كمينين فلما مضى نصف الليل جاءهم عدوهم فلما رأوا صالحاً حملوا عليه فلما اقتتلوا شد الكمينان عن يمين وشمال فلم ير قوم كانوا أشد من أولئك.

قال بعضهم: إنا لنقاتلهم إذ رأيت تحت الليل قتيبة وقد جاء سراً فضربت ضربةً أعجبتني.

فقلت: كيف نرى بأمي وأبي قال: اسكت فض الله فاك.

قال: فقتلناهم فلم يفلت منهم إلا الشريد وحوينا أسلابهم وسلاحهم فاحتززنا رؤوسهم وأسرنا منهم أسرى فسألناهم عمن قتلنا فقالوا: ما قتلتم إلا ابن ملك أو عظيماً أو بطلاً كان الرجل يعد بمائة رجل وكتبنا أسماءهم على آذانهم ثم دخلنا العسكر حين أصبحنا فلم يأت أحد بمثل ما جئنا به من القتلى والأسرى والخيل ومناطق الذهب والسلاح قال: وأكرمني قتيبة وأكرم معي جماعة وظننت أنه رأى منهم مثل الذي رأى مني.
انتهى.

الكتمان

قال الله تعالى: { فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً } وقال صلى الله عليه وسلم " استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان".
إن الذي يأخذ الأمور بجدية لا يهمل من تفاصيلها شيئا ، ومن أهم ما يتعلق بنجاح عمل المجاهد هي السرية التامة التي يجب أن تكون ملازمة لعمله حتى يكتب له النجاح .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد غزوة ورى بغيرها ، وهذه التورية تبدأ من الجيش نفسه بحيث لا يصل للعدو أي خبر عن الوجهة الحقيقية للتحرك لا من قريب ولا من بعيد .
هذه السرية التامة والتورية والتحرك الخفي يحرص عليه كبار القادة العسكريين حتى يحصلوا على عنصر [المباغتة] في المعركة وهو عنصر هام جدا وحاسم في صف من يملكه ، ولا يملكه إلا من أحسن كتمان أخباره وتحركاته كما فعل قتيبة بن مسلم في مسيره إلى سمرقند .

فمع أن الجيش يضم آلاف الجنود ولكن أحدا لم يكن يعرف بالوجهة الحقيقية للجيش، لأن القانون الأمني في العمليات العسكرية الحاسمة والكبيرة هو أن المعلومة على قدر الحاجة !
وقد أبدى قتيبة براعة كبيرة في إخفاء أهداف تحركاته العسكرية ! .

42 - فتح [البحيرة].

قال ابن الأثير رحمه الله :

وقيل: إن سبب مسير يزيد إلى جرجان أن صولًا التركي كان ينزل قهستان والبحيرة وهي جزيرة في البحر بينها وبين قهستان خمسة فراسخ وهما من جرجان مما يلي خوارزم وكان يغير على فيروز بن قول مرزبان جرجان فيصيب من بلاده.

فخافه فيروز فسار إلى يزيد بخراسان وقدم عليه فسأله عن سبب قدومه فقال: خفت صولًا فهربت منه وأخذ صول جرجان.

فقال يزيد لفيروز: هل من حيلة لقتاله قال: نعم شيء واحد إن ظفرت به قتلته وأعطى بيده.

قال: ما هو قال: تكتب إلى الأصبهبذ كتابًا تسأله فيه أن يحتال لصول حتى يقيم بجرجبان واجعل له على ذلك جعلًا فإنه يبعث بكتابك إلى صول يتقرب به إليه فيتحول عن جرجان فينزل البحيرة وإن تحول عن جرجان وحاصرته ظفرت به.

ففعل يزيد ذلك وضمن للأصبهبذ خمسين ألف دينار إن هو حبس صولًا عن البحيرة ليحاصره بجرجان فأرسل الأصبهبذ الكتاب إلى صول فلما أتاه الكتاب رحل إلى البحيرة ليتحصن بها وبلغ يزيد مسيره فخرج إلى جرجان ومعه فيروز واستعمل على خراسان ابنه مخلدًا وعلى سمرقند وكش ونسف وبخارى ابنه معاوية وعلى طخارستان حاتم بن قبيصة بن المهلب وأقبل حتى أتى جرجان فدخلها ولم يمنعه منها أحد وسار منها إلى البحيرة فحصر صولًا بها فكان يخرج إليه صولا فيقاتله ثم يرجع فمكثوا بذلك ستة أشهر فأصابهم مرض وموت فأرسل صولا يطلب الصلح على نفسه وماله وثلاثمائة من أهله وخاصته وسلم إليه البحيرة فأجابه يزيد فخرج بماله وثلاثمائة ممن أحب.

وقتل يزيد من الأتراك أربعة عشر ألفًا صبرًا وأطلق الباقين.

انتهى .

الحصار

يعتبر الحصار من الأساليب العسكرية القديمة وبما أن المدن الكبيرة كانت تعتمد على الأسوار العالية لحمايتها من الغزو الخارجي فلا يوجد سبيل إلى استسلام هذه المدن إلا بالحصار الطويل حتى يذعن أهلها بعد أن يتعبهم الجوع والخوف .
وقد ينجح الحصار في إخضاع العدو كما حدث مع النبي صلى الله عليه وسلم في حصاره لبني قريظة وقد لا ينجح كما حدث مع أهل الطائف فانصرف عنهم .
وقد يمتد الحصار إلى بضع سنوات كحصار المسلمين للقسطنطينية ، وقد يمتد لأيام مثل ما حدث في فتح دمشق .
وقد يأتي الحصار على شكل تكتيكي كأن يقع الجيش بين فكي كماشة لا يستطيع التقدم ولا التأخر ، كما فعل يزيد بن المهلب في استدراجه للملك إلى البحيرة .
وهذا النوع من الحصار مميت وخطير جدا على الجيوش .

43 - غزو الترك عام اثنتين ومائة للهجرة.

قال ابن الأثير رحمه الله :

لما ولي سعيد خراسان استضعفه الناس وسموه خذينة وكان قد استعمل شعبة على سمرقند

ثم عزله فطمعت الترك فجمعهم خاقان ووجههم إلى الصغد وعلى الترك كور صول فأقبلوا حتى نزلوا بقصر الباهلي.

وقيل: أراد عظماء الدهاقين أن يتزوج امرأة من باهلة كانت في ذلك القصر فأبت استجاش ورجوا أن يسبوا من في القصر فأقبل كورصول حتى حصر أهل القصر وفيه مائة أهل بيت بذراريهم وكان على سمرقند عثمان بن عبد الله بن مطرف بن الشخير قد استعمله سعيد بعد شعبة فكتبوا إليه وخافوا أن يبطئ عنهم المدد فصالحوا الترك على أربعين ألفًا وأعطوهم سبعة عشر رجلًا رهينةً وندب عثمان الناس فانتدب المسيب بن بشر الرياحي وانتدب معه أربعة آلاف من جميع القبائل وفيهم سعبة بن ظهير وثابت قطنة وغيرهما الفرسان فلما عسكروا قال لهم المسيب: إنكم تقدمون على حلبة الترك عليهم خاقان والعوض إن صبرتم الجنة والعقاب إن فررتم النار فمن أراد الغزو والصبر فليقدم فرجع عنه ألف وثلاثمائة فلما سار فرسخًا رجع بمثل مقالته الأولى فاعتزله ألف ثم سار فرسخًا أخر فقال لهم مثل ذلك فاعزله ألف ثم سار فلما كان على فرسخين منهم نزل فأتاهم ترك خاقان ملك قي فقال: لم يبق ها هنا دهقان إلا وقد بايع الترك غيري وأن في ثلاثمائة مقاتل فهم معك وعندي الخبر قد كانوا صالحوهم وأعطوهم سبعة عشر رجلًا يكونون رهينة في أيديهم حتى يأخذوا صلحهم فلما بلغهم مسيركم إليهم فبعث المسيب رجلين رجلًا من العرب ورجلًا من العجم ليعلما علم القوم فأقبلا في ليلة مظلمة وقد أخذت الترك في نواحي القصر فليس يصل إليه أحد ودنوا من القصر فصاح بهما الربيئة فقالا له: اسكت وادع لنا عبد الملك بن دثار.

فدعاه فأعلماه بقرب المسيب منهم وقالا: هل عندكم امتناع الليلة وغدًا قالا: قد أجمعنا على تقديم نسائنا للموت أمامنا حتى نموت جميعا غدًا.

فرجعا إلى المسيب فأخبراه فقال لمن معه: إني سائر إلى هذا العدو فمن أحب أن يذهب فليذهب فلم يفارقه أحد وبايعوه على الموت.

فأصبح وسار وقد ازداد القصر تحصينًا بالماء الذي أجراه الترك فلما صار بينه وبين الترك نصف فرسخ نزل وقد أجمع على بيانهم فلما أتى أمر أصحابه بالصبر وحثهم عليه وقال: ليكن شعاركم يا محمد ولا تتبعوا موليًا وعليكم بالدواب فاعقروها فإنها إذا عقرت كانت أشد عليهم منكم وليست بكم قلة فإن سبعمائة سيف لا يضرب بها في عسكر إلا أوهنوه وإن كثر أهله.

وجعل على ميمنته كثيرًا الدبوسي وعلى ميسرته ثابت قطنة وهو من الأزد فلما دنوا منهم كبروا وذلك في السحر وثار الترك وخالطهم المسلمون فعقروا الدواب وترجل المسيب في رجال معه فقاتلوا قتالًا شديدًا وانقطعت يمين البختري المرائي فاخذ السيف بشماله فقطعت فجعل يذب بيديه حتى استشهد.

وضرب ثابت قطنة عظيمًا من عظماء الترك فقتله وانهزمت الترك ونادى منادي المسيب: لا تتبعوهم فإنهم لا يدرون من الرعب أتبعتموهم أم لا واقصدوا القصر ولا تحملوا إلا الماء ولا تحملوا إلا من يقدر على المشي ومن حمل امرأة أو صبيًا أو ضعيفًا حسبة فأجره على الله ومن أبى فله أربعون درهمًا وإن كان في القصر أحد من أهل عهدكم فاحملوه.

فحملوا من القصر وأتوا ترك خاقان فأنزلهم قصره وأتاهم بطعام ثم ساروا إلى سمرقند.

ورجعت الترك من الغد فلم يروا في القصر أحدًا ورأوا قتلاهم فقالوا: لم يكن الذي جاءنا من الإنس فقال ثابت قطنة: فدت نفسي فوارس من تميمٍ غداة الروع في ضنك المقام
فدت نفسي فوارس أكنفوني على الأعداء فر رهج القتام
بقصر الباهلي وقد رأوني أحامي حيث ضربه المحامي
بسيفي بعد حطم الرمح قدمًا أذودهم بذي شطب حسام
أكر عليهم اليحموم كرًا ككر الشرب آنية المدام
أكر به لدى الغمرات حتى تجلت لا يضيق به مقامي
فلولا الله ليس له شريك وضربي قونس الملك الهمام
إذًا لسعت نساء بني دثار أمام الترك بادية الخدام.

انتهى.

بيعة الموت

لقد أدرك المسيب بن بشر الرياحي أن الدخول مع جيش الترك الكبير في مواجهة مع قلة من معه من الجند أمر يحتاج إلى استيثاق أكثر وربط للأنفس بعهد خاص يشحذ هممهم في القتال ويرغبهم في الشهادة فكانت [بيعة الموت] .

فالذي يبايع على الموت ويوطن نفسه عليه لا يقف في وجهه أحد حتى يفتح الله عليه أو يقتل دون ذلك .
وقد ابتدر النبي صلى الله عليه وسلم الناس إليها يوم الحديبية ، فبايعه ألف وأربعمائة صحابي على الموت فأنزل الله تعالى {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً} .

44 - غزوة [الأبواب].

قال ابن الأثير رحمه الله :

واستعمل يزيد بن عبد الملك الجراح بن عبد الله الحكمي حينئذ على أرمينية وأمده بجيش كثيف وأمره بغزو الخزر وغيرهم من الأعداء وبقصد بلاده.

فسار الجراح وتسامع الخزيرية فعادوا حتى نزلوا بالباب والأبواب ووصل الجراح إلى برذعة فأقام حتى استراح هو ومن معه سار نحو الخزر فعبر نهر الكر فسمع بأن بعض من معه من أهل تلك الجبال قد كاتب ملك الخزر يخبره بمسير الجراح إليه فحينئذ أمر الجراح مناديه فنادى في الناس: إن الأمير مقيم ها هنا عدة أيام فاستكثروا من الميرة فكتب ذلك الرجل إلى ملك الخزر يخبره أن الجراح مقيم ويشير عليه بترك الحركة لئلا يطمع المسلمون فيه.

فلما كان الليل أمر الجراح بالرحيل فسار مجدًا حتى انتهى إلى مدينة الباب والأبواب فلم ير الخزر فدخل البلد فبث سراياه في النهب والغارة على ما يجاوره فغنموا وعادوا من الغد وسار الخزر إليه وعليهم ابن ملكهم فالتقوا عند نهر الران واقتتلوا قتالًا شديدًا وحرض الجراح أصحابه واشتد القتال فظفروا بالخزر وهزموهم وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون فقتل منهم خلق كثير وغنم المسلمون جميع ما معهم وساروا حتى نزلوا على حصن يعرف بالحصين فنزل أهله بالأمان على مال يحملونه فأجابهم ونقلهم عنها.

انتهى .

تمرير المعلومة

إن الخطط في المعارك وتحركات الجيوش لا تبنى إلا على ضوء المعلومات المتوفرة والتي قد يعتمد في تحصيلها على ما يرسله الجاسوس من أخبار مهمة ، أما إن اكتشف [الجاسوس] من غير أن يشعر أو علم أن هناك من يقوم بهذه المهمة فهنا تأتي عملية [قلب السحر على الساحر] عن طريق تمرير المعلومة المناسبة لنا عبر هذا الجاسوس وبطريقة تلقائية طبيعية لا تدعو للريبة ومن ثم نبني خطة معاكسة لتحرك العدو المتوقع بناء على المعلومة التي مررناها .
وهذه الطريقة هي التي استعملها عبدالله الجراح في هذه الغزوة ، وهي فن لا يتقنه إلا القلة من القادة .

45 - وقعة [كمرجة].

قال ابن الأثير رحمه الله :

ثم إن عن خاقان حصر كمرجه وهي من أعظم بلدان خراسان وبها جمع من المسلمين ومع خاقان أهل فرغانة وأفشينة ونسف وطوائف من أهل بخارى فأغلق المسلمون الباب وقطعوا القنطرة التي على الخندق.

فأتاهم ابن خسرو بن يزدجرد فقال: يا معشر العرب لم تقتلون أنفسكم أنا الذي جئت بخاقان ليرد علي مملكتي وأنا آخذ الأمان.

فشتموه.

وأتاهم بازغرى في مائتين وكان داهية وكان خاقان لا يخالفه فدنا من المسلمين بأمان وقال: لينزل إلي رجل منكم أكلمه بما أرسلني به خاقان.

فأحذروا يزيد بن سعيد الباهلي وكان يفهم التركية يسيرًا فقال له: إن خاقان أرسلني وهو يقول إني أجعل من عطائه منكم ستمائة ألفًا ومن عطائه ثلاثمائة وستمائة وهو يحسن إليكم.

فقال له يزيد: كيف تكون العرب وهم ذئاب مع الترك وهم شاء! لا يكون بيننا وبينهم صلح.

فغضب بازغرى وكان معه تركيان فقالا: ألا تضرب عنقه فقال: إنه نزل بأمان.

وفهم يزيد ما قالا فخاف فقال: بلى إنما تجعلوننا نصفين فيكون نصفنا مع أثقالنا ويسير النصف معكم فإن ظفرتم فنحن معكم وإن كان غير ذلك كنا كسائر مدائن الصغد.

فرضوا بذلك وقال: أعرض على أصحابي هذا.

وصعد في الحبل فلما صار على السور نادى: يا أهل كمرجه اجتمعوا فقد جاءكم قوم يدعونكم إلى الكفر بعد الإيمان فما ترون قالوا: لا نجيب ولا نرضى.

قال: يدعونكم إلى قتال المسلمين مع المشركين.

قالوا نموت قبل ذلك.

فرد بازغرى.

ثم أمر خاقان بقطع الخندق فجعلوا يلقون الحطب الرطب ويلقي المسلمون الحطب اليابس حتى سوي الخندق فأشعلوا فيه النيران وهاجت ريح شديدة صنعًا من الله فاحترق الحطب وكانوا جمعوه في سبعة أيام في ساعة واحدة.

ثم فرق خاقان على الترك أغنامًا وأمرهم أن يأكلوا لحمها ويحشوا جلودها ترابًا وكبسوا خندقها ففعلوا ذلك فأرسل الله سحابة فأمطرت مطرًا شديدًا فاحتمل السيل ما في الخندق وألقاه في النهر العظيم.

ورماهم المسلمون بالسهام فأصابت بازغرى نشابة في سرته فمات من ليلته فدخل عليهم بموته أمر عظيم.

فلما امتد النهار جاؤوا بالأسرى الذين عندهم وهم مائة فيهم أبو العوجاء العتكي والحجاج بن حميد النضري فقتلوهم ورموا برأس الحجاج وكان عند المسلمين مائتان من أولاد المشركين رهائن فقتلوهم واستماتوا واشتد القتال.

ولم يزل أهل كمرجه كذلك حتى أقبلت جنود العرب فنزلت فرغانة فعير خاقان أهل الصغد وفرغانة والشاش والدهاقين وقال: زعمتم أن في هذه خمسين حمارًا وأنا نفتحها في خمسة أيام فارت الخمسة شهرين.

وأمرهم بالرحيل وشتمهم فقالوا: ما ندع جهدًا فأحضرنا غدًا وانظر ما نصنع.
فلما كان الغد وقف خاقان وتقدم ملك الطاربند فقاتل المسلمين فقتل منهم ثمانية وجاء حتى وقف على ثلمة إلى جانب بيت فيه مريض من تميم فرماه التميمي بكلوب فتعلق بدرعه ثم نادى النساء والصبيان فجذبوه فسقط لوجه ورماه رجل بحجر فأصاب أصل أذنه فصرع وطعنه آخر فقتله فاشتد قتله على الترك.

وأرسل خاقان إلى المسلمين: إنه ليس من رأينا أن نرتحل عن مدينة نحاصرها دون افتتاحها أو ترحلهم عنها.

فقالوا له: ليس من ديننا أن نعطي بأيدينا حتى نقتل فاصنعوا ما بدا لكم.

فأعطاهم الترك الأمان أن يرحل خاقان عنهم ويرحوا هم عنها إلى سمرقند أو الدبوسية فرأى أهل كمرجه ما هم فيه من الحصار فأجابوا إلى ذلكم فأخذوا من الترك رهائن أن لا يعرضوا لهم وطلبوا أن كورصول التركي يكون معهم في جماعة ليمنعهم إلى الدبوسية فسلموا إليهم الرهائن وأخذوا أيضًا هم من المسلمين رهائن وارتحل خاقان عنهم ثم رحلوا هم بعده فقال الأتراك الذين مع كورصول: إن بالدبوسية عشرة آلاف مقاتل ولا نأمن أن يخرجوا علينا.

فقال لهم المسلمون: إن قاتلوكم قاتلناهم معكم.

فساروا فلما صار بينهم وبين الدبوسية فرسخ نظر أهلها إلى الفرسان فظنوا أن كمرجه فتحت وأن خاقان قد قصدهم فتأهبوا للحرب فأرسل المسلمون إليهم يخبرونهم خبرهم فالتقوهم وحملوا من كان يضعف عن المشي ومن كان مجروحًا.

فلما بلغ المسلمون الدبوسية أرسلوا إلى من عنده الرهائن يعلمونه بوصولهم ويأمرونه بإطلاقهم فجعلت العرب تطلق رجلًا من الرهن والترك رجلًا حتى بقي سباع بن النعمان مع الترك ورجل من الترك عند العرب وجعل كل فريق يخاف من صاحبه الغدر فقال سباع: خلوا رهينة الترك فخلوه وبقي سباع مع الترك فقال له كورصول: ما حملك على هذا قال: وثقت بك وقلت ترفع نفسك عن الغدر فوصله كورصول وأعطاه سلاحه وبرذونًا وأطلقه.

انتهى .

معرفة لغة القوم

أمر النبي صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت بتعلم لغة اليهود وقال "إني لا آمنهم على كتابي"
والجهاد سياحة الأمة ، وبما أن السواح يحتاجون إلى من يترجم لهم كما هو الحال هذه الأيام فكذلك المجاهدين يجب أن يكون من بينهم من يعرف اللغة المحلية لأرض الجهاد حتى يسهل التعامل مع أهلها أو التفاوض مع الأعداء كما حدث مع يزيد بن سعيد الباهلي في مفاوضته للترك .
وفي نفس الوقت ينبغي أن نعلم أهل تلك البلدان اللغة العربية حتى يسهل عليهم تعلم القرآن والحديث ، وهذا الأمر مهم جدا في تنمية شعورهم بأننا أمة واحدة .
وقد انتبه لأهمية اللغة في تحديد انتماء الأمم دول الاستعمار الأولى مثل البرتغال وإسبانيا وبريطانيا وفرنسا فقامت بنشر لغاتها الرسمية بالنار والحديد في الدول المستعمرة ، فظهرت اللغة الفرنسية في قارة إفريقيا وظهرت اللغة الإنجليزية في القارة الهندية .

46 – وقعة [الشعب].

قال ابن الأثير رحمه الله :

في هذه السنة خرج الجنيد غازيًا يريد طخارستان فوجه عمارة بن حريم إلى طخارستان في ثمانية عشر ألفًا ووجه إبراهيم بن بسام الليثي في عشرة آلاف إلى وجه آخر وجاشت الترك فأتوا سمرقند وعليها سورة ابن الحر فكتب سورة إلى الجنيد: إن خاقان جاش الترك فخرجت إليهم فلم أطق أن أمنع حائط سمرقند فالغوث الغوث! فأمر الجنيد الناس بعبور النهر فقام إليه المجشرٍ بن مزاحم السلمي وابن بسطام الأزدي وغيرهما وقالوا: إن الترك ليسوا كغيرهم لا يلقونك صفًا ولا زحفًا وقد فرقت جندك فمسلم بن عبد الرحمن بالبيروذ والبختريٍ بهراة وعمارة بن حريم غائب بطخارستان وصاحب خراسان لا يعبر النهر في أقل من خمسين ألفًا فاكتب إلى عمارة فليأتك أمهل ولا تعجل.

قال: فكيف بسورة ومن معه من المسلمين لو لم أكن إلا في بني مرة أو من طلع معي من الشام لعبرت وقال شعرًا: أليس أحق الناس أن يشهد الوغى وأن يقتل الأبطال ضخمًا على ضخم وقال: ما

علتي ما علتي إن لم اقتلهم فجزوا لمتي وعبر الجنيد فنزل كش وتأهب للمسير وبلغ الترك فعوروا الآبار التي في طريق كش فقال الجنيد: أي طريق إلى سمرقند أصلح فقالوا: طريق المحترقة.

فقال المجشر: القتل بالسيف أصلح من القتل بالنار طريق المحترقة كثير الشجر والحشيش ولم يزرع منذ سنين فإن لقينا خاقان أحرق ذلك كله فقتلنا بالنار والدخان ولكن خذ طريق العقبة فهو بيننا وبينهم سواء.

فأخذ الجنيد طريق العقبة فارتقى في الجبل فأخذ المجشر بعنان دابته وقال: إنه كان يقال: ليفرخ روعك.

قال: أما ما كان بيننا مثلك فلا.

فبات في أصل العقبة ثم سار بالناس حتى صار بينه وبين سمرقند أربعة فراسخ ودخل الشعب فصبحه خاقان في جمع عظم وزحف إليه أهل الصغد وفرغانة والشاش وطائفة من الترك فحمل خاقان على المقدمة وعليها عثمان بن عبد الله بن الشخير فرجعوا إلى العسكر والترك تتبعهم وجاؤوهم من كل وجه فجعل الجنيد تميمًا والأزد في الميمنة وربيعة في الميسرة مما يلي الجبل وعلى مجففة خيل بني تميم عبيد الله بن زهير بن حيان وعلى المجردة عمروا بن جرقاش المنقري وعلى جماعة بني تميم عامر بن مالك الحماني وعلى الأزد عبد الله بن بسطام بن مسعود بن عمرو وعلى المجففة والمجردة فضيل ابن هناد وعبد الله بن حوذان.

فالتقوا وقصد العدو الميمنة لضيق الميسرة فترجل حسان بن عبيد الله ابن زهير بين يدي أبيه فأمره أبوه بالركوب فركب وأحاط العدو بالميمنة فأمدهم الجنيد بنصر بن سيار فشد هو ومن معه على العدو فكشفوهم ثم كروا عليهم وقتلوا عبيد الله بن زهير وابن جرقاش والفضيل ابن هناد وجالت الميمنة والجنيد واقف في القلب فأقبل إلى الميمنة ووقف تحت راية الأزد وكان قد جفاهم فقال له صاحب الراية: ما هلكنا لم تبك علينا.

وتقدم فقتل وأخذ الراية ابن مجاعة فقتل وتداولها ثمانية عشر رجلًا فقتلوا وقتل يومئذ من الأزد ثمانون رجلًا.

وصبر الناس يقاتلون حتى أعيوا فكانت السيوف لا تقطع شيئًا فقطع عبدهم الخشب يقاتلون به حتى مل الفريقان فكانت المعانقة ثم تحاجزوا.

وقتل من الأزد عبد الله بن بسطام ومحمد بن عبد الله بن حوذان والحسن ابن شيخ والفضيل صاحب الخيل ويزيد بن الفضل الحداني وكان قد حج فأنفق في حجته ثمانين ومائة ألف وقال لأمه: ادعي الله أن يرزقني الشهادة فدعت له وغشي عليها فاستشهد بعد مقدمة من الحج بثلاثة عشر يومًا وقتل النضر بن راشد العبدي وكان قد دخل على امرأته والناس يقتتلون فقال لها: كيف أنت إذا أتيت بأبي ضمرة في لِبد مضرجًا بالدم فشقت جيبها ودعت بالويل فقال لها: حسبك لو أعولت علي كل أنثى لعصيتها شوقًا إلى الحور العين! فرجع وقاتل حتى استشهد رحمه الله.

فبينا الناس كذلك إذ أقبل رهج وطلعت فرسان فنادى الجنيد: الأرض الأرض! فترجل وترجل الناس ثم نادى: يخندق كل قائد على حياله فخندقوا وتحاجزوا وقد أصيب من الأزد مائة وتسعون رجلًا.

وكان قتالهم يوم الجمعة فلما كان يوم السبت قصدهم خاقان وقت الظهر فلم ير موضعًا للقتال أسهل من موضع بكر بن وائل وعليهم زياد بن الحارث فقصدهم فلما قربوا حملت بكر عليهم فأخرجوا لهم فسجد الجنيد واشتد القتال بينهم.

فلما اشتد القتال ورأى الجنيد شدة الأمر استشار أصحابه فقال له عبيد الله بن حبيب: احترامًا أن تهلك أنت وسورة بن الحر.

قال: هلاك سورة أهون علي.

قال: فاكتب إليه فليأتك في أهل سمرقند فإنه إذا بلغ الترك إقباله توجهوا إليه فقاتلوه.

فكتب إليه الجنيد يأمره بالقدوم.

وقال حليس بن غالب الشيباني: إن الترك بينك وبين الجنيد فإن خرجت كروا عليك فاختطفوك فكتب إلى الجنيد: إني لا أقدر على الخروج.

فكتب إليه الجنيد: يا ابن اللخناء تخرج وإلا وجهت إليك شداد بن خليد الباهلي وكان عدوه فاخرج الزم الماء ولا تفارقه فأجمع على المسير وقال: إذا سرت على النهر لا أصل في يومين وبيني وبينه في هذا الوجه ليلة فإذا سكت الرجل سرت.

فجاءت عيون الأتراك فأخبروهم بمقالة سورة ورحل سورة واستخلف على سمرقند موسى بن أسود الحنظلي وسار في اثني عشر ألفًا فأصبح على رأس جبل فتلقاه خاقان حين أصبح وقد سار ثلاثة فراسخ وبينه وبين الجنيد فرسخ فقاتلهم فاشتد القتال وصبروا.

فقال غوزك لخاقان: اليوم حار فلا نقاتلهم حتى يحمى عليهم السلاح فوافقهم وأشعل النار في الحشيش وحال بينهم وبين الماء فقال سورة لعبادة: ما ترى يا أبا سليم فقال: أرى أن الترك يريدون الغنيمة فاعقر الدواب واحرق المتاع وجر السيف فإنهم يخلون لنا الطريق وإن منعونا شرعنا الرماح ونزحف زحفًا وإنما هو فرسخ حتى نصل إلى العسكر.

فقال: لا أقوى على هذا ولا فلان وفلان وعد رجالًا ولكن أجمع الخيل فأصكهم بها سلمت أم عطبت.

وجمع الناس وحملوا فانكشف الترك وثار الغبار فلم يبصروا من وراء الترك لهيب فسقطوا فيه وسقط العدو والمسلمون وسقط سورة فاندقت فخذه وتفرق الناس فقتلهم الترك ولم ينجح منهم غير ألفين وقال ألف وكان ممن نجا منهم عاصم بن عمير السمرقند واستشهد حليس بن غالب الشيباني وانحاز المهلب بن زياد العجلي في سبعمائة إلى رستاق يسمى المرغاب فنزلوا قصرًا هناك فأتاهم الأشكند صاحب نسف في خيل ومعه غوزك فأعطاهم غوزك الأمان.

فقال قريش بن عبد الله العبدي: لا تثقوا بهم ولكن إذا جن الليل خرجنا عليهم حتى نأتي سمرقند.

فعصوه فنزلوا بالأمان فساقهم إلى خاقان فقال: لا أجيز أمان غوزك فقاتلهم الوجف بن خالد والمسلمون فأصيبوا غير سبعة عشر رجلًا فقتلوا غير ثلاثة.

وقتل سورة في اللهب فلما قتل خرج الجنيد من الشعب يريد سمرقند مبادرًا فقال له خالد بن عبيد الله: سر وأسرع.
فقال له المجشر: انزل وخذ بلجام دابته فنزل ونزل الناس معه فلم يستتم نزولهم حتى طلع الترك فقال المجشر له: لو لقونا ونحن نسير ألم يهلكونا فلما أصبحوا تناهضوا فجال الناس فقال الجنيد: أيها الناس إنها النار فرجعوا ونادى الجنيد: أي عبد قاتل فهو حر.

فقاتل العبيد قتالًا عجب منه الناس فسروا بما رأوا من صبرهم وصبر الناس حتى انهزم العدو ومضوا .

انتهى .

تقديم الحوافز

يعتبر [الدافع] هو المحرك الرئيسي خلف كل [فعل] ، وكلما كان الدافع أقوى في النفوس كانت الأفعال [أقوى] تبعا لذلك .
فتغذية الدافع عند الإنسان أمر حيوي للإنتاج والعمل .
ولا تقتصر تغذية الدافع أو تقديم الحوافز التي ترفع الهمم على الأمور الدنيوية فقط كما قال [الجنيد] في المعركة [أي عبد قاتل فهو حر] .
قد تكون [الشهادة] بالنسبة للمجاهد أقوى دافع وأكبر حافز له في القتال في المعركة ، ولذا نرى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يركز على الحوافز الأخروية أكثر من الدنيوية فقال في شأن الدنيا "من قتل قتيلا له عليه بينة فله سلبه" وقال في شأن الآخرة "من يأتيني بخبر القوم وهو رفيقي في الجنة" ، وشتان بين [سلبه] يؤخذ ثم يبلى سريعا وبين [رفقة خير البشر] في أعلى عليين وإلى الأبد .

47 - غزو بلاد [خاقان].

قال ابن الأثير رحمه الله :

وفيها فرق مسلمة الجيوش ببلاد خاقان ففتحت مدائن وحصون على يديه وقتل منهم وأسر وسبى وأحرق ودان له من وراء جبال بلنجر وقتل ابن خاقان فاجتمعت تلك الأمم جميعها الخزر وغيرهم عليه في جمع لا يعلم عددهم إلا الله تعالى وقد جاز مسلمة بلنجر فلما بلغه خبرهم أمر أصحابه

فأوقدوا النيران ثم ترك خيامهم وأثقالهم وعاد هو وعسكره جريدة وقدم الضعفاء وأخر الشجعان وطووا المراحل كل مرحلتين في مرحلة حتى وصل إلى الباب والأبواب في آخر رمق.

انتهى .

تغيير موضع القوة

عادة ما تصنع الجيوش [مقدمة قوية] لها كرأس حربة للجيش تضم الفرسان والشجعان وتكون بمثابة واجهة مرعبة للعدو وصمام أمان ضد هجماته المباغتة أو ضد أي كمين مفاجئ .
وبما أن هذه [القوة] تفقد فاعليتها إن كانت في المكان غير المناسب فيجب هنا تغيير موضع القوة بحسب الفاعلية والهدف من القتال ، فسلاح الفرسان قديما وسلاح الدروع حديثا يفقد فاعليته إن لم يكن في المكان المناسب له في القتال أو في الانسحاب أو في حرب الجبهات أو في حرب العصابات .
ونجد هنا أن أمير الجيش مسلمة بن عبدالملك جعل قوة الجيش المتمثلة في الشجعان كمؤخرة للجيش حتى يتقي ضربات الترك أثناء الانسحاب وهو ما ساعده في سلامة الجيش بفضل الله ومعونته .

48 - وقعة [الجوزجان].

قال ابن الأثير رحمه الله :

وسار أسد إلى بلخ فعسكر في مرجها حتى أتى الشتاء ثم فرق الناس في الدور ودخل المدينة وكان الحارث بن سريج بناحية طخارستان فانضم إلى خاقان.

فلما كان وسط الشتاء أقبل خاقان وكان لما فارق أسد أتى كخارستان فأقام عند جبوية فأقبل فأتى الجوزجان وسبب مجيئه أن الحارث أخبره أنه لا نهوض بأسد فلم يبق معه كثير جند ونزل جزة فأتى الخبر إلى أسد بنزول خاقان بجزة فأمر بالنيران فرفعت بالمدينة فجاء الناس من الرساتيق إليها فأصبح أسد وصلى صلاة العيد عيد الأضحى وخطب الناس وقال: إن عدوا الله الحارث بن سريج استجلب الطاغية ليطفئ نور الله ويبدل دينه والله مذله إن شاء الله وإن عدوكم قد أصاب من إخوانكم من أصاب وإن يرد الله نصركم لم يضركم قلتكم وكثرتهم فاستنصروا الله وإن أقرب ما يكون العبد من ربه إذا وضع جبهته له وإني نازل وواضع جبهتي فاسجدوا له وادعوا مخلصين.

ففعلوا ورفعوا رؤوسهم ولا يشكون في الفتح ثم نزل وضحى وشاور الناس في المسير إلى خاقان قال قوم: تحفظ مدينة بلخ وتكتب إلى خالد والخليفة تستمده.

وقال قوم: تأخذ في طريق زم فتسبق خاقان إلى مرو.

وقال قوم: بل تخرج إليهم.

فوافق هذا رأي أسد وكان عزم على لقائهم فخرج بالناس ركعتين طولهما ثم استقبل القبلة ونادى في الناس: ادعوا الله تعالى وأطال الدعاء فلما فرغ قال: نصرتم ورب الكعبة إن شاء الله تعالى! ثم سار فلما جاز قنطرة عطاء نزل وأراد المقام حتى يتلاحق به الناس ثم أمر بالرحيل وقال: لا حاجة بنا إلى المتخلفين.

ثم ارتحل وعلى مقدمته سالم بن منصور البجلي في ثلاثمائة فلقي ثلاثمائة من الترك طليعة

لخاقان فأسر قائدهم وسبعة معه وهرب بقيتهم فأتي به أسد فبكى التركي فقال: ما يبكيك قال: لست أبكي لنفسي ولكني أبكي لهلاك خاقان إنه قد فرق جنوده بينه وبين مرو.

فسار أسد حتى شارف مدينة الجوزيجان فنزل عليها على فرسخين من خاقان وكان قد استباحها خاقان فلما أصبحوا تراءى العسكران فقال خاقان للحارث بن سريج: ألم تكن أخبرتني أن أسدًا لا حراك به وهذه العساكر قد أقبلت من هذا قال: هذا محمد بن المثنى ورايته.

فبعث خاقان طليعة وقال: انظروا هل ترون على الإبل سريرًا وكراسي فعادوا إليه فأخبروه أنهم رأوها فقال خاقان: هذا أسد.

وسار أسد قدر غلوة فلقيه سالم بن جناح فقال: أبشر أيها الأمير قد حزرتم ولا يبلغون أربعة آلاف وأرجوا أن يكون خاقان عقير الله.

فصف أسد أصحابه وعبى خاقان أصحابه فلما التقوا حمل الحارث ومن معه من الصغد وغيرهم وكانوا ميمنة خاقان على ميسره أسد فهزمهم فلم يردهم شيء دون رواق أسد وحملت ميمنة أسد وهم الجوزجان والأزد وتميم عليهم فانهزم الحارث ومن معه وانهزمت الترك جيمعها وحمل الناس جميعًا فتفرق الترك في الأرض لا يلوون على أحد فتبعهم الناس مقدار ثلاثة فراسخ يقتلون من يقدرون عليه حتى انتهوا إلى وأخذ خاقان طريقًا في الجبل والحارث يحميه وسار منهزمًا فقال الجوزجاني لعثمان بن عبد الله بن الشخير: إني لأعلم ببلادي وبطرقها فهل تتبعني لعلنا نهلك خاقان قال: نعم فأخذا طريقًا وسارا ومن معهما حتى أشرفوا على خاقان فأوقعوا به فولى منهزمًا فحوى المسلمون عسكر الترك وما فيه من الأموال ووجدوا فيه من نساء العرب والموليات من نساء الترك من كل شيء.

ووحل بخاقان برذونه فحماه الحارث بن سريج ولم يعلم الناس أنه خاقان وأراد الخصي الذي لخاقان أن يحمل امرأة خاقان فأعجلوه فقتلها واستنقذوا من كان مع خاقان من المسلمين.

وتتبع أسد خيل الترك التي فرقها في الغارة إلى مرو الوذ وغيرها فقتل من قدر عليه منهم ولم ينج منهم غير القليل ورجع إلى بلخ.

وكان بشر الكرماني في السرايا فيصيبون من الترك الرجل والرجلين وأكثر.

انتهى .

استخدام الدليل

من أولويات القائد الناجح معرفة كل ما يتعلق بالأرض من الناحية الجغرافية ومواقع المياه وطبيعة السكان والطرق والمخارج وإمكانية العبور وغيره ، وقد لا يتسنى معرفته عن طريق الخرائط فقط ، فتبرز هنا الحاجة إلى [الدليل] وكما قيل (أهل مكة أدرى بشعابها) فكم من جيوش هلكت بسبب دخولها في متاهات يصعب الخروج منها أو البقاء فيها لقلة الموارد ، ولا يقتصر هذا الأمر على الجيوش في السابق بل قد يحدث في العصر الحديث كما حصل في هلاك الجيش الألماني في ثلوج سيبيريا إبان الحرب العالمية الأولى .
ولا يشترط في الدليل أن يكون مسلما ولكن يشترط أن يكون مؤتمنا كما استخدم النبي صلى الله عليه وسلم عبدالله بن أريقط كدليل أثناء الهجرة ، وكما في استخدام أسد بن عبدالله للجوزجاني كدليل في بلاد الجوزجان .

49 - غزو [الشاش].

قال ابن الأثير رحمه الله :

وفي هذه السنة غزا نصر بن سيار ما وراء النهر مرتين وإحداهما من نحو الباب الجديد فسار من بلخ من تلك الناحية ثم رجع إلى مرو فخطب الناس وأخبرتهم أنه قد أقام منصور بن عمر بن أبي الخرقاء على كشف المظالم وأنه قد وضع الجزية عمن قد أسلم وجعلها على من كان يخففف عنه من المشركين.

فلم تمض جمعة حتى أتاه ثلاثون ألف مسلم كانوا يؤدون الجزية عن رؤوسهم وثمانون ألفًا من المشركين كانت قد ألقيت عنهم فحول ما كان على المسلمين غليهم ووضعه عن المسلمين ثم صنف الخراج ووضعه مواضعه.

ثم غزا الثانية إلى ورغسر وسمرقند ثم رجع.

ثم غزا الثالثة إلى الشاش من مرو فحال بينه وبين عبور نهر الشاش كورصول في خمسة عشر ألفًا وكان معهم الحارث بن سريج.

وعبر كورصول في أربعين رجلًا فبيت أهل العسكر في ليلٍة مظلمة ومع نصر بخار أخذاه في أهل بخارى ومعه أهل سمرقند وكش ونسف وهم عشرون ألفًا فنادى نصر: أى يخرج أحد واثبتوا على مواضعكم.

فخرج عاصم بن عمير وهو على جند سمرقند فمرت به خيل الترك فحمل على رجل في آخرهم فأسره فإذا هو ملك من ملوكهم صاحب أربعة آلاف قبة فأتي به إلى نصر فقال له نصر: من أنت قال: كورصول.

فقال نصر: الحمد الله الذي أمكن منك يا عدوا الله.

قال: ما ترجو من قتل شيخ وأنا أعطيك أربعة آلاف بعير من إبل الترك وألف برذون تقوي بها جندك وطلق سبيلي.

فاستشار نصر أصحابه فأشاروا بإطلاقه فسأله عن عمره قال: لا أدري.

قال: كم غزوت قال: اثنتين وسبعين غزوة.

قال: أشهدت يوم العطش قال: نعم.

قال: لو أعطيتني ما طلعت عليه الشمس ما أفلت من يدي بعد ما ذكرت من شماهك.

وقال لعاصم بن عمير السعدي: قم إلى سلبه فخذه.

فقال: من أسرني قال نصر وهو يضحك: أسرك يزيد بن قران الحنظلي وأشار إليه: قال: هذا لا يستطيع أن يغسل استه أو لا يستطيع أن يتم له بوله فكيف يأسنري أخبرني من أسرني قال: أسرك عاصم بن عمير.

قال: لست أجد ألم القتل إذا كان أسرني فارس من فرسان العرب.

فقتله وصلبه على شاطئ النهر.

وعاصم بن عمير هو الهزارمرد قتل بنهاوند أيام قحطبة.فلما قتل كورصول أحرقت الترك أبنيته وقطعوا آذانهم وقصوا شعورهم وأذناب خيلهم.

فلما أراد نصر الرجوع أحرقه لئلا يحملوا عظامه فكان ذلك أشد عليهم من قتله وارتفع إلى فرغانة فسبى بها ألف رأس.

انتهى .

الفعل الأشد على نفوس الأعداء

قام نصر بن سيار بحرق جثة[كورصول] بعد قتله ، وكما قال ابن الأثير (إن حرق الجثة كان أشد على نفوس الترك من قتله) .
ولا أريد أن أتعرض للحكم الشرعي في حرق جثة الملك فقد تكون هناك أحوال وظروف أجازت ذلك الفعل .
ولكن ما يهمني هنا هو الانتباه إلى أن بعض الأفعال أشد على نفوس أعدائنا من بعض الأفعال التي نرى أنها أقوى وأعنف .

فقتل الملك هنا لم يعمل في نفوس الترك ما عمله حرق جثته وهذا الأمر مطرد في كل ما نعامل به أعداءنا ، كما كان الحال مع بني النضير فالحصار لم يؤذيهم كثيرا ولكن عندما حرق النبي صلى الله عليه وسلم نخيلهم تأثروا بذلك كثيرا وراسلوا النبي صلى الله عليه وسلم ونزلوا على حكمه فأجلاهم .
فهناك من الأعداء من لا يهتم بعدد قتلاه بقدر ما يفقد صوابه إن دمرنا بعض منشآته الاقتصادية .
وهناك من لا يتحمل الزيادة في عدد القتلى في صفوفه .
وهناك أيضا من لا يتحمل ظهور بعض الصور المؤلمة لجنوده لما له تأثير كبير على الرأي العام الذي يضغط بقوة للانسحاب من المعركة كما حدث من جراء ظهور مشاهد سحل الجندي الأمريكي في الصومال عام 1414 للهجرة .

50 - سقوط [ملطية].

قال ابن الأثير رحمه الله :

في هذه السنة أقبل قسطنطين ملك الروم إلى ملطية وكمخ فنازل كمخ فأرسل أهلها إلى أهل ملطية يستنجدونهم فسار إليهم منها ثمانمائة مقاتل فقاتلهم الروم فانهزم المسلمون ونازل الروم فأرسل قسطنطين إلى أهل ملطية: إني لم أحصركم إلا على علم من المسلمين واختلافهم فلكم الأمان وعودوا إلى بلاد المسلمين حتى أحترث ملطية.

فلم يجيبوه إلى ذلك فنصب المجانيق فأذعنوا وسلموا البلاد على المان وانتقلوا إلى بلاد الإسلام وحملوا ما أمكنهم حمله وما لم قدروا على حمله ألقوه في الآبار والمجاري.

فلما ساروا عنها أخربها الروم ورحلوا عنها عائدين وتفرق أهلها في بلاد الجزيرة.

انتهى .

خطر الخلاف على الأمة

قال الله تعالى {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا}
وقال النبي صلى الله عليه وسلم "يد الله مع الجماعة" .

يأتي سقوط مدينة [ملطية] بأيدي الروم بعدما حل بالمسلمين من اختلاف وافتراق في الكلمة وهي محصلة طبيعية لطمع الناس فيهم وتجرؤ من لم يكن يتجرأ عليهم من قبل .

فالخلاف شر وأول شروره على الدولة الإسلامية تسلط الأعداء المتربصين بها وهو دأب الخصوم منذ القدم خاصة إن كان الخصم يحاربك عن عقيدة كالنصارى الذين قال الله فيهم {وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا} .
ولا يكف طمع هؤلاء إلا الاجتماع ووحدة الكلمة فهي التي تغيظهم وتكف بأسهم ، وقد مر علينا في صدر الإسلام كيف أن ملك الروم حاول غزو الشام في عهد معاوية رضي الله عنه مستغلا خلافه مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فما كان من داهية العرب معاوية إلا أن قطع طمعه بورقة صغيرة كتب عليها (والله إن لم تنته وترجع إلى بلادك يا لعين لأصطلحن أنا وابن عمي عليك ولأخرجنك من جميع بلادك ولأضيقن عليك الأرض بما رحبت) .
أما الآن فالأمة في أشد حالات الضعف لأنها جزئت إلى دويلات صغيرة لا حول لها ولا قوة ، وقد كرس الاستعمار مفاهيم القومية والوطنية حتى يرسخ هذا التفرق ويضمن بذلك الضعف الدائم للمسلمين ، ولا يمكن علاج الوضع الراهن إلا بإعادة الخلافة الإسلامية التي يهتز الأعداء رعبا عند ذكرها فهي السبيل الوحيد لنفض غبار الذل عن الأمة .

51 - سقوط [مرج الخصى].

قال ابن الأثير رحمه الله :

وسار ملك الروم إلى قاليقلا فنزل مرج الخصي وأرسل كوشان الأرمني فحصرها فنقب إخوان من الأرمن من أهل المدينة ردمًا كان في سورها فدخل كوشان ومن معه المدينة وغلبوا عليها وقتلوا رجالها وسبوا النساء وساق القائم إلى ملك الروم.

انتهى .

الخطر الداخلي

قال الله تعالى: {وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً }
وقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ}
ومن أوجب ما نأخذ منه الحذر هو العدو الداخلي والذي لا يظهر إلا في الأوقات الحرجة علينا كما هو حال المنافقين وسنتهم في كل زمان منذ بداية ظهورهم في الدولة النبوية عندما قالوا {مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً} .
فعند انشغال الحرب يجب تحصين الجبهة الداخلية ، ووضع العين على مكامن الخطر المتمثلة في الأقليات التي لم يثبت منها الإسلام أو فيمن نشك بنفاقه أو في أهل الذمة إن القتال مع إخوانهم في الدين .

فعندما نقاتل النصارى نأخذ الحذر من النصارى الذين بيننا ، وعندما نقاتل الهندوس نراقب تجمعاتهم السكانية على أراضينا وهكذا ، حتى لا نؤخذ على حين غرة كما فعل بالمسلمين في [مرج العصا] على يد الأرمن الذين هبوا لمساعدة إخوانهم الغزاة .

52 - فتح [طبرستان].

قال ابن الأثير رحمه الله :

ولما ظفر المهدي بعبد الجبار بغير تعب ولا مباشرة قتل كره المنصور أن تبطل تلك النفقات التي أنفق على المهدي فكتب إليه أن يغزو طبرستان وينزل الري ويوجه أبا الخصيب وخازم بن خزيمة والجنود إلى الأصبهبذ وكان الأصبهبذ يومئذ محاربًا للمصمغان ملك دنباوند معسكرًا بإزائه فلما بلغه دخول الجنود بلاده ودخول أبي الخصيب سارية قال المصمغان للأصبهبذ: متى قهروك صاروا إلي فاجتمعا على حرب المسلمين.

فانصرف الأصبهبذ إلى بلاده فحارب المسلمين فطالت تلك الحروب فوجه المنصور عمر بن العلاء إلى طبرستان وهو الذي يقول فيه بشار:
إذا أيقظتك حروب العدى فنبه لها عمرًا ثم نم
وكان علمًا ببلاد طبرستان فأخذ الجنود وقصد الرويان وفتحها وأخذ قلعة الطاق وما فيها وطالت الحرب فألح خازم على القتال ففتح طبرستان وقتل منهم فأكثر وسار الأصبهبذ إلى قلعته فطلب الأمان على أن يسلم القلعة بما فها من الذخائر وكتب المهدي بذلك إلى المنصور فوجه المنصور صالحًا صاحب المصلى فأحصوا ما في الحصن وانصرفوا ودخل الأصبهبذ بلاد جيلان من الديلم فمات بها وأخذت ابنته وهي أم إبراهيم بن العباس بن محمد.

انتهى .

الرجل المناسب في المكان المناسب

يقال لكل مقام مقال ، ونستطيع أن نقول هنا لكل حرب رجال ، فأصحاب الرتب العسكرية الكبيرة كلواء وعقيد وغيرها قد لا يفلحوا في إدارة حرب العصابات ، والعكس صحيح فرجال حرب العصابات قد لا يفلحون في إدارة الحرب النظامية ، وأيضا على مستوى الوقت نجد بعض القادة يتميزون بالنفس الطويل في الحروب أما البعض الآخر فيعتمدون على الحسم السريع للخروج بأفضل النتائج ، وهذا كله يرجع إلى نوعية القائد وطبيعته القتالية .
فعند تأخر النصر مع توفر جميع أسبابه الشرعية والمادية عندها قد نقول أن القائد هو السبب ، لأن نمط وأسلوب قتاله وإدارته للمعركة غير مناسب فيكون الحل الوحيد هو تغيير القائد والبحث عن الرجل المناسب لهذه المهمة كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في فتح خيبر عندما كان يعقد كل يوم راية ويبعث بها أميرا فإن لم يفتح له بعث في اليوم التالي غيره حتى فتح على يد علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

وكما فتحت هنا [طبرستان] على يد عمر بن العلاء بعد أن استعصت على من قبله ، لأنه كان الرجل المناسب في المكان المناسب .

53 - غزو الروم عام ثلاث وستين ومائة للهجرة.

قال ابن الأثير رحمه الله :

في هذه السنة تجهز المهدي لغزو الروم فخرج وعسكر بالبردان وجمع الأجناد من خراسان وغيرها وسار عنها وكان قد توفي عيسى بن علي بن عبد الله بن عباس في جمادى الآخرة وسار المهدي من الغد واستخلف على بغداد ابنه موسى الهادي واستصحب معه ابنه هارون الرشيد وسار على الموصل والجزيرة وعزل عنها عبد الصمد بن علي في مسيرة ذلك.

ولما حاذى قصر مسلمة بن عبد الملك قال العباس بن محمد بن علي للمهدي: إن لمسلمة في أعناقنا منة كان محمد بن علي مر به فأعطاه أربعة آلاف دينار وقال له: إذا نفدت فلا تحتشمنا! فأحضر المهدي ولد مسلمة ومواليه وأمر لهم بعشرين ألف دينار وأجرى عليهم الأرزاق وعبر الفرات إلى حلب وأرسل وهو بحلب فجمع من بتلك الناحية من الزنادقة فجمعوا فقتلهم وقطع كتبهم بالسكاكين وسار عنها مشيعًا لابنه هارون الرشيد حتى جاز الدرب وبلغ جيحان فسار هارون ومعه عيسى بن موسى وعبد الملك بن صالح والربيع والحسن بن قحطبة والحسن وسليمان ابنا برمك ويحيى بن خالد بن برمك وكان إليه أمر العسكر والنفقات والكتابة وغير ذلك فساروا فنزلوا على حصن سمالوا فحصره هارون ثمانية وثلاثين يومًا ونصب عليه المجانيق ففتحه الله عليهم بالأمان ووفى لهم وفتحوا فتوحًا كثيرة.

انتهى .

تشييع الغزاة

ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه شيع النفر الذين وجههم لقتل كعب بن الأشرف ، وورد أيضا أن أبا بكر الصديق شيع الجيش وهو خارج من المدينة قاصدا الشام بقيادة يزيد بن أبي سفيان وقال (ما علي أن أغبر قدماي في سبيل الله) .
إن استقبال وتوديع المجاهدين له أثر طيب على نفوسهم خاصة عندما يرون كبار القوم من حولهم كالخليفة [المهدي] في هذه الغزوة ، لأنهم يشعرون بعظم المسئولية الملقاة على كاهلهم وأنهم طليعة الأمة التي بنصرها تعز الأمة وبهزيمتها تكون الأمة في خطر .
وهذا الشعور ضروري جدا في رفع معنوياتهم القتالية وقد نجده في كل أمة بلون مختلف ، من عزف الموسيقى وضرب الطبول وغيره ، ولكن في الإسلام لمسة حانية من كل صغير وكبير وسط الدعاء والابتهال إلى الله عز وجل بأن ترفقهم السلامة وينزل عليهم النصر .

54 - غزو [استرقة].

قال ابن الأثير رحمه الله :

وفيها سير هشام صاحب الأندلس جيشًا كثيفًا عليهم عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث إلى جليقية فساروا حتى انتهوا إلى استرقة وكان أذفونش ملك الجلالقة قد جمع وحشد وأمده ملك البشكنس وهم جيرانه ومن يليهم من المجوس وأهل تلك النواحي فصار في جمع عظيم فأقدم عليه عبد الملك فرجع أذفونش هيبة له وتبعهم عبد الملك يقفو أثرهم ويهلك كل من تخلف منهم فدوخ بلادهم وأوغل فيها وأقام فيها يغنم ويقتل ويخرب وهتك حريم أذفونش ورجع سالمًا.

انتهى .

الرهبة

كثيرا ما يدفع شرور الأعداء عنا صورتنا التي تشكلت في أذهانهم .
فعندما تكون هذه الصورة مهزوزة فمن السهل حينها التجرؤ علينا والاستخفاف بنا ، وعندما تكون هذه الصورة مرعبة فلن يتجرأ أحد على الدخول معنا في مواجهة .
هذه الرهبة وهذا الرعب هو الذراع العسكري الحقيقي للمجاهدين وهو ما أيد الله به تعالى النبي صلى الله عليه وسلم كما في الحديث "نصرت بالرعب مسيرة شهر" وهذا التأييد الإلهي باق لمن سار على ما سار عليه النبي صلى الله عليه وسلم .

ولا تأتي هذه الرهبة من فراغ فلا بد من إرهاب قوي في البداية حتى يرسخ في أذهان الأعداء أن قتالنا لا هوادة فيه ، وقد أمر الله تعالى بهذه البداية القوية في قوله {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ}.
فالإثخان وهو المبالغة في القتل هو من يزرع الرعب والرهبة في صدور أعدائنا ، وهو ما زرعه عبدالملك بن عبدالواحد في صدر أدفونش فلم يلبث أن فر من أمامه مع أنه هو من حشد عليه .

55 - غزو الفرنج للأندلس عام واحد وسبعين ومائة للهجرة.

قال ابن الأثير رحمه الله :

تجهز لذريق ملك الفرنج بالأندلس وجمع جموعه ليسير إلى مدينة طرطوشة ليحصرها فبلغ ذلك الحكم فجمع العساكر وسيرها مع ولده عبد الرحمن فاجتمعوا في جيش عظيم وتبعهم كثير من المتطوعة فساروا فلقوا الفرنج في أطراف بلادهم قبل أن ينالوا من بلاد المسلمين شيئا فاقتتلوا وبذل كل من الطائفتين جهده واستنفد وسعه فأنزل الله تعالى نصره على المسلمين فانهزم الكفار وكثر القتل فيهم والأسر ونهبت أموالهم وأثقالهم وعاد المسلمون ظافرين غانمين

انتهى .

بذل الجهد في القتال

الجهاد عبادة وفريضة يتوقف قبولها على أدائها على الوجه الذي يرضي الله سبحانه وتعالى ، أما النصر فمن عند الله وحده يؤتيه من يشاء .
فليس من الواجب الشرعي أن ينتصر المجاهد في المعركة إنما الواجب عليه أن يثبت فيها ويبذل وسعه في القتال والصبر حتى يقضي الله بينه وبين خصومه كما حصل بين المسلمين والكفار في هذه الغزوة .
فالمجاهد قد يحاسب ويلام على تقصيره في المعركة ، ولكنه لا يحاسب على نتيجة المعركة التي قد تكون الهزيمة فيها بسبب غيره أو لحكمة أرادها الله تعالى .
أما هو فمعركته الحقيقية هي في الثبات على أمر الله تعالى وبذل جهده في ذلك ، ولا يهمه ما يكون بعد ذلك فإن انتصر فهي إحدى الحسنيين وإن هزم أو أصيب فقد كمل أجره كما قال النبي صلى الله عليه وسلم "ما من غازية أو سرية تغزو فتغنم وتسلم إلا كانوا قد تعجلوا ثلثي أجورهم ، وما من غازية أو سرية تخفق وتصاب إلا تم لهم أجورهم" .

56 - غزو الفرنج للمسلمين عام أربعة وتسعين ومائة للهجرة.

قال ابن الأثير رحمه الله :

عاود أهل ماردة الخلاف على الحكم بن هشام أمير الأندلس وعصوا عليه فسار بنفسه إليهم وقاتلهم ولم تزل سراياه وجيوشه تتردد وتقاتلهم هذه السنة وسنة خمس وسنة ست وتسعين ومائة.

وطمع الفرنج في ثغور المسلمين وقصدوها بالغارة والقتل والنهب والسبي وكان الحكم مشغولًا بأهل ماردة فلم يتفرغ للفرنج فأتاه الخبر بشدة الأمر على أهل الثغر وما بلغ العدو منهم وسمع أن امرأة مسلمة أخذت سبية فنادت: واغوثاه يا حكم! فعظم الأمر عليه وجمع عسكره واستعد وحشد وسار إلى بلد الفرنج سنة ست وتسعين ومائة وأثخن في بلادهم وافتتح عدة حصون وخرب البلاد ونهبها وقتل الرجال وسبى الحريم ونهب الأموال وقصد الناحية التي كانت بها تلك المرأة فأمر لهم من الأسرى بما يفادون به أسراهم وبالغ في الوصية في تخليص تلك المرأة فتخلصت من الأسر وقتل باقي الأسرى فلما فرغ من غزاته قال لأهل الثغور: هل أغاثكم الحكم فقالوا: نعم ودعوا له واثنوا عليه خيرا وعاد إلى قرطبة مظفرًا.

انتهى .

إغاثة المسلمين

بايع النبي صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية على الموت لما بلغه خبر قتل عثمان بن عفان فأراد غزو مكة وقتال أهلها من أجل الثأر لمقتل رجل واحد فقط .
وخرج المعتصم على رأس جيش كبير لأن امرأة مسلمة صرخت [وامعتصماه] وهي نفس الصرخة التي حركت جيش الحكم بن هشام ليغيث المسلمين .
إن تحريك هذه الجيوش الضخمة من أجل إغاثة جيش واحد أو امرأة ضعيفة أو مجموعة قليلة من الناس قد يكون في حسابات أهل الدنيا من المعارك المكلفة أو التي لا تستحق المجازفة . ولكنه في حساب أهل الإيمان معركة رابحة في الدنيا والآخرة .

فالأمم من حولنا إن علموا أن جيوشنا تتحرك من أجل مسلم واحد أو مسلمة فلن يتجرؤوا على إيذاء أي مسلم وإن كان بيننا وبينهم آلاف الأميال ، ونحن عندما نتحرك لاستنقاذ أو إغاثة المستضعفين من المسلمين فإننا نتحرك لأداء واجب شرعي نأثم بتركه ، فقد جاءنا في الحديث "ما من امرئ يخذل امرءا مسلما في موطن ينتقص فيه من عرضه وينتهك من حرمته إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته".
ولهذا أحب الحكم بن هشام أن يتأكد من رعاياه الذين هب لنصرتهم فقال (هل أغاثكم الحكم؟).

57 - ما فتح من جزيرة صقلية.

قال ابن الأثير رحمه الله :

في سنة اثنتي عشرة ومائتين جهز زيادة الله جيشًا في البحر وسيرهم إلى جزيرة صقلية واستعمل عليهم أسد بن الفرات قاضي القيروان وهو من أصحاب مالك وهو مصنف الأسدية في الفقه على مذهب مالك فلما وصلوا إليها ملكوا كثيرًا منها.

وكان سبب إنفاذ الجيش أن ملك الروم بالقسطنطينية استعمل على جزيرة صقلية بطريقًا اسمه قسطنطين سنة إحدى عشرة ومائتين فلما وصل إليها استعمل على جيش الأسطول إنسانًا روميًا اسمه فيمي كان حازما شجاعا فغزا إفريقية وأخذ من سواحلها تجارا ونهب وبقي هناك مديدة.

ثم إن ملك الروم كتب إلى قسطنطين يأمره بالقبض على فيمي مقدم الأسطول وتعذيبه فبلغ الخبر إلى فيمي فأعلم أصحابه فغضبوا له وأعانوه على المخالفة فسار في مراكبه إلى صقلية واستولى على مدينة سرقوسة فسار إليه قسطنطين فالتقوا واقتتلوا فانهزم قسطنطين إلى مدينة قطانية فسير إليه فيمي جيشا فهرب منهم فاخذ وقتل وخوطب فيمي بالملك

واستعمل على ناحية من الجزيرة رجلًا اسمه بالطه فخالف على فيمي وعصى واتفق هو وابن عم له اسمه ميخائيل وهو والي مدينة بلرم وجمعا عسكرًا كثيرا فقاتلا فيمي وانهزم فاستولى بلاطه على مدينة سرقوسة.

وركب فيمي ومن معه في مراكبهم إلى إفريقية وأرسل إلى الأمير زيادة الله يستنجده ويعده بملك جزيرة صقلية فسير معه جيشًا في ربيع الأول سنة اثنتي عشرة ومائتين فوصلوا إلى مدينة مارز

من صقلية فساروا إلى بلاطه الذي قاتل فيمي فلقيهم جمع الروم فانهزمت الروم وغنم المسلمون أموالهم ودوابهم وهرب بلاطه إلى قلورية فقتل بها.

واستولى المسلمون على عدة حصون من الجزيرة ووصلوا إلى قلعة تعرف بقلعة الكراث وقد اجتمع إليها خلق كثير فخدعوا القاضي أسد بن الفرات أمير المسلمين وذلوا له فلما رآهم فيمي مال إليهم وراسلهم أن يثبتوا ويحفظوا بلدهم فبذلوا لأسد الجزية وسألوه أن لا يقرب منهم فأجابهم إلى ذلك وتأخر عنهم أياما فاستعدوا للحصار ودفعوا إليهم ما يحتاجون إليه فامتنعوا عليه وناصبهم الحرب وبث السرايا في كل ناحية فغنموا شيئًا كثيرا وافتتحوا عمرانًا كثيرًا حول سرقوسة وحاصروا سرقوسة برًا وبحرا ولحقته الأمداد من إفريقية فسار إليهم والي بلرم في عساكر كثيرة فخندق المسلمون عليهم وحفروا خارج الخندق حفرًا كثيرة فحمل .

انتهى .

العالم المجاهد

إن من أكبر ما يرفع الهمم بين صفوف المجاهدين قديما وحديثا هو خروج العلماء الربانيين للجهاد ، فالعالم المجاهد يعتبر صمام أمان بين المجاهدين لأن الجهاد عبادة يعتمد على الحركة ، ولهذا نجد أن المسائل الفقهية فيه متغيرة من وقت إلى وقت ومن مكان لآخر وإن لم يكن هناك من يتصدى لهذه النوازل فسيقع المجاهدون في حيرة من أمرهم أو في أخطاء شرعية وإن كانت غير مقصودة .
ولما كان العلماء في السابق يشعرون بأهمية الجهاد للأمة خرجوا بأنفسهم وتركوا القضاء وحلقات العلم وتصنيف الكتب كما فعل أسد بن الفرات هنا، وعندما اختل هذا الميزان عند من بعدهم أصبح من النادر أن ترى عالما مجاهدا أو أصبح من قلة الحكمة عند الناس أن يخرج العالم للجهاد ويترك التصدي للفتيا والتعليم وغيره .

58 - فتح [هرقلة] عام ستة عشر ومئتين للهجرة.

قال ابن الأثير رحمه الله :

في هذه السنة عاد المأمون إلى بلاد الروم وسبب ذلك أنه بلغه أن ملك الروم قتل ألفًا وستمائة من أهل طرسوس والمصيصة فسار حتى دخل أرض الروم في جمادى الأولى فأقام إلى منتصف شعبان.

وقيل كان سبب دخوله إليها أن ملك الروم كتب إليه وبدا بنفسه فسار إليه ولم يقرأ كتابه فلما دخل أرض الروم أناخ على أنطيغوا فخرجوا على صلح ثم سار إلى هرقلة فخرج أهلها على صلح.

انتهى .

عزة المؤمن

تقديم اسم على اسم في رسالة لا يعتبر سببا كافيا لإقامة حرب في موازين السياسة الدولية ولكنها قد تكون علامة على قيام العدو بجس نبض لدينا عبر هذه الإشارات الصغيرة التي سيتعرف على حقيقة من يتعامل معه من خلالها ، فالمرة الأولى تكون رسالة والثانية تعديا بسيطا بدون اعتذار والثالثة إهانة صريحة حتى يكسر حاجز الرهبة ويوقن أنه يتعامل مع قادة ضعفاء وصيد سهل ، فهذه الإشارات ينبغي أن تكون لدينا معها خطوط حمراء لا يسمح بتجاوزها خاصة أن التعالي على خليفة المسلمين مثل المأمون هو تعالي على دولة الإسلام برمتها .

قال الله تعالى {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} وقال النبي صلى الله عليه وسلم "الإسلام يعلو ولا يعلى عليه".

وهذا الاستعلاء بالإيمان ملازم للمؤمن في ضعفه وقوته كما فعل ربعي بن عامر في مشيه على بساط رستم وهو يخرق الوسائد والحرير بحربته وسط ذهول الفرس من استهانته واستهزائه بهم .

أما إن تركنا الجهاد الذي تتحقق فيه عزة الأمة فسنكون أذنابا للأمم وسينظرون إلينا نظرة دونية كما هو الآن في تصنيفهم إيانا كدول عالم ثالث .

وصدق الصديق في قوله (ما ترك الجهاد قوم إلا ذلوا) .

59 - فتح [حصن البذ].

قال ابن الأثير رحمه الله :

وفي هذه السنة فتحت البذ مدينة بابك ودخلها المسلمون وخربوها واستباحوها وكان سبب ذلك أن الأفشين لما عزم على الدنو من البذ والرحيل من كلان روذ جعل يتقدم قليلًا قليلًا خلاف ما تقدم وكتب إليه المعتصم يأمره أن يجعل الناس نوائب يقفون على ظهور الخيل نوبًا في الليل مخافة البيات فضج الناس من التعب وقالوا: بيننا وبين العدو أربعة فراسخ ونحن نفعل أفعالًا كأن العدو بإزائها قد استحيينا من الناس أقدم بنا فإما لنا وإما علينا.

فقال: أعلم أن قولكم حق.

ولكن أمير المؤمنين أمرني بهذا.

فلم يلبث أن جاءه كتاب المعتصم يأمره أن يفعل كما كان يفعل فلم يزل كذلك أياما ثم انحدر حتى نزل روذ الروذ وتقدم حتى شارف الموضع الذي كانت به الوقعة في العام الماضي فوجد عليه كردوسًا من الخرمية فلم يحاربهم ولم يزل إلى الظهر ثم رجع إلى معسكره فمكث يومين ثم عاد في أكثر من الذين كانوا معهم ولم يقاتلهم وأقام الأفشين بروذ الروذ وأمر الكوهبانية وهم أصحاب الأخبار أن ينظروا له في رؤوس الجبال مواضع يتحصن فيها الرجالة.

فاختاروا له ثلاثة أجبل كان عليها حصون فخربت فاخذ معه الفعلة وسار نحو هذه الجبال وأخذ معه الكعك والسويق وأمر الفعلة بنقل الحجارة وسد الطريق إلى تلك الجبال حتى صارت كالحصون وأمر بحفر خندق على كل طريق وراء تلك الحجارة ولم يترك مسلكًا إلى الجبال منها إلا مسلكًا واحدا ففرغ من الذي أراد من حفر الخنادق في عشرة أيام هو والناس

فلما فرغ منها ادخل الرجالة إليها وأنفذ إليه بابك رسولًا ومعه قثاء وبطيخ وخيار ويعلمه أنه قد تعب وشقي من أكل الكعك وأننا في عيش رغد.

فقبل ذلك منه وقال: قد عرفت ما أراد أخي وأصعد الرسول فأراه ما عمل وأطاف به خنادقه كلها وقال اذهب فعرفه ما رأيت.

وكان جماعة من الخرمية يأتون إلى قرب خندق الأفشين فيصيحون فلم يترك الأفشين أحدًا يخرج إليهم فعلوا ذلك ثلاثة أيام ثم إن الأفشين كمن لهم كمينا فلما جاؤوا ثاروا عليهم فهربوا ولم يعودوا.

وعبأ الأفشين أصحابه وأمر كلًا منهم بلزوم موضعه وكان يركب والناس في مواقفهم فكان يصلي الصبح بغلس ثم يضرب ويسير زحفا وكانت علامته في المسير والوقوف ضرب الطبول لكثرة الناس ومسيرهم في الجبال والأودية على مصافهم فإذا سار ضربها وإذا وقف أمسك عن ضربها فيقف الناس جميعا ويسيرون جميعًا.

وكان يسير قليلًا قليلًا كلما جاءه كوهباني بخبر سار أوقف وكان إذا أراد أن يتقدم إلى المكان الذي كانت به الوقعة عام أول خلف بخاراخذاه على رأس العقبة في ألف فارس وستمائة راجل يحفظون الطريق لئلا يأخذه الخرمية عليهم.

وكان بابك إذا أحس بمجيئهم وجه جمعًا من أصحابه فيكمنون في واد تحت تلك العقبة تحت بخاراخذاه واجتهد الأفشين أن يعرف مكان كمين بابك فلم يعلم بهم وكان يأمر أبا سعيد أن يعبر الوادي في كردوس ويأمر جعفرًا الخياط أن يعبر في كردوس ويأمر أحمد بن الخليل بن هشام أن يعبر في كردوس آخر فيصير في ذلك الجانب ثلاثة كراديس في طرف أبياتهم وكان بابك يخرج عسكره فيقف بإزاء هذه الكراديس لئلا يتقدم منهم أحد إلى باب البذ.

وكان يفرق عساكره كمينا ولم يبق إلا في نفر يسير.

وكان الأفشين يجلس على تل مشرف ينظر إلى قصر بابك والناس كراديس فمن كان معه من هذا الجانب من الوادي نزل عن دابته ومن كان من ذلك الجانب مع أبي سعيد وجعفر وأحمد بن الخليل لم ينزل القرية من العدو وكان بابك وأصحابه يشربون الخمر ويضربون بالسرنائي فإذا صلى الأفشين الظهر رجع إلى خندقه بروذ الروذ فكان يرجع أولًا أقربهم إلى العدو ثم الذي يليه ثم الذي يليه فكان آخر من يرجع بخاراخذاه لأنه كان أبعدهم عن العدو فإذا رجعوا صاح بهم الخرمية.

فلما كان في بعض الأيام الخرمية من المطاولة وانصرف الأفشين كعادته وعادت الكراديس التي بذلك الجانب من الوادي ولم يبق إلا جعفر الخياط ففتح الخرمية باب البذ وخرج منهم جماعة

على أصحاب جعفر وارتفعت الصيحة فتقدم جعفر بنفسه فرد أولئك الخرمية إلى باب البذ ووقعت الصيحة في العسكر فرجع الأفشين فرأى جعفرًا وأصحابه يقاتلون وخرج من الفريقين جماعة وجلس الأفشين في مكانه وهو يتلظى على جعفر ويقول: أفسد عليّ تعبيتي.

وارتفعت الصيحة فكان مع أبي دلف قوم من المتطوعة فعبروا إلى جعفر بغير أمر الأفشين وتعلقوا بالبذ وأثروا فيه أثرا وكادوا يصعدونه فيدخلون البذ ووجه جعفر إلى الأفشين أن أمدني بخمس مائة راجل من الناشبة فإني أرجو أن أدخل البذ إن شاء الله تعالى فبعث إليه الأفشين: إنك أفسدت عليّ أمري فتخلص قليلًا قليلا وخلص أصحابك وانصرف وارتفعت الصيحة من المتطوعة حتى تعلقوا بالبذ وظن الكمناء الذين لبابك أن الحرب قد اشتبكت فوثب بعضهم من تحت بخاراخذاه ووثب بعضهم من ناحية أخرى فتحركت الكمناء من الخرمية والناس على رؤوسهم فلم يزل منهم أحد فقال الأفشين: الحمد لله الذي بين مواضع هؤلاء.

ورجع جعفر وأصحابه والمتطوعة فجاء جعفر إلى الأفشين فأنكر عليه حيث لم يمده وجرى بينهما نفرة شديدة وجاء رجل من المتطوعة ومعه صخرة فقال للأفشين: أتردنا وهذا الحجر أخذته من السور فقال: إذا انصرفت عرفت من على طريقك يعني الكمين الذي عند ثم رجع هو وأصحابه على عادتهم فلما رأى هؤلاء الكمين الذي عند بخاراخذاه علموا ما كان وراءهم فإن بخاراخذاه لو تحرك نحو القتال لملكوا ذلك الموضع وهلك المسلمون عن آخرهم فأقام الأفشين بخندقه أياما فشكا المتطوعة إليه ضيق العلوفة والزاد والنفقة فقال: من صبر فليصبر ومن لا فالطريق واسع فلينصرف وفي جند أمير المؤمنين كفاية.

فانصرف المتطوعة يقولون: لوترك الأفشين جعفرًا وتركنا لأخذنا البذ لكنه يشتهي المطاولة فبلغه ذلك وما تتناوله المتطوعة بألسنتهم حتى قال بعضهم: إني رأيت رسول الله في المنام قال لي: قل للإفشين إن أنت حاربت هذا وجددت في أمره وإلا أمرت الجبال أن ترجمك بالحجارة فتحدث الناس بذلك فبلغ الأفشين فأحضره وسأله عن المنام فقصه عليه فقال: الله يعلم نيتي وما أريد بهذا الخلق وإن الله لو أمر الجبال برجم أحد لرجم هذا الكافر فكفانا مؤونته.

فقال رجل من المتطوعة: أيها الأمير لا تحرمنا شهادة إن كانت حضرت وإنا قصدنا ثواب الله ووجهه فدعنا وحدنا حتى نتقدم بعد أن يكون بإذنك لعل الله أن يفتح علينا.

فقال الأفشين: إني أرى نياتكم حاضرة وأحسب هذا الأمر يريده الله تعالى وهو خير إن شاء الله وقد نشطتم ونشط الناس وكان هذا رأيي وقد حدث الساعة لما سمعت من كلامكم اعزموا على بركة الله أي يوم أردتم حتى نناهضه ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فخرجوا مستبشرين فتأخر من أراد الانصراف ووعد الأفشين الناس ليوم ذكره لهم وأمر الناس بالتجهز وحمل المال والزاد والماء وجعل المحامل على البغال تحمل الجرحى وزحف بالناس ذلك اليوم وجعل بخاراخذاه بمكانه على العقبة وجلس الأفشين بالمكان الذي كان يجلس فيه وقال لأبي دلف: قل للمتطوعة أي ناحية أسهل عليكم فاقتصروا عليها.

فقال لجعفر: العسكر كله بين يديك والنشابة والنفاطون فإن أردت فخذ منهم ما تريد واعزم على بركة الله وتقدم من أي موضع تريد.

فسار إلى الموضع الذي كان به ذلك اليوم وقال لأبي سعيد: قف عندي أنت وأصحابك وقال لجعفر: قف أنت ها هنا لمكان عينه له فإن أراد جعفر رجالًا أو فرسانًا أمددناه.

وتقدم جعفر والمتطوعة فقاتلوا وتعلقوا بسور البذ وضرب جعفر باب البذ ووقف عنده يقاتل عليه ووجه الأفشين إليه وإلى المتطوعة بالأموال لتفرق فيهم ويعطي من تقدم وأمدهم بالفعلة معهم الفؤوس وبعث إليهم بالمياه لئلا يعطشوا وبالكعك والسويق فاشتبكت الحرب على الباب طويلًا ففتحت الخرمية الباب وخرجوا على أصحاب جعفر فنحوهم عن الباب وشدوا على المتطوعة من الناحية الأخرى فطرحوهم عن السور ورموهم بالصخر وأثروا فيهم وضعفوا عن الحرب وأخذ جعفر من أصحابه نحو مائة رجل فوقفوا خلف تراسهم متحاجزين لا يقدم

وبعث الأفشين الرجالة الذين كانوا عنده نحو المطوعة وبعث إلى جعفر بعضهم خوفًا أن يطمع العدو فقال جعفر: لست أوتي من قلة ولكني لا أرى للحرب موضعًا يتقدمون فيه فأمره بالانصراف فانصرف.

وحمل الأفشين الجرحى ومن به من الحجارة فحملوا في المحامل على البغال وانصرفوا عنهم وأيس الناس من الفتح تلك السنة وانصرف أكثر المطوعة.

ثم إن الأفشين تجهز بعد جمعتين فلما كان جوف الليل بعث الرجالة الناشبة وهم ألف رجل وأعطى كل واحد منهم شكوة وكعكا وأعطاهم أعلامًا غير مركبة وبعث معهم أدلاء فساروا في جبال منكرة صعبة في غير طريق حتى صاروا خلف التل الذي يقف آذين عليه وهو جبل شاهق وأمرهم أن لا يعلم بهم أحد حتى إذا رأوا أعلام الأفشين وصلوا الغداة ورأوا الوقعة ركبوا تلك الأعلام في الرماح وضربوا الطبول وانحدروا من فوق الجبل ورموا بالنشاب والصخر على الخرمية وإن هم لم يروا الأعلام لم يتحركوا حتى يأتيهم خبره.

ففعلوا ذلك فوصلوا إلى رأس الجبل عند السحر فلما كان في بعض الليل وجه الأفشين إلى الجند وأمرهم بالتجهز للحرب.

فلما كان في بعض الليل وجه بشيرًا التركي وقوادًا من الفراعنة كانوا معه فأمرهم أن يسيروا حتى يصيروا تحت التل الذي عليه آذين وكان يعلم أن بابك يكمن تحت ذلك الجبل فساروا

ليلا ولا يعلم بهم أكثر أهل العسكر ثم ركب هو والعسكر مع السحر فصلى الغداة وضرب الطبل وركب فأتى الموضع الذي كان يقف فيه فقعد على عادته وأمر بخاراخذاه أن يقف مع جعفر الخياط وأبي سعيد وأحمد بن الخليل بن هشام ونزل الموضع الذي كان يقف فيه فأنكر الناس ذلك وأمرهم أن يقربوا من التل الذي عليه آذين فيحدقوا به وكان قبل ينهاهم عنه.

ومضى الناس مع هؤلاء القواد الأربعة فكان جعفر مما يلي الباب وإلى جانبه أبوسعيد وإلى جانب أبي سعيد بخاراخذاه وكان أحمد مما يلي بخاراخذاه فصاروا جميعًا حول التل وارتفعت الضجة من

أسفل الوادي فوثب كمين بابك ببشير التركي والفراعنة فحاربوهم وسمع أهل العسكر صيحتهم فأرادوا الحركة فأمر الأفشين مناديًا ينادي فيهم أن بشيرًا قد أثار كمينا فلا يتحركن أحد فسكنوا ولما سمع الرجال الذين كان سيرهم حتى صاروا في أعلى الجيل ضجة العسكر ركبوا الأعلام على الرماح فنظر الناس إلى الأعلام تنحدر من الجبل على خيل آذين فوجه آذين إليهم بعض أصحابه.

وحمل جعفر وأصحابه على آذين وأصحابه حتى صعدوا إليه فحملوا عليه حملة منكرة فانحدر إلى الوادي وحمل عليه جماعة من أصحاب أبي سعيد فإذا تحت دوابهم آبار محفورة

فتساقطت الفرسان فيها فوجه الأفشين الفعلة يطمون تلك الآبار ففعلوا وحمل الناس عليهم حملة شديدة.

وكان آذين قد جعل فوق الجبل عجلًا عليها صخر فلما حمل الناس عليه دفع تلك العجل عليهم فأفرج الناس منها حتى تدحرجت ثم حمل الناس من كل وجه فلما نظر بابك إلى أصحابه قد أحدق بهم خرج من طرف البذ مما يلي الأفشين فأقبل نحوه فقيل للأفشين: إن هذا بابك يريدك فتقدم إليه حتى سمع كلامه وكلام أصحابه والحرب مشتبكة في ناحية آذين فقال: أريد الأمان من أمير المؤمنين فقال له الأفشين: قد عرضت هذا عليك وهو لك مبذول متى شئت فقال: قد شئت الآن على أن تؤخرني حتى أحمل عيالي وأتجهز فقال له الأفشين: أنا أنصحك خروجك اليوم خير من غد قال: قد قبلت هذا قال الأفشين: فابعث بالرهائن! فقال: نعم أما فلان وفلان فهم على ذلك التل فمر أصحابك بالتوقف.

فجاء رسول الأفشين ليرد الناس فقيل له إن أعلام الفراعنة قد دخلت البذ وصعدوا بها القصور فركب وصاح بالناس فدخل ودخلوا وصعد الناس بالأعلام فوق قصور بابك وكان قد كمن في قصوره وهي أربعة ستمائة رجل فخرجوا على الناس فقاتلوهم ومر بابك حتى دخل الوادي الذي يلي هشتادسر واشتغل الأفشين ومن معه بالحرب على أبواب القصور فأحضر النفاطين فأحرقوها وهدم الناس القصور فقتلوا الخرمية عن آخرهم وأخذ الأفشين أولاد بابك وعيالاته وبقي هناك حتي أدركه المساء فأمر الناس بالانصراف فرجعوا إلى الخندق بروذ الروذ.

انتهى.

كشف مواقع العدو

تعتمد بعض الأساليب القتالية الحديثة على هجوم وهمي يكون الغرض منه كشف مواقع إطلاق النيران للعدو أو أماكن تمركزه الوهمية والتي لا تظهر إلا عند القتال الفعلي ، فإن تم التعرف على هذه المواقع تبنى الخطة الجديدة على التعامل معها بشكل دقيق فنكون قد وضعنا النقاط على الحروف .
وهذه العملية تشبه التلويح لقناص العدو بقبعة جندي من خلف ساتر حتى يطلق النار عليها ومن ثم نكشف موقعه لأن القناص تزداد خطورته إن لم يعرف مكانه ، أما إن كشف المكان فمن السهل الحذر على الأقل من تلك الجهة .

وما قام به [الأفشين] من هجوم من الجهة الخلفية للحصن هو من باب كشف مواقع العدو والتي تمثلت هنا [بالكمائن الخفية] وهذا الكشف أدى إلى فتح الحصن فيما بعد بفضل الله ومعونته .

60 - فتح [عمورية].

قال ابن الأثير رحمه الله :

فخرج توفيل في مائة ألف وقيل أكثر منهم من الجند نيف وسبعون ألفا وبقيتهم أتباع ومعهم من المحمرة الذين كانوا خرجوا بالجبال فلحقوا بالروم حين قاتلهم إسحاق بن إبراهيم بن مصعب جماعة فبلغ زبطرة فقتل من بها من الرجال وسبى الذرية والنساء وأغار على أهل ملطية وغيرها من حصون المسلمين وسبى المسلمات ومثل بمن صار في يده من المسلمين وسمل أعينهم وقطع أنوفهم وآذانهم فخرج إليهم أهل الثغور من الشام والجزيرة إلا من لم يكن له دابة ولا سلاح.
لما خرج ملك الروم وفعل في بلاد الإسلام ما فعل بلغ الخبر إلى المعتصم فلما بلغه ذلك استعظمه وكبر لديه وبلغه أن امرأة هاشمية صاحت وهي أسيرة في أيدي الروم: وامعتصماه! فأجابها وهو جالس على سريره: لبيك لبيك! ونهض من ساعته وصاح في قصره: النفير النفير ثم ركب دابته وسمط خلفه شكالا وسكة حديد وحقيبة فيها زاده فلم يمكنه المسير إلا بعد التعبئة وجمع العساكر فجلس في دار العامة وأحضر قاضي بغداد وهو عبد الرحمن بن إسحاق وشعبه بن سهل ومعهما ثلاثمائة وثمانية وعشرون رجلًا من أهل العدالة فأشهدهم

ثم سار فعسكر بغربي دجلة لليلتين خلتا من جمادى الأولى ووجه عجيف بن عنبسة وعمر الفرغاني ومحمد كوتاه وجماعة من القواد إلى زبطرة معونة لأهلها فوجدوا ملك الروم قد انصرف عنها إلى بلاده بعدما فعل ما ذكرناه فوقفوا حتى تراجع الناس إلى قراهم واطمأنوا.

فلما ظفر المعتصم ببابك قال: أي بلاد الروم أمنع وأحصن فقيل: عمورية لم يعرض لها أحد منذ كان الإسلام وهي عين النصرانية وهي أشرف عندهم من القسطنطينية.

فسار المعتصم من سر من رأى وقيل كان مسيره سنة اثنتين وعشرين وقيل سنة أربع وعشرين وتجهز جهازًا لم يتجهزه خليفة قبله قط من السلاح والعدد والآلة وحياض الأدم والروايا والقرب وغير ذلك وجعل على مقدمته أشناس ويتلوه محمد ابن إبراهيم بن مصعب وعلى ميمنته إيتاخ وعلى ميسرته جعفر بن دينار ابن عبد الله الخياط وعلى القلب عجيف بن عنبسة فلما دخل بلاد الروم نزل على نهر السن وهو على سلوقية قريبًا من البحر وبينه وبين طرسوس مسيرة يوم وعليه يكون الفداء.

وأمضى المعتصم الأفشين إلى سروج وأمره بالدخول من درب الحدث وسمى له يومًا يكون دخوله فيه وبمًا يكون اجتماعهم فيه وسير أشناس من درب طرسوس وأمره بانتظاره بالصفصاف فكان مسير أشناس لثمان بقين من رجب وقدم المعتصم وصيفًا في أثر أشناس

فلما صار أشناس بمرج أسقف ورد عليه كتاب المعتصم من المطامير يعلمه أن ملك الروم بين يديه وأنه يريد أن يكسبهم ويأمر بالمقام إلى أن يصل إليه فأقام ثلاثة أيام فورد عليه كتاب المعتصم يأمره أن يوجه قائدًا من قواده في سرية يلتمسون رجلًا من الروم يسألونه عن خبر الملك فوجه أشناس عمر الفرغاني في مائتي فارس فدخل حتى بلغ أنقرة وفرق أصحابه في طلب رجل رومي فأتوه بجماعة بعضهم من عسكر الملك وبعضهم من السواد فأحضرهم عند أشناس فسألهم عن الخبر فأخبروه أن الملك مقيم أكثر من ثلاثين يومًا ينتظر مقدمة المعتصم ليواقعهم فأتاه الخبر أن عسكرًا عظيمًا قد دخل بالدهم من ناحية الأرمنياق يعني عسكر الأفشين قالوا: فلما أخبر استخلف ابن خاله على عسكره وسار يريد ناحية الأفشين فوجه أشناس بهم إلى المعتصم فأخبروه الخبر فكتب المعتصم كتابًا إلى الأفشين يعلمه أن ملك الروم قد توجه إليه ويأمره أن يقيم مكانه خوفًا عليه من الروم إلى أن يرد عليه كتابه وضمن لمن يوصل كتابه إلى الأفشين عشرة آلاف درهم.

فسارت الرسل بالكتاب إلى الأفشين فلم يروه لأنه أوغل في بلاد الروم وكتب المعتصم إلى أشناس يأمره بالتقدم فتقدم المعتصم من ورائه فلما رحل أشناس نزل المعتصم مكانه حتى صار بينه وبين أنقرة ثلاث مراحل فضاق عسكر المعتصم ضيقًا شديدًا من الماء والعلف.

وكان أشناس قد أسر في طريقه عدة أسرى فضرب أعناقهم حتى بقي منهم شيخ كبير فقال له: ما تنتفع لقتلي وأنت وعسكرك في ضيق وها هنا قوم قد هربوا من أنقرة خوفًا منكم وهم بالقرب منا معهم الطعام والشراب وغيرهما فوجه معي قومًا لأسلمهم إليهم وخل سبيلي! فسير معه خمسمائة فارس ودفع الشيخ إلى مالك بن كيدر وقال له: متى أراك هذا الشيخ سبيًا كثيرا أوغنيمة كثيرة فخل سبيله.

فسار بهم الشيخ فأوردهم على واد وحشيش فأمرجوا دوابهم وشربوا وأكلوا وساروا حتى خرجوا من الغيضة وسار بهم الشيخ حتى أتى جبالً فنزله ليلا فلما أصبحوا قال الشيخ: وجهوا رجلين يصعدان هذا الجبل فينظران ما فوق فيأخذان من أدركا! فصعد أربعة فاخذوا رجلًا وامرأة فسألهما الشيخ عن أهل أنقرة وهم في طرف ملاحة فلما رأوا العسكر أدخلوا النساء والصبيان الملاحة وقاتلوهم على طرفها وغنم المسلمون منهم وأخذوا من الروم عدة أسرى وفيهم من فيه جراحات عتق متقدمة فسألوهم عن تلك الجراحات فقالوا: كنا في وقعة الملك مع الأفشين وذلك أن الملك لما كان معسكرًا أتاه الخبر بوصول الأفشين في عسكر ضخم من ناحية الأرمنياق واستخلف على عسكره بعض أقربائه وسار إليهم فواقعناهم صلاة الغداة فهزمناهم وقتلنا رجالتهم كلهم وتقطعت عساكرنا في طلبهم.

فلما كان الظهر رجع فرسانهم فقاتلونا قتالًا شديدًا حتى فرقوا عسكرنا واختلطوا بنا فلم ندر أين الملك وانهزمنا منهم ورجعنا إلى معسكر الملك الذي خلفه فوجدنا العسكر قد انتقض وأصروا عن قرابة الملك.

فلما كان الغد جاء الملك في جماعة يسيرة فرأى عسكره قد اختل وأخذ الذي كان استخلفه عليهم فضرب عنقه وكتب إلى المدن والحصون أن لا يأخذوا أحدًا انصرف من العسكر إلا ضربوه بالسياط وردوه إلى مكان سماه لهم الملك ليجتمع إليه الناس يلقى المسلمين وإن الملك وجه خصيًا له إلى أنقرة ليحفظ أهلها فرآهم قد أجلوا عنها فكتب إلى الملك بذلك فأمره بالمسير إلى عمورية فرجع مالك بن كيدر بما معهم من الغنيمة والأسرى إلى عسكر أشناس وغنموا في طريقهم بقرآن وغنمًا

كثيرا وأطلق الشيخ فلما بلغ مالك بن كيدر عسكر أشناس أخبره بما سمع فأعلم المعتصم بذلك فسر به.

فلما كان بعد ثلاثة أيام جاء البشير من ناحية الأفشين بخبر السلامة وكانت الوقعة لخمس بقين من شعبان فلما كان الغد قدم الأفشين على المعتصم وهو بأنقرة فأقاموا ثلاثة أيام ثم جعل المعتصم العسكر ثلاثة عساكر: عسكر فيه أشناس في الميسرة والمعتصم في القلب وعسكر

الأفشين في الميمنة وبين كل عسكر وعسكر فرسخان وأمر كل عسكر أن يكون له ميمنة وميسرة وأمرهم أن يحرقوا القرى ويخربوها ويأخذوا من لحقوا فيها ثم ترجع كل طائفة إلى صاحبها يفعلون ذلك في ما بين أنقرة وعمورية وبينهما سبع مرحل ففعلوا ذلك حتى وافوا عمورية.

وكان أول من وردها أشناس ثم المعتصم ثم الأفشين فداروا حولها وقسمها بين القواد وجعل لكل واحد منهم أبراجًا منها على قدر أصحابه وكان رجل من المسلمين قد أسره الروم بعمورية فتنصر فلما رأى المسلمين خرج عليهم فأخبر المعتصم أن موضعًا من المدينة وقع سوره في سيل أتاه فكتب الملك إلى عامل عمورية ليعمره فتوانى فلما خرج الملك من القسطنطينية خاف العامل أن يرى السور خرابا فبنى وجهه حجرًا حجرا وعمل الشرف على جسر خشب فرأى المعتصم ذلك المكان فأمر بضرب خيمته هناك ونصب المجانيق على ذلك الموضع فانفرج السور من ذلك الموضع.

فلما رأى الروم ذلك جعلوا عليه خشبًا كبارًا كل عود يلزق الآخر وكان المنجنيق يكسر الخشب فجعلوا عليه براذع فلما ألحت المجانيق على ذلك الموضع تصدع السور وكتب الخصي وبطريق عمورية واسمه ناطس كتابًا إلى ملك الروم يعلمه أمر السور وسيره مع رجلين فأخذهما المسلمون وسألهما المعتصم وفتشهما فرأى الكتاب وفيه أن العسكر قد أحاط بالمدينة وقد كان دخوله إليها خطأ وأن ناطس عازم على أن يركب في خاصته ليلا ويحمل على العسكر كائنًا ما كان حتى يخلص ويسير إلى الملك فلما قرأ المعتصم الكتاب أمر لهما ببدرة وهي عشرة آلاف درهم وخلع فأسلما فأمر بهما فطافا حول عمورية وأن يقفا مقابل البرج الذي فيه ناطس فوقفا وعليهما الخلع والأموال بين أيديهما فعرفهما ناطس ومن معه من الروم فشتموهما.

وأمر المعتصم بالاحتياط في الحراسة ليلًا ونهارا فلم يزالوا كذلك حتى انهدم السور ما بين برجين من ذلك الموضع وكان المعتصم أمر أن يطم خندق عمورية بجلود الغنم المملوءة ترابًا فطموه وعمل دبابات كبارًا تسع كل دبابة عشرة رجال ليدحرجوها على الجلود إلى السور فدحرجوا واحدة منها فلما صارت في نصف الخندق تعلقت بتلك الجلود فما تخلص من فيها إلا بعد شدة وجهد وعمل سلاليم ومنجنيقات.
فلما كان الغد من يوم انهدم السور قاتلهم على الثلمة فكان أول من بدأ بالحرب أشناس وأصحابه وكان الموضع ضيقا فلم يمكنهم الحرب فيه فأمدهم المعتصم بالمنجنيقات التي حول السور فجمع بعضها إلى بعض حول الثلمة وأمر أن يرمي ذلك الموضع.

وكانت الحرب في اليوم الثاني على الأفشين وأصحابه وأجادوا الحرب وتقدموا والمعتصم على دابته بإزاء الثلمة وأشناس والأفشين وخواص القواد معه فقال المعتصم: ما أحسن ما كان الحرب اليوم! وقال عمر الفرغاني: الحرب اليوم أجود منها أمس فأمسك أشناس.

فلما انتصف النهار وانصرف المعتصم والناس وقرب أشناس من مضربه ترجل له القواد كما كانوا يفعلون وفيهم الفرغاني وأحمد ابن الخليل بن هشام فقال لهم أشناس: يا أولاد الزنا! ايش تمشون بين يدي كان ينبغي أن تقاتلوا أمس حيث تقفون بين يدي أمير المؤمنين فتقلون الحرب اليوم أجود منها أمس كان يقاتل أمس غيركم انصرفوا إلى مضاربكم فلما انصرف الفرغاني وأحمد بن الخليل قال أحدهما للأخر: إلا ترى إلى هذا العبد ابن الفاعلة يعني أشناس ما صنع اليوم أليس الدخول إلى الروم أهون من هذا فقال الفرغاني لأحمد وكان عنده علم من العباس بن المأمون: سيكفيك الله أمره عن قريب فألح أحمد عليه فأخبره فأشار عليه أن يأتي العباس فيكون في أصحابه فقال أحمد: هذا أمر أظنه لا يتم قال الفرغاني: قد تم وأرشده إلى الحارث السمرقندي فأتاه فرفع الحارث خبره إلى العباس فكره العباس أن يعلم بشيء من أمره فأمسكوه عنه.

فلما كان اليوم الثالث كان الحرب على أصحاب المعتصم ومعهم المغاربة والأتراك وكان القيم بذلك إيتاخ فقاتلوا وأحسنوا واستعلهم هدم السور فلم تزل الحرب كذلك حتى كثرت الجراحات في الروم.

وكان بطارقة الروم قد اقتسموا أبراج السور وكان البطريق الموكل بهذه الناحية وندوا وتفسيره ثور فقاتل ذلك اليوم قتالًا شديدا وفي الأيام قبله ولم يمده ناطس ولا غيره بأحد فلما كان الليل مشى وندوا إلى الروم فقال: إن الحرب علي وعلى أصحابي ولم يبق معي أحد إلا جرح فصيروا أصحابكم على الثلمة يرمون قليلا وإلا ذهبت المدينة فلم يمدوه بأحد وقالوا: لا نمدك ولا تمدنا فعزم هو وأصحابه على الخروج إلى المعتصم يسألونه الأمان على الذرية ويسلمون إليه الحصن بما فيه.

فلما أصبح وكل أصحابه بجانبي الثلمة وأمرهم أن لا يحاربوا وقال: أريد الخروج إلى المعتصم فخرج إليه فصار بين يديه والناس يتقدمون إلى الثلمة وقد أمسك الروم عن القتال حتى وصلوا إلى السور والروم يقولون: لا تخشوا وهم يتقدمون ووندوا جالس عند المعتصم فأركبه فرسا وتقدم الناس حتى صاروا في الثلمة وعبد الوهاب بن علي بين يدي المعتصم يومئ إلى المسلمين بالدخول فدخل الناس المدينة فالتفت وندوا وضرب بيده على لحيته فقال له المعتصم: ما لك قال: جئت أسمع كلامك فغدرت بي قال المعتصم: كل شيء تريده

وصار طائفة كبيرة من الروم إلى كنيسة كبيرة لهم فأحرقها المسلمون عليهم فهلكوا كلهم وكان ناطس فر برجه حوله أصحابه فركب المعتصم ووقف مقابل ناطس فقيل له: يا ناطس! هذا أمير المؤمنين وظهر من البرج وعليه سيف فنحاه عنه ونزل حتى وقف بين يديه فضربه سوطا وسار المعتصم إلى مضربه وقال: هاتوه! فمشى قليلا فأمر المعتصم بحمله وأخذ السيف الروم وأقبل الناس بالأسرى والسبي من كل وجه فأمر المعتصم أن يعزل منهم أهل اشرف ونقل من سواهم وأمر ببيع المغانم في عدة مواضع فبيع منها في أكثر من خمسة أيام وأمر الباقي فأحرق.

انتهى .

تقاسم الأدوار وتوزيع الأوقات

الفرق بين الجيوش النظامية والتجمعات الهمجية في القتال أن الأول له نظام معين يتوزع فيه المجهود الحربي بين جميع أفراد الجيش فيكونون كالأعضاء المختلفة في الجسد الواحد ، لكل عضو منه مهمة محددة في وقت محدد .
أما التجمعات الهمجية في القتال فليس لهم أسلوب معين أو نظام محدد بين أفراد المجموعة لأنها تشكلت عشوائية وغالبا من دون تدريب جيد ، كالمجموعات التي تجدها في الثورات الشعبية ففي البداية تكون غير منظمة ، وإن كتب للثورة البقاء والنمو تكون هذه التجمعات قد اكتسبت بعض الخبرة الميدانية التي تمكنها من التنظيم الجيد .

والعشوائية والتنظيم هو المعيار الذي يمكننا من الحكم على حرب العصابات إن كانت ستنجح أم لا .
وما فعله المعتصم من تقسيم الأدوار بينه وبين الأفشين وأشناس هو من باب التنظيم الناجح الذي يوظف مجهودات الجيوش الثلاثة في مكان واحد وبشكل مستمر .

61 - فتح مدينة [لنتيني].

قال ابن الأثير رحمه الله :

وفي سنة اثنتين وثلاثين ومائتين حصر الفضل بن جعفر مدينة لنتيني فأخبر الفضل أن أهل لنتيني كاتبوا البطريق الذي بصقلية لينصرهم فأجابهم وقال لهم: إن العلامة عند وصولي أن توقد النار ثلاث ليال على الجبل الفلاني فإذا رأيتم ذلك ففي اليوم الرابع أصل إليكم فنجتمع أنا وأنتم على المسلمين بغتة.

فأرسل الفضل من أوقد النار على ذلك الجبل ثلاث ليال فلما رأى أهل لنتيني النار أخذوا في أمرهم وأعد الفضل ما ينبغي أن يستعد به وكمن الكمناء وأمر الذين يحاصرون المدينة أن ينهزموا إلى جهة الكمين فإذا خرج أهلها عليهم قاتلوهم فإذا جاوزوا الكمين عطفوا عليهم.

فلما كان اليوم الرابع خرج أهل لنتيني وقاتلوا المسلمين وهم ينتظرون وصول البطريق فانهزم المسلمون واستجروا الروم حتى جاوزوا الكمين ولم يبق بالبلد أحد إلا خرج فلما جاوزوا الكمين عاد المسلمون عليهم وخرج الكمين من خلفهم ووضعوا فيهم السيف فلم ينج منهم إلا القليل فسألوا الأمان على أنفسهم وأموالهم ليسلموا المدينة فأجابهم المسلمون إلى ذلك وأمنوهم فسلموا المدينة.

انتهى .

رصد أخبار العدو

إن متابعة وسائل الإعلام التي بحوزة العدو ورصد أخباره يعطينا صورة أوضح عن أوضاعه الداخلية ونوعية المشكلات السياسية التي يمكن استغلالها في صراعنا معه .
ومن يدري فلعلنا نقع على خبر مهم كالذي وصل إلى أسماع الفضل بن جعفر عما جرى بين أهالي لنتيني وملك قبرص ، فرصيد هذا الخبر بالذات كان بمثابة مفتاح المدينة والذي قام الفضل باستعماله في المكان المناسب له .
إذن فالمعلومة الاستخباراتية قد تكون صغيرة الحجم ولكنها قد تكون قاصمة لظهر الأعداء إن أحسنا استخدامها .

62 - فتح [قصريانة].

قال ابن الأثير رحمه الله :

في سنة أربع وأربعين ومائتين فتح المسلمون مدينة قصريانة وهي المدينة التي بها دار الملك بصقلية وكان الملك قبلها يسكن سرقوسة فلما ملك المسلمون بعض الجزيرة نقل دار الملك إلى قصريانة لحصانتها.

وسبب فتحها أن العباس سار في جيوش المسلمين إلى مدينة قصريانة وسرقوسة وسير جيشًا في البحر فلقيهم أربعون شلندي للروم فاقتتلوا أشد قتال فانهزم الروم واخذ منهم المسلمون عشر شلنديات برجالها وعاد العباس إلى مدينته.

فلما كان الشتاء سير سرية فبلغت قصريانة فنهبوا وخربوا وعادوا ومعهم رجل كان له عند الروم قدر ومنزلة فأمر العباس بقتله فقال: استبقني ولك عندي نصيحة! قال: وما هي قال: أملكك قصريانة والطريق في ذلك أن القوم في هذا الشتاء وهذه الثلوج آمنون من قصدكم إليهم فهم غير محترسين ترسل معي طائفة من عسكركم حتى أدخلكم المدينة.

فانتخب العباس ألفي فارس أنجاد أبطال وسار إلى أن قاربها وكمن هناك مستترا وسير عمه رباحًا في شجعانهم فساروا مستخفين في الليل والرومي معهم مقيد بين يدي رباح فأراهم الموضع الذي ينبغي أن يملك منه فنصبوا السلاليم وصعدوا الجبل ثم وصلوا إلى سور المدينة قريبًا من الصبح والحرس نيام فدخلوا من نحو باب صغير فيه يدخل منه الماء وتلقى فيه الأقذار فدخل المسلمون كلهم فوضعوا السيف في الروم وفتحوا الأبواب.

وجاء العباس في باقي العسكر فدخلوا المدينة وصلوا الصبح يوم الخميس منتصف شوال وبنى فيها في الحال مسجدا ونصب فيه منبرا وخطب فيه يوم الجمعة وقتل من وجد فيها من المقاتلة وأخذوا ما فيها من بنات البطارقة بحليهن وأبناء الملوك وأصابوا فيها ما يعجز الوصف عنه وذل الشرك يومئذ بصقلية ذلًا عظيمًا.

ولما سمع الروم أرسل ملكهم بطريقًا من القسطنطينية في ثلاثمائة شلندي وعسكر كثير فوصلوا إلى سرقوسة فخرج إليهم العباس من المدينة ولقي الروم وقاتلهم فهزمهم فركبوا في مراكبهم هاربين وغنم المسلمون منهم مائة شلندي وكثر القتل فيهم ولم يصب من المسلمين ذلك اليوم غير ثلاثة نفر بالنشاب.

انتهى .

العمليات الخاصة

تختلف تقسيمات الجيوش القديمة والحديثة من حيث الفرق المتخصصة ككتائب المشاة والفرسان الهندسة والمتفجرات والمظليين وغيرها ، ولكنها تتفق على وجوب أن يحتوي الجيش على فرقة خاصة للمهمات القتالية الصعبة بحيث تتولى عمليات الاقتحام والإنزال خلف خطوط العدو أو عمليات تحرير الأسرى ، وكل هذه الأنواع تحتاج إلى قدرات بدنية عالية وشجاعة كبيرة أو إلى بديهة عسكرية سريعة ، وقديما كانوا إذا احتاجوا إلى ذلك اختاروا من بين الجيش من يملك تلك الصفات فيشكلون بذلك فرقة مهمات خاصة كما فعل العباس بن الفضل لما انتخب ألفي مقاتل من الشجعان الأبطال الأنجاد ، أما بعد ذلك فأضحت هناك فرق خاصة مسبقة التشكيل وجاهزة للتدخل السريع .

63 - قتال [البجاة].

قال ابن الأثير رحمه الله :

وفيها أغارت البجاة على أرض مصر وكانت قبل ذلك لا تغور بلاد الإسلام لهدنة قديمة

وقد ذكرناها فيما مضى وفي بلادهم معادن يقاسمون المسلمين عليها ويؤدون إلى عمال مصر نحو الخمس.

فلما كانت أيام المتوكل امتنعت عن أداء ذلك فكتب صاحب البريد بمصر بخبرهم وأنهم قتلوا عدد من المسلمين ممن يعمل في المعادن فهرب المسلمون منها خوفًا على أنفسهم فأنكر المتوكل ذلك فشاور في أمرهم فذكر له أنهم أهل بادية أصحاب إبل وماشية وأن الوصول إلى بلادهم صعب لأنها مفاوز وبين أرض الإسلام وبينها مسيرة شهر في أرض قفر وجبال وعرة وأن كل من يدخلها من الجيوش يحتاج إلى أن يتزود لمدة يتوهم أنه يقيمها إلى أن يخرج إلى بلاد الإسلام فإن جاوز تلك المدة هلك وأخذتهم البجاة باليد وأن أرضهم لا ترد على سلطان شيئًا.

فأمسك المتوكل عنهم فطمعوا وزاد شرهم حتى خاف أهل الصعيد على أنفسهم منهم فولى المتوكل محمد بن عبد الله القمي محاربتهم وولاه معونة تلك الكور وهي قفط والأقصر وأسنا وأرمنت

وأسوان وأمره بمحاربة البجاة وكتب إلى عبسنة بن إسحاق الضبي عامل حرب مصر بإزاحة علته وإعطائه من الجند ما يحتاج إليه ففعل ذلك.

وسار محمد إلى أرض البجاة وتبعه ممن يعمل في المعادن والمتطوعة عالم كثير فبلغت عدتهم نحوًا من عشرين ألفًا بين فارس وراجل ووجه إلى القلزم فحمل في البحر سبعة مراكب موقورة بالدقيق والزيت والتمر والشعير والسويق وأمر أصحابه أن يوافوه بها في ساحل البحر مما يلي بلاد البجاة وسار حتى جاوز المعادن التي يعمل فيها الذهب وسار إلى حصونهم وقلاعهم وخرج إليه ملكهم واسمه علي بابا في جيش كثير أضعاف من مع القمي فكانت البجاة على الإبل وهي إبل فرة تشبه المهاري فتحاربوا أياما ولم يصدقهم علي بابا القتال لتطول الأيام وتفنى أزواد المسلمين وعلوفاتهم فيأخذهم بغير حرب فأقبلت تلك المراكب التي فيها الأقوات في البحر ففرق القمي ما كان فيها في أصحابه فامتنعوا فيها.

فلما رأى علي بابا ذلك صدقهم القتال وجمع لهم فالتقوا قتالًا شديدا وكانت إبلهم ذعرة تنفر من كل شيء فلما رأى القمي ذلك جمع كل جرس في عسكره وجعلها في أعناق خيله ثم حملوا على البجاة فنفرت إبلهم لأصوات الأجراس فحملتهم على الجبال والأودية وتبعهم المسلمون قتلًا وأسرا حتى أدركهم الليل وذلك أول سنة إحدى وأربعين ومائتين ثم رجع إلى معسكره ولم يقدر على إحصاء القتلى لكثرتهم.

انتهى .

السلاح المضاد

انتهت الحرب العالمية الثانية فقامت على أنقاضها الحرب الباردة بين أمريكا وروسيا ، وكانت هذه الحرب تدور حول تحقيق توازن استراتيجي للقوة بحيث إن طورت دولة سلاح معين فيجب أن تطور الدولة الأخرى سلاحا مضادا مقابل ذلك ، فدخل العالم نتيجة ذلك في سياق تسلح محموم وبلا نهاية .
فوجود سلاح لا تستطيع التعامل معه في المعركة أو تحييده وشل حركته بلا سلاح مضاد له يجعل القوة في صف من يملكه ، فيستطيع حسم المعارك لصالحه بسبب هذا التفوق العسكري .
وهذا ما انتبه إليه القائد محمد بن عبدالله القمي في إبطال وشل حركة النقل لدى [البجاة]
عبر [الأجراس] التي وضعها في أعناق الخيل لتنفر منها إبل البجاة ومن ثم يصبح المقاتل الذي عليها صيدا سهلا تبعا لذلك .

ولذا يجب قبل أن تدخل المعركة أن تمعن التفكير في أسلحة العدو وكيفية إيجاد سلاح مضاد لها حتى تحقق التوازن المطلوب .

64 - فتح [سرقوسة].

قال ابن الأثير رحمه الله :

وفي هذه السنة رابع عشر رمضان ملك المسلمون سرقوسة وهي من أعظم صقلية.

وكان سبب ملكها أن جعفر بن محمد أمير صقلية غزاها فأفسد زرعها وزرع قطانية وطبرمين ورمطة وغيرها من بلاد صقلية التي بيد الروم ونازل سرقوسة وحصرها برًا وبحرًا وملك بعض أرباضها ووصلت مراكب الروم نجدة لها فسير إليها أسطولا فأصابوها فتمكنوا حينئذ من حصرها فأقام العسكر محاصرًا لها تسعة اشهر وفتحت وقتل من أهلها عدة ألوف وأصيب فيها من الغنائم ما لم يصب بمدينة أخرى ولم ينج من رجالها إلا الشاذ الفذ.

وأقاموا فيها بعد فتحها بشهرين ثم هدموها ثم وصل بعد هدمها من القسطنطينية أسطول فالتقوا هم والمسلمون فظفر بهم المسلمون وأخذوا منهم أربع قطع فقتلوا من فيها وانصرف المسلمون إلى بلدهم آخر ذي القعدة.

انتهى .

قطع خطوط الإمداد

خطوط الإمداد للجيش هي بمثابة شرايين تمد الجسم بالدم ، وقطع هذه الشرايين كفيل بتعطيل الجسد عن العمل ومن ثم هلاكه ، وهو ما يحصل في الجيش إذا قطعت عنه الإمدادات فيبقى بلا غذاء ولا سلاح ولا دواء حتى يهلك تماما .
ولأن هذه النتيجة حتمية ومعروفة لدى الجيوش فإنه يكفي لإرباك العدو في بداية الحرب أن تقطع طرق إمداداته ، لأنه سيضطر لإعادة النظر في خطته بما يناسب ما تبقى لديه من وقود وذخيرة وغذاء .

أما في فتح الحصون قديما فإنه غالبا ما تكون هذه الحصون مزودة بكميات كبيرة من الغذاء والسلاح تحسبا لأي جيش يضرب عليها الحصار ويقطع عنها الإمداد ، وهو ما فعله جعفر بن محمد في مصابرته لحصن سرقوسة لمدة تسعة شهور بعد أن قطع الإمداد عنه حتى فتحه الله عليه.

65 - قتال الزنج.

قال ابن الأثير رحمه الله :

قد ذكرنا من حرب الزنج وعود الموفق عنهم مؤيدًا بالظفر فلما عاد من قتالهم إلى مدينة الموفقية عزم على مناجزة الخبثاء فأتاه كتاب لؤلؤ غلام ابن طولون يستأذنه في المسير إليه فأذن له وترك القتال ينتظره ليحضر القتال فوصل إليه ثالث المحرم من هذه السنة في جيش عظيم فأكرمه الموفق وأنزله وخلع عليه وعلى أصحابه ووصلهم وأحسن إليهم وأمر لهم بالأرزاق على قدر مراتبهم وأضعف ما كان لهم ثم تقدم إلى لؤلؤ بالتأهب لحرب الخبثاء.

وكان الخبيث لما غلب على نهر أبي الخصيب وقطعت القناطر والجسور التي عليه أحدث سكرًا في النهر وجانبيه وجعل في وسط النهر بابًا ضيقًا لتحتد جرية الماء فيه فتمتنع الشذا من دخوله في الجزر ويتعذر خروجها منه في المد فرأى الموفق أن جريه لا يتهيأ إلا بقلع هذا السكر فحاول ذلك فاشتدت محاماة الخبثاء عليه وجعلوا يزيدون كل يوم فيه وهو متوسط دورهم والمروية تسهل عليهم وتعظم على من أراد قلعه فشرع في محاربتهم بفريق بعد فريق من أصحاب لؤلؤ ليتمرنوا على قتالهم ويقفوا على المسالك والطرق في مدينتهم فأمر لؤلؤًا أن يحضر في جماعة من أصحابه للحرب على هذا السكر ففعل فرأى الموفق من شجاعة لؤلؤ وإقدامه وشجاعة أصحابه ما سره فأمر لؤلؤًا بصرفهم إشفاقًا عليهم ووصلهم الموفق وأحسن إليهم.

وألح على هذا السكر وكان يحارب المحامين عليه وأصحابه وأصحاب لؤلؤ وغيرهم والفعلة يعملون في قلعة ويحارب الخبيث وأصحابه في عدة وجوه فيحرق مساكنهم ويقتل مقاتليهم واستأمن إليه الجماعة وكان قد بقي لخبيث وأصحابه بقية من أرضين بناحية النهر الغربي لهم فيها مزارع وحصون وقنطرتان وبه جماعة يحفظونه فسار إليهم أبوالعباس وفرق أصحابه من جهاتهم وجعل كمينان ثم أوقع بهم فانهزموا فكلما قصدوا جهة خرج عليهم من يقاتلهم فيها فقتلوا عن آخرهم لم يسلم منهم إلا الشريد فأخذوا من أسلحتهم ما أثقلهم حمله وقطع القنطرتين ولم يزل الموفق يقاتلهم على سكرهم حتى تهيأ له فيه ما أحبه في خرقه.

فلما فرغ منه عزم على لقاء الخبيث فأمر بإصلاح السفن والآلات للماء والظهر وتقدم إلى أبي العباس ابنه أن يأتي الخبيث من ناحية دار المهلبي وفرق العساكر من جميع جهاته وأضاف المستأمنة إلى شبل وأمره بالجد في قتال الخبيث وأمر الناس أن لا يزحف أحد حتى يحرك علمًا أسود كان نصبه على دار الكرماني وحتى ينفخ في بوق بعيد الصوت.

وكان عبوره يوم الاثنين لثلاث بقين من المحرم فعجل بعض الناس وزحف نحوهم فلقيه الزنج فقتلوه منهم وردوهم إلى مواقفهم ولم يعلم سائر العسكر بذلك لكثرتهم وبعد المسافة فيما بين بعضهم وبعض وأمر الموفق بتحريك العلم الأسود والنفخ في البوق فزحف الناس في البر والماء يتلو بعضهم بعضا فلقيهم الزنج وقد حشدوا واجترؤوا بما تهيأ لهم على من كان يسرع إليهم فلقيهم الجيش بنيات صادقة وبصائر نافذة واشتد القتال وقتل من الفريقين جمع كثير فانهزم أصحاب الخبيث وتبعهم أصحاب الموفق يقتلون ويأسرون واختلط بهم ذلك اليوم أصحاب الموفق فقتل منهم ما لا يحصى عددا وغرق منهم مثل ذلك وحوى الموفق المدينة بأسرها فغنمها أصحابه واستنقذوا من كان بقي من الأسرى من الرجال والنساء والصبيان وظفروا بجميع عيال علي بن أبان المهلبي وبأخويه: الخليل ومحمد وأولادهما وعبر بهم إلى المدينة الموفقية.

ومضى الخبيث في أصحابه ومعه ابنه انكلاي وسليمان بن جامع وقواد من الزنج وغيرهم هاربين عامدين إلى موضع كان الخبيث قد أعده ملجأ إذا غلب على مدينته وذلك المكان على النهر

المعروف بالسفياني وكان أصحاب الموفق قد اشتغلوا بالنهب والإحراق وتقدم الموفق في الشذا نحو نهر السفياني ومعه لؤلؤ وأصحابه فظن أصحاب الموفق أنه رجع إلى مدينتهم الموفقية فانصرفوا إلى سفنهم بما قد حووا وانتهى الموفق ومن معه إلى عسكر الخبيث وهم منهزمون واتبعهم لؤلؤ في أصحابه حتى عبر السفياني فاقتحم لؤلؤ بفرسه واتبعه أصحابه حتى انتهى إلى النهر المعروف بالفربري فوصل إليه لؤلؤ وأصحابه فأوقعوا به وبمن معه فهزمهم حتى عبر نهر السفياني ولؤلؤ في أثرهم فاعتصموا بجبل وراءه وانفرد لؤلؤ وأصحابه بأتباعهم إلى هذا المكان في آخر النهار فأمر الموفق بالانصراف فعاد مشكورًا محمودًا لفعله فحمله الموفق معه وجدد له من البر والكرامة ورفعة المنزلة ما كان مستحقًا له ورجع الموفق فلم ير أحدًا من أصحابه بمدينة الزنج فرجع إلى مدينته واستبشر الناس بالفتح وهزيمة الزنج وصاحبهم.

وكان الموفق قد غضب على أصحابه بمخالفتهم أمره وتركهم الوقوف حيث أمرهم فجمعهم جميعا ووبخهم على ذلك وأغلظ لهم فاعتذروا بما ظنوه من انصرافه وأنهم لم يعلموا بمسيره

ولو علموا ذلك لأسرعوا نحوه ثم تعاقدوا وتحالفوا بمكانهم على أن لا ينصرف منهم أحد إذا توجهوا نحو الخبيث حتى يظفروا به فإن أعياهم أقاموا بمكانه حتى يحكم الله بينهم وبينه.

وسألوا الموفق أن يرد السفن التي يعبرون فيها إلى الخبيث لينقطع الناس عن الرجوع فشكرهم وأثنى عليهم وأمرهم بالتأهب.

وأقام الموفق بعد ذلك إلى الجمعة يصلح ما يحتاج الناس إليه وأمر الناس عشية الجمعة بالمسير إلى حرب الخبثاء بكرة السبت وطاف عليهم هو بنفسه يعرف كل قائد مركزه والمكان الذي يقصده وغدا الموفق يوم السبت لليلتين خلتا من صفر فعبر بالناس وأمر برد السفن فردت وسار يقدمهم إلى المكان الذي قدر أن يلقاهم فيه.

وكان الخبيث وأصحابه قد رجعوا إلى مدينتهم بعد انصراف الجيش عنهم وأملوا أن تتطاول بهم الأيام وتندفع عنهم المناجزة فوجد الموفق المتسرعين من فرسان غلمانه والرجالة قد سبقوا الجيش فأوقعوا بالخبيث وأصحابه وقعة هزموهم بها وتفرقوا لا يلوي بعضهم على بعض وتبعهم أصحاب الموفق يقتلون ويأسرون من لحقوا منهم وانقطع الخبيث في جماعة من حماة أصحابه وفيهم المهلبي وفارقه ابنه انكلاي وسليمان بن جامع فقصد كل فريق منهم جمعًا كثيفًا من الجيش.

وكان أبوالعباس قد تقدم فلقي المنهزمين في الموضع المعروف بعسكر ريحان فوضع أصحابه فيهم السلاح ولقيهم طائفة أخرى فأوقعوا بهم أيضا وقتلوا منهم جماعة وأسروا سليمان بن جامع فأتوا به الموفق من غير عهد ولا عقد فاستبشر الناس بأسره وكثر التكبير وأيقنوا بالفتح إذ كان أكثر أصحاب الخبيث غناء عنه وأسر من بعده إبراهيم بن جعفر الهمداني وكان أحد أمراء جيوشه فأمر الموفق بالاستيثاق منهم وجعلهم في شذاة لأبي العباس.ثم إن الزنج الذين انفردوا مع الخبيث حملوا على الناس حملة أزالوهم عن مواقفهم ففتروا فأحس الموفق بفتورهم فجد في طلب الخبيث وأمعن فتبعه أصحابه وانتهى الموفق إلى آخر نهر أبي الخصيب فلقيه البشير بقتل الخبيث وأتاه بشير آخر ومعه كف ذكراها كفه فقوي الخبر عنده ثم أتاه غلام من أصحاب لؤلؤ يركض ومعه رأس الخبيث فأدناه منه وعرضه على جماعة من المستأمنة فعرفوه فخر لله ساجدا وسجد معه الناس وأمر الموفق برفع رأسه على قناة فتأمله الناس فعرفوه وكثر الضجيج بالتحميد.

انتهى.

مكافئة الجند

الثواب والعقاب أسلوب تربوي نفسي بليغ في تشجيع الناس أو زجرهم .
وللثواب أو المكافئة على الأفعال الحسنة قيمة كبيرة في رفع الروح المعنوية والإنتاج عموما .
وهي كذلك في الحروب فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ينفل بعض السرايا خاصة دون قسمة الجيش لما أبلوه من بلاء حسن في المعركة ، وقد يكون الثواب والمكافئة معنوية كثناء خاص باسم جندي أو مجموعة من الجنود على ما قاموا به من بطولات في المعركة ، وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال بعد غزوة ذي قرد : خير رجالاتنا سلمة ، وخير فرسانا قتادة .
وقد كان [الموفق] موفقا في تشجيع لؤلؤا وأصحابه الشجعان لأنه حمسهم لمزيد من الأعمال البطولية ولأن بقية الجند سوف يتطلعون لهذه الأدوار البطولية التي هي محل تقدير وثناء من الأمير والرعية والجند .

66 - غزو الروم لمدينة [دبيل].

قال ابن الأثير رحمه الله :

وفيها سار الدُّمُسْتُق في جيش عظيم من الروم إلى مدينة دَبيل وفيها نصر السُّبُكيُّ في عسكر يحميها وكان مع الدُّمُستُق دَبابات ومجانيق معه مِزراق يزرق بالنار عدّة اثنى عشر رجلًا فلا يقر بين يديه أحد من شدّة ناره واتّصاله فكان من أشدّ شيء على المسلمين.

وكان الرامي به مباشرُ القتال من أشجعهم فرماه رجل من المسلمين بسهم فقتله وأراح الله

وكان الدمستق يجلس على كرسي عالٍ يشرف على البلد وعلى عسكره فأمرهم بالقتال على ما يراه فصبر له أهل البلد وهو ملازم القتال حتى وصلوا إلى سور المدينة فنقبوا فيه نقوبًا كثيرة ودخلوا المدينة فقاتلهم أهلها ومَن فيها من العسكر قتالًا شديدًا فانتصر المسلمون وأخرجوا الروم منها وقتلوا منهم نحو عشرة آلاف رجل.
انتهى .

عسكرة المجتمع

يعتبر ظهور الترف في المجتمع علامة كبيرة على الضعف الداخلي للأمة .
فالترف يعمل في الأمة عمل السوس في الأسنان الذي يأكلها شيئا فشيئا حتى تتهالك وتسقط .

وكذلك الحال إن هوجمت الأمة ، فإن كنا أهل ترف وخمول واتكالية فلن نستطيع أن ندافع عن أنفسنا لأننا قد هزمنا قبل المعركة وقد قتلنا الترف قبل أن تقتلنا سيوف العدو ، أما إن كنا أهل جد

واجتهاد فسنكون درعا واقية ضد أعداء الله كما كان أهل [دبيل] في قتالهم للروم وذبهم عن دينهم وحرماتهم .

فالإعداد والتربية العسكرية للمجتمع ككل ضرورة ملحة حتى لا تؤخذ الأمة على حين غرة ، فإن قمنا بعسكرة المجتمع كما كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فسنحصل على سرية في كل بيت ، وكتيبة من كل شارع ، وجيش من كل بلدة جاهز للنفير مع كل صيحة [يا خيل الله اركبي] .

67 - غزو بلاد الروم عام تسعة عشر وثلاثمائة للهجرة.

قال ابن الأثير رحمه الله :

في هذه السنة في ربيع الأوّل غزا ثمل والي طَرَسُوس بلاد الروم فعبر نهرًا ونزل عليهم ثلجٌ إلى صدور الخيل وأتاهم جمع كثير من الروم فواقعوهم فنصر الله المسلمين فقتلوا من الروم ستّمائة وأسروا نحوًا من ثلاثة آلاف وغنموا من الذهب والفضّة والديباج وغيره شيئًا كثيرًا.

انتهى .

تكيف المقاتل مع المناخ المختلف

يدخل في الإعداد الجيد للحرب أخذ ما يلزم لمقاومة تغلبات المناخ ، كالأغطية الواقية من المطر والملابس البيضاء المناسبة للتمويه في الثلوج وغيرها مما يلزم الآلات أيضا كالسلاسل التي تربط على عجلات السيارة كي لا تنزلق على الجليد .

فيجب إذا التكيف مع الطقس بما يناسبه كي لا يكون عائقا أمامنا ، فالعمليات العسكرية وسط الثلوج مثلا إن استخدمت اللباس الأبيض للتمويه سيصبح من الصعب اكتشافك ، وإن استخدمت الوسيلة المناسبة للعبور كما فعل جيش ثمل في عبوره الثلوج عبر الخيول فسيصبح عامل المناخ في صفك ، أما إن فشلت في التعامل معه فستصبح مكشوفا للعدو عاجزا عن الحركة في نفس الوقت .

68 - حصار [جراجة].

قال ابن الأثير رحمه الله :

ثم إن ملك الروم أرسل بطريقًا في البحر في جيش كثير إلى صقلية واجتمع هو والسردغوس فأرسل الحسن بن علي إلى المنصور يعرفه الحال فأرسل إليه أسطولًا فيه سبعة آلاف فارس وثلاثة آلاف وخمسمائة راجل سوى البحرية وجمع الحسن إليهم جمعًا كثيرًا وسار في البر والبحر فوصل

إلى مسيني وعدت العساكر الإسلامية إلى ريو وبث الحسن السرايا في أرض قلورية ونزل الحسن على جراجة وحاصرها أشد حصار وأشرفوا على الهلاك من شدة العطش فوصلهم الخبر أن الروم قد زحفوا إليه فصالح أهل جراجة على مال أخذه منهم وسار إلى لقاء الروم ففروا من غير حرب إلى مدينة بارة ونزل الحسن على قلعة قسانة وبث ودخل الشتاء فرجع الجيش إلى مسيني وشتى الأسطول بها فأرسل المنصور يأمره بالرجوع إلى قلورية فسار الحسن وعدا المجاز إلى جراجة فالتقى المسلمون والسردغوس ومعه الروم يوم عرفه سنة أربعين وثلاثمائة فاقتتلوا أشد قتال رآه الناس فانهزمت الروم وركب المسلمون أكتافهم إلى الليل وأكثروا القتل فيهم وغنموا أثقالهم وسلاحهم ودوابهم.

انتهى .

رفع التقارير

هو عمل ميداني إداري عبارة عن نقل صورة المعركة أو التطورات التي طرأت على تحركات العدو أو رفع تقرير بأعداد القتلى والجرحى والخسائر في الآليات وغيره .

وهذه التقارير التي ترفع للقيادة العليا مهمة جدا في اتخاذ القرارات الخاصة بإدارة المعركة .

ولذا توكل هذه المهمة لأمراء السرايا أو الكتائب أو من يملك القدرة على تقييم الوضع بشكل جيد ، وإن كانت في السابق تعتمد على الرسائل الشخصية بين قادة الجيش فهي الآن تعتمد على أجهزة الاتصال والشيفرة الخاصة .

69 - غزو الروم عام تسعة وأربعون وثلاثمائة للهجرة.

قال ابن الأثير رحمه الله :

في هذه السنة غزا سيف الدولة بلاد الروم في جميع كثير فأثر فيها آثارًا كثيرة وأحرق وفتح عدة حصون وأخذ من السبي والغنائم والأسرى شيئًا كثيرًا وبلغ إلى خرشنة ثم إن الروم أخذوا عليه المضايق فلما أراد الرجوع قال له من معه من أهل طرسوس: إن الروم قد ملكوا الدرب خلف ظهرك فلا تقدر على العود منه والرأي أن ترجع معنا فلم يقبل منهم وكان معجبًا برأيه يحب أن يستبد ولا يشاور أحدًا لئلا يقال إنه أصاب برأي غيره وعاد في الدرب الذي دخل منه فظهر الروم عليه واستردوا ما كان معه من الغنائم وأخذوا أثقاله ووضعوا السيف في أصحابه فأتوا عليهم قتلًا

وأسرًا وتخلص هو في ثلاثمائة رجل بعد جهد ومشقة وهذا من سوء رأي كل من يجهل آراء الناس العقلاء والله أعلم بالصواب.

انتهى .

الإعجاب بالرأي

هي خصلة قاتلة تقود صاحبها ومن تبعه إلى الهاوية ، فإلغاء بقية العقول والاستبداد بالرأي والإعجاب به مزلق خطير خاصة إن كان الأمر يتعلق بالحرب والقتال لأن الأخطاء فيها ستكلف الكثير من الدماء مثلما حدث مع سيف الدولة هنا ، لأن إعجابه برأيه وخوفه أن يقال أنه انتصر برأي غيره هو من أورده وجيشه للهزيمة .

وقد يدفع بعض القادة العسكريين خبرتهم الطويلة أو ذكاؤهم الحاد أو فراستهم العسكرية إلى أن يعجبوا بآرائهم بالمقارنة مع غيرهم ، وهنا يجب أن نعرف أن الشورى لم تسن لعامة الناس أصحاب الذكاء المتوسط دون غيرهم ، وإنما شرعت للجميع كمنهج رباني وسنة نبوية ، ولم يعرف التاريخ قائدا بذكاء وسياسة وعقل النبي صلى الله عليه وسلم ومع ذلك فقد كان يقول "أشيروا علي أيها الناس" .

70- غزو الروم لحلب عام واحد وخمسون وثلاثمئة للهجرة.

قال ابن الأثير رحمه الله :

في هذه السنة في المحرم نزل الروم مع الدمستق على عين زربة وهي في سفح جبل عظيم وهو مشرف عليها وهم في جمع عظيم فأنفذ بعض عسكره فصعدوا الجبل فملكوه فلما رأى ذلك أهلها وأن الدمستق قد ضيق عليهم ومعه الدبابات وقد وصل إلى السور وشرع في النقب طلبوا الأمان فأمنهم الدمستق وفتحوا له باب المدينة فدخلها فرأى أصحابه الذين في الجبل قد نزلوا إلى المدينة فندم على إجابتهم إلى الأمان.

ونادى في البلد أول الليل بأن يخرج جميع أهله إلى المسجد الجامع ومن تأخر في منزله قتل فخرج من أمكنه الخروج فلما أصبح أنفذ رجالته في المدينة وكانوا ستين ألفًا وأمرهم بقتل من وجدوه في منزله فقتلوا خلقًا كثيرًا من الرجال والنساء والصبيان وأمر بجمع ما في البلد من السلاح فجمع فكان شيئًا كثيرًا.

وأمر من في المسجد بأن يخرجوا من البلد حيث شاؤوا يومهم ذلك ومن أمسى قتل فخرجوا مزدحمين فمات بالزحمة جماعة ومروا على وجوههم لا يدرون أين يتوجهون فماتوا في الطرقات وقتل الروم من وجدوه بالمدينة آخر النهار وأخذوا كل ما خلفه الناس من أموالهم وأمتعتهم وهدموا سوري المدينة.

انتهى .

المخابرات

يأتي دور المخابرات في الحروب كخط غير مرئي لحماية الدولة ، وكجهاز إنذار أولي للكشف عن أي لص يحاول دخول المنزل .

أما إن دخل اللص البيت ووصل إلى مبتغاه فهذا دليل على فشل جهاز الإنذار في العمل أو على عدم وجوده في الأصل !
وهذا ما يفسر لنا كيفية وصول جيش الدمستق إلى مشارف حلب من غير أن يشعر به أحد !.

طبعا لم يكن يوجد في السابق مثل أجهزة المخابرات العصرية المزودة بأحدث وسائل الاتصال للإبلاغ عن أي تحرك للعدو ولكن كان هناك رعاة الغنم والإبل في خارج حدود المدن ، أو سكان القلاع الصغيرة ، أو قوافل التجارة بين البلدان ، بالإضافة إلى العيون التي تبث من وقت لآخر وفي أرض العدو نفسه .
كل هذا كان كفيلا برصد تحرك جيش الدمستق والاستعداد له قبل أن يفاجأ الجميع بهذا الشكل .

71 - وقعة [المجاز].

قال ابن الأثير رحمه الله :

وأما أهل رمطة فإنهم ضعفت نفوسهم وكانت الأقوات قد قلت عندهم فأخرجوا من فيها من الضعفاء وبقي المقاتلة فزحف إليهم المسلمون وقاتلوهم إلى الليل ولزموا القتال في الليل أيضًا وتقدموا بالسلاليم فملكوها عنوة وقتلوا من فيها وسبوا الحرم والصغار وغنموا ما فيها وكان شيئًا كثيرًا عظيمًا ورتب فيها من المسلمين من يعمرها ويقيم فيها.

ثم إن الروم تجمع من سلم منهم وأخذوا معهم من في صقلية وجزيرة ريو منهم وركبوا مراكبهم يحفظون نفوسهم فركب الأمير أحمد في عساكره وأصحابه في المراكب أيضًا وزحف إليهم في الماء وقاتلهم واشتد القتال بينهم وألقى جماعة من المسلمين نفوسهم في الماء وخرقوا كثيرًا من المراكب التي للروم فغرقت وكثر القتل في الروم فانهزموا لا يلوي أحد على أحد وسارت سرايا المسلمين في مدائن الروم فغنموا منها فبذل أهلها لهم من الأموال وهادنوهم وكان ذلك سنة أربع وخمسين وثلاثمائة وهذه الوقعة الأخيرة هي المعروفة بوقعة المجاز.

انتهى .

العمليات البحرية

يعتبر البحر مسرحا كبيرا للعمليات العسكرية ، وقد استغل المسلمون ذلك من عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فعبروا إلى قبرص واستمر ذلك حتى أصبحت الأساطيل الإسلامية الأقوى على الإطلاق كما كان أيام الأسطول البحري في الدولة العثمانية .
وقد تطور سلاح البحرية في العصر الحديث حتى وصل إلى الغواصات وحاملات الطائرات وغيرها مما لا يملك المسلمون منه شيئا ، ولكن يبقى أنه هناك نوعا من العمليات البحرية يعتمد على مجموعة متخصصة في القتال اليدوي وهي مجموعة تعرف باسم [الضفادع البشرية] .

هذه المجموعة لا تحتاج إلى تقنية عالية بقدر حاجتها إلى التدريب الجيد والقدرات البدنية العالية في السباحة والغوص والقتال تحت الماء ، وهو نفس الدور الذي قام به جنود الأمير أحمد في تخريقهم لسفن الروم والذي أدى إلى قلب موازين المعركة لصالحهم .

فهذا النمط من العمليات البحرية الجريئة قد يحدث نوعا من التوازن في القوة البحرية مهما بلغت قوة العدو ، خاصة إن استخدمنا طريقة [العمليات البحرية الاستشهادية] والتي ستكون بإذن الله كفيلة بردع أي خطر حربي من جهة البحر .

72 - غزو القرامطة لدمشق عام ستون وثلاثمائة للهجرة.

قال ابن الأثير رحمه الله :

في هذه السنة في ذي القعدة وصل القرامطة إلى دمشق فملكوها وقتلوا جعفر بن فلاح.

وسبب ذلك أنهم لما بلغهم استيلاء جعفر بن فلاح على الشام أهمهم وأزعجهم وقلقوا لأنه قد تقرر بينهم وبين ابن طغج أن يحمل إليهم كل سنة ثلاثمائة ألف دينار فلما ملها جعفر علموا أن المال يفوتهم فعزموا على قصد الشام وصاحبهم حينئذ الحسين بن أحمد بن بهرام القرمطي فأرسل إلى عز الدولة بختيار يطلب منه المساعدة بالسلاح والمال فأجابه إلى ذلك واستقر الحال أنهم إذا وصلوا إلى الكوفة سائرين إلى الشام حمل الذي استقر فلما وصلوا إلى الكوفة أوصل إليهم ذلك وساروا إلى دمشق.

وبلغ خبرهم إلى جعفر بن فلاح فاستهان بهم ولم يحترز منهم فلم يشعر بهم حتى كبسوه بظاهر دمشق وقتلوه وأخذوا ماله وسلاحه ودوابه وملكوا دمشق وأمنوا أهلها .

انتهى .

الاستهانة بالعدو

المطلوب قبل المعركة تقدير القوة الحقيقية للعدو والعمل على إعداد ما يلزم للتعامل معها ، فإن لم نتمكن من تقدير قوة العدو فليس من الحزم عندها الاستهانة به ، فهذه الاستهانة قد تدخلنا في احتمالات لم نعمل حسابها كما حدث مع والي دمشق جعفر بن فلاح في استهانته بالقرامطة فكان ما كان من أمرهم .

وفي معركة [بدر] جعل الله المشركين يرون أن المسلمين قلة {وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ} حتى يستهينوا بهم ، فكانت هذه الاستهانة هي من قادتهم إلى حتفهم .

73 - قتال الفرنج في صقلية عام واحد وسبعين وثلاثمائة للهجرة.

قال ابن الأثير رحمه الله :

في هذه السنة في ذي القعدة سار الأمير أبو القاسم أمير صقلية من المدينة يريد الجهاد.

وسبب ذلك أن ملكًا من ملوك الفرنج يقال له بردويل خرج في جموع كثيرة من الفرنج إلى صقلية فحصر قلعة ملطة وملكها وأصاب سريتين للمسلمين فسار الأمير أبو القاسم بعساكره ليرحله عن القلعة فلما قاربها خاف وجبن فجمع وجوه أصحابه وقال لهم: إني راجع من مكاني هذا فلا تكسروا علي رأيي. فرجع هو وعساكره.

وكان أسطول الكفار يساير المسلمين في البحر فلما رأوا المسلمين راجعين أرسلوا إلى بردويل ملك الروم يعلمونه ويقولون له: إن المسلمين خائفون منك فالحق بهم فإنك تظفر.

فجرد الفرنجي عسكره من أثقالهم وسار جريدة وجد في السير فأدركهم في العشرين من المحرم سنة اثنتين وسبعين فتعبأ المسلمون للقتال واقتتلوا واشتدت الحرب بينهم فحملت طائفة من الفرنج على القلب والأعلام فشقوا العسكر ووصلوا إليها وقد تفرق كثير من المسلمين عن أميرهم واختل نظامهم فوصل الفرنج إليه فأصابته ضربة على أم رأسه فقتل وقتل معه جماعة من أعيان الناس وشجعانهم.

ثم إن المنهزمين من المسلمين رجعوا مصممين على القتال ليظفروا أو يموتوا واشتد حينئذ الأمر وعظم الخطب على الطائفتين فانهزم الفرنج أقبح هزيمة وقتل منهم نحو أربعة آلاف قتيل وأسر من بطارقتهم كثير وتبعوهم إلى أن أدركهم الليل وغنموا من أموالهم كثيرًا.

انتهى .

القائد الجبان

إقدام الجيش وأسلوب قتاله الجيد يدل على نوعية القائد الذي يقف خلفه ، فإن كان هذا القائد جبانا انعكس ذلك على الجيش كله .

ولذا ترى أن الجنود يشعرون براحة كبيرة وثقة بالنفس إن كان من بينهم قائد معروف بالحنكة والشجاعة ، وقد أحس بذلك الصحابة يوم أحد لما التحق بهم فارس مشرك يذكر أن له شجاعة وخبرة ففرحوا بذلك .

وقد سئل الإمام أحمد عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو ، أحدهما قوي فاجر والآخر صالح ضعيف ، مع أيهما يغزى ؟ فقال (أما الفاجر القوي فقوته للمسلمين وفجوره على نفسه وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين فيغزى مع القوي الفاجر) .

ومن هنا نعرف أهمية الشجاعة كخصلة وميزة أساسية في شخصية القائد حتى لا يتكرر ما حدث مع جيش الأمير أبي القاسم الذي أثر جبنه في هذا الموقف على الجيش بأكمله فانهزم من أمام العدو .

74 - فتح [إليون].

قال ابن الأثير رحمه الله :

لما رأى أهل الأندلس فعل صنهاجة حسدوهم ورغبوا في الجهاد وقالوا للمنصور بن أبي عامر: لقد نشطنا هؤلاء للغزو.

فجمع الجيوش الكثيرة من سائر الأقطار وخرج إلى الجهاد وكان رأى في منامه تلك الليالي كأن رجلًا أعطاه الأسبراج فأخذه من يده وأكل منه فعبره على ابن أبي جمعة فقال له: اخرج إلى بلد إليون فإنك ستفتحها فقال: من أين أخذت هذا فخرج إليها ونازلها وهي من أعظم مدائنهم واستمد أهلها الفرنج فأمدوهم بجيوش كثيرة واقتتلوا ليلًا ونهارًا فكثر القتل فيهم وصبرت صنهاجة صبرًا عظيمًا ثم خرج قومص كبير من الفرنج لم يكن لهم مثله فجال بين الصفوف وطلب البراز فبرز إليه جلالة بن زيري الصنهاجي فحمل كل واحد منهما على صاحبه فطعنه الفرنجي فمال عن الطعنة وضربه بالسف على عاتقه فأبان عاتقه فسقط الفرنجي إلى الأرض وحمل المسلمون على النصارى فانهزموا إلى بلادهم وقتل منهم ما لا يحصى وملك المدينة.

وغنم ابن أبي عامر غنيمة عظيمة لم ير مثلها واجتمع من السبي ثلاثون ألفًا وأمر بالقتلى فنضدت بعضها على بعض وأمر مؤذنًا أذن فوق القتلى المغرب وخرب مدينة قامونة ورجع سالمًا وهو وعساكره.

انتهى .

روح التنافس

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق فوافق ذلك مالا عندي فقلت (اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوما) قال (فجئت بنصف مالي) قال : فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما أبقيت لأهلك؟" قلت : مثله ، وأتى أبو بكر رضي الله عنه بكل ما عنده ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما أبقيت لأهلك ؟" قال (أبقيت لهم الله ورسوله)، فقلت (لا أسابقك إلى شيء أبدا).

وروح المنافسة هذه كانت متفشية عند الصحابة ، فقد كان الأوس والخزرج لا يفعل فريق منهم شيئا إلا أتى الآخر بمثله كما حدث لما قامت الأوس بتنفيذ رغبة النبي صلى الله عليه وسلم بقتل كعب بن الأشرف فردت الخزرج بقتل بن أبي الحقيق الذي كان يؤلب على المسلمين .

وهذه الروح ضرورية جدا في رفع الحماسة لدى المقاتلين في الحروب لأنها تشكل دافع إضافي للعمل والبذل والعطاء ،
وهذه الروح أيضا هي التي دفعت الأندلسيين إلى منافسة إخوانهم من صنهاجة للتأكيد على دورهم في الحرب {وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ}.

75 - غزو الهند عام اثنين وتسعين وثلاثمائة للهجرة.

قال ابن الأثير رحمه الله :

في هذه السنة أوقع يمين الدولة محمود بن سبكتكين بجيبال ملك الهند وقعة عظيمة.

وسبب ذلك أنه لما اشتغل بأمر خراسان وملكها وفرغ منها ومن قتال خلف بن أحمد وخلا وجهه من ذلك أحب أن يغزو الهند غزوةً تكون كفارة لما كان منه من قتال المسلمين فثنى عنانه نحو تلك البلاد فنزل على مدينة برشور فأتاه عدوٍ الله جيبال ملك الهند في عساكر كثيرة فاختار يمين الدولة من عساكره والمطوعة خمسة عشر ألفاً وسار نحوه فالتقوا في المحرم من هذه السنة فاقتتلوا وصبر الفريقان.

فلما انتصف النهار انهزم الهند وقتل فيهم مقتلة عظيمة وأسر جيبال ومعه جماعة كثيرة من أهله وعشيرته وغنم المسلمون منهم أموالاً جليلة وجواهر نفيسة وأخذ من عنق عدو الله جيبال قلادة من الجوهر العديم النظير قومت بمائتي ألف دينار وأصيب أمثالها في أعناق مقدمي الأسرى

وغنموا خمس مائة ألف رأس من العبيد وفتح من بلاد الهند بلادًا كثيرة فلما فرغ من غزواته أحب أن يطلق جيبال ليراه الهنود في شعار الذل فأطلقه بمالٍ قرره عليه فأدى المال.

ومن عادة الهند أنهم من حصل منهم في أيدي المسلمين أسيرًا لم ينعقد له بعدها رئاسة فلما رأى جيبال حاله بعد خلاصه حلق رأسه ثم ألقى نفسه في النار فاحترق بنار الدنيا قبل نار الآخرة.

انتهى .

إلحاق الذل بالعدو

قال الله تعالى { قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ } قال ابن كثير (وهم صاغرون : أي ذليلون حقيرون مهانون) وقد جاء في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه " وقد ورد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اشترط على أهل الذمة شروطا عرفت فيما بعد باسم [الشروط العمرية] ملأها بالذل والصغار عليهم مما جعلهم يبحثون عن مخرج لهم ، فكان الإسلام هو الحل الأمثل للتخلص من ذلك الذل .
ولا تقتصر فوائد إلحاق الذل بالعدو على ذلك فحسب ، فقد رأينا كيف أن إذلال ملك الهند [بيبال] قد قتل الروح المعنوية لجنوده ودفعه لقتل نفسه بيده ليهرب من جحيم الذل ، أما المسلم فهو مستعل بإيمانه وإن قهره الأعداء كما كانوا يفعلون ببلال رضي الله عنه في رمضاء مكة وهو يصرخ بهم (أحد . . أحد)
وصدق الله العظيم { وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ }.

76 - فتح [بهاطية].

قال ابن الأثير رحمه الله :

في هذه السنة غزا يمين الدولة بهاطية من أعمال الهند وهي وراء المولتان وصاحبها يعرف ببحيرا وهي مدينة حصينة عالية السور يحيط بها خندق عميق فامتنع صاحبها بها ثم إنه خرج إلى ظاهرها فقاتل المسلمين ثلاثة أيام ثم انهزم في الرابع وطلب المدينة ليدخلها فسبقهم المسلمون إلى باب البلد فملكوه عليهم وأخذتهم السيوف من بين أيديهم ومن خلفهم فقتل المقاتلة وسبيت الذرية وأخذت الأموال.
وأما بحيرا فإنه لما عاين الهلاك أخذ جماعة من ثقاته وسار إلى رؤوس تلك الجبال فسير إليه يمين الدولة سرية فلم يشعر بهم بحيرا إلا وقد أحاطوا به وحكموا السيوف في أصحابه فلما أيقن بالعطب أخذ خنجرًا معه فقتل به نفسه وأقام يمين الدولة ببهاطية حتى أصلح أمرها ورتب قواعدها وعاد عنها إلى غزنة واستخلف بها من يعلم من أسلم من أهلها ما يجب عليهم تعلمه ولقي في عوده شدة شديدة من الأمطار وكثرتها وزيادة الأنهار فغرق منه ومن عسكره شيء عظيم.

انتهى .

الدعوة والتعليم

كان هديه صلى الله عليه وسلم إذا أسلم قوم بعث إليهم من يعلمهم أمر دينهم ، فلقد بعث معاذا إلى اليمن والطفيل إلى قومه وهكذا . . .

لأن تعليم الناس أمر دينهم ليثبتوا عليه هو الفتح الحقيقي للأرض التي يعيشون عليها ، وإلا من السهل أن يرتد أهلها عن الإسلام إن لم يأخذوا القدر اللازم من شرائعه فيتعلموا فيه الدين وأنه النور الذي يبدد الظلمات التي طالما عاشوا فيها .

ومن يعلم حقيقة الإسلام لا يرتد عنه إلا أن يشاء الله .
أما إن فتحنا الأرض ودخل الناس في الدين خوفا وطمعا ثم تركناهم دون اهتمام أو تعليم فكأننا لم نقدم لهم شيئا ، ويكون من السهل عليهم أن يرتدوا ويطعنونا في الظهر إن دارت الدائرة علينا .

فيجب أن نعلم أننا دعاة بالدرجة الأولى ولسنا مقاتلين فقط ، كما قال عمر بن عبدالعزيز لواليه على العراق لما أشار عليه في أخذ الخراج من من يشك في إسلامه ، قال له (اعلم أن الله تعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يبعثه جابيا) .

77 - غزو [المولتان] عام ستة وتسعين وثلاثمائة للهجرة.

قال ابن الأثير رحمه الله :

في هذه السنة غزا السلطان يمين الدولة المولتان.

وكان سبب ذلك أن واليها أبا الفتوح نقل عنه خبث اعتقاده ونسب إلى الإلحاد وأنه قد دعا أهل ولايته إلى ما هو عليه فأجابوه.

فرأى يمين الدولة أن يجاهده ويستنزله عما هو عليه فسار نحوه فرأى الأنهار التي في طريقه كثيرة الزيادة عظيمة المد وخاصة سيحون فإنه منع جانبه من العبور فأرسل إلى أندبال يطلب إليه أن يأذن له في العبور ببلاده إلى المولتان فلم يجبه إلى ذلك فابتدأ به قبل المولتان وقال: نجمع بين غزوتين لأنه لا غزو إلا التعقيب فدخل بلاده وجاسها وأكثر القتل فيها والنهب لأموال أهلها والإحراق لأبنيتها ففر أندبال من بين يديه وهو في أثره كالشهاب في أثر الشيطان من مضيق إلى مضيق إلى أن وصل إلى قشمير.

ولما سمع أبو الفتوح بخبر إقباله إليه علم عجزه عن الوقوف بين يديه والعصيان عليه فنقل أمواله إلى سرنديب وأخلى المولتان فوصل يمين الدولة إليها ونازلها فإذا أهلها في ضلالهم

يعمهون فحصرهم وضيق عليهم وتابع القتال حتى افتتحها عنوةً وألزم أهلها عشرين ألف درهم عقوبة لعصيانهم.

انتهى .

أهمية الممرات الإستراتيجية

تعتبر المضائق البحرية والطرق الجبلية ذات أهمية كبيرة بما أنها تشكل ممرات استراتيجية لعبور الجيوش أو للملاحة البحرية والتجارة .
ولذلك تحرص الدول العظمى على السيطرة على هذه الممرات حتى تتحكم في المفاصل الجغرافية لهذا العالم ، فتسمح لمن تشاء بالمرور وتمنع من تشاء .

فمن الضروري إذا في الحروب ألا تكون هذه الممرات تحت رحمة أعدائنا بل يجب أن تكون لنا الأولوية في إدارتها ، لأن ترك هذا الأمر بهذه الطريقة سيؤدي إلى توقف الجهاد لا محالة كما فعل [الذبال] في منعه لسبكتكين من المرور لقتال [أبي الفتوح] .

78 - غزوة [كالنجار].

قال ابن الأثير رحمه الله :

ثم سار (أي يمين الدولة) عنها إلى قلعة كواكير وكان صاحبها يعرف ببيدا وكان بها ستمائة صنم فافتتحها وأحرق الأصنام فهرب صاحبها إلى قلعته المعروفة بكالنجار فسار خلفه إليها وهو حصن كبير يسع خمسمائة ألف إنسان وفيه خمسمائة فيل وعشرون ألف دابة وفي الحصن ما يكفي الجميع مدة.

فلما قاربها يمين الدولة وبقي بينهما سبعة فراسخ رأى من الغياض المانعة من سلوك الطريق ما لا حد عليه فأمر بقطعها ورأى في الطريق واديًا عظيم العمق بعيد القعر فأمر أن يطم منه مقدار ما يسع عشرين فارسًا فطموه بالجلود المملوءة ترابًا ووصل إلى القلعة فحصرها ثلاثة وأربعين يومًا وراسله صاحبها في الصلح فلم يجبه.

انتهى .

سلاح الهندسة

هو بمثابة المطبخ التحضيري قبل المعارك ، فكل ما يحتاجه الجيش من فتح ثغرات في السواتر والحواجز وتأمين الجسور وفتح الطرق الآمنة في حقول الألغام ، فكل هذا وأكثر يقوم به [سلاح الهندسة] في الجيش.

وتوجد في الجيوش الحديثة كتائب متخصصة في ذلك ، أما في السابق فلم تكن هذه التخصصات محددة بشكل مستقل ، بل إن احتاج الجيش لحفر خندق كما في غزوة الخندق فكل الجيش يقوم بالحفر ، وإن احتيج لعبور وادي فكل الجيش يقوم بإزالة الموانع كما فعل جيش سبكتكين لما رموا الجلود المملوءة بالتراب لعمل ممر يكفي لمرور عشرين فارسا وهو عمل من صميم أعمال سلاح الهندسة ،إلا أن بعض الجيوش القديمة كانت تحتوي على [الفعلة] وهم من أصحاب المهنة الحرفية الهندسية كالمختصين في البناء والهدم وشق الطرق .

79 - غزوة [تانيشر].

قال ابن الأثير رحمه الله :
قد ذكر ليمين الدولة أن بناحية تانيشر فيلة من جنس فيلة الصيلمان الموصوفة في الحرب وأن صاحبها غالٍ في الكفر والطغيان والعناد للمسلمين فعزم على غزوه في عقر داره وأن يذيقه شربة من كأس قتاله فسار في الجنود والعساكر والمتطوعة فلقي في طريقه أودية بعيدة القعر وعرة المسالك وقفارًا فسيحة الأقطار والأطراف بعيدة الأكناف والماء بها قليل فلقوا شدة وقاسوا مشقة إلى أن قطعوها.

فلما قاربوا مقصدهم لقوا نهرًا شديد الجرية صعب المخاضة وقد وقف صاحب تلك البلاد على طرفه يمنع من عبوره ومعه عساكره وفيلته التي كان يدل بها.

فأمر يمين الدولة شجعان عسكره بعبور النهر وإشغال الكافر بالقتال ليتمكن باقي العسكر من العبور ففعلوا ذلك وقاتلوا الهنود وشغلوهم عن حفظ النهر حتى عبر سائر العسكر في المخاضات وقاتلوهم من جميع جهاتهم إلى آخر النهار فانهزم الهند وظفر المسلمون وغنموا ما معهم من أموال وفيلة وعادوا إلى غزنة موفرين ظافرين.

انتهى .

قتال العدو الأخطر

قال الله تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً }

في قوله " الذين يلونكم " أي في القرب ، ولكن ليس على إطلاقه ، قال الشافعي رحمه الله (فإن اختلف حال العدو فكان بعضهم أنكى من بعض أو أخوف من بعض فليبدأ الإمام بالعدو الأخوف الأنكى ولا بأس أن يفعل ، وقد بلغ النبي صلى الله عليه وسلم عن الحارث بن أبي ضرار أنه يجمع

له ، فأغار عليه النبي صلى الله عليه وسلم وقربه عدو أقرب منه ، وبلغه أن خالد بن أبي سفيان يجمع له فأرسل ابن أنيس فقتله وقربه عدو أقرب) انتهى كلامه .

إذن فقتال العدو الأقرب والأبعد يكون تبعا للمصلحة ، وهذا ما فعله سبكتكين في هذه الغزوة حتى لا يستفحل أمر هذا الكافر ويكثر أعوانه ويشكل تهديدا حقيقيا للمسلمين .

80 - غزوة حصن [هودب].

قال ابن الأثير رحمه الله :

في هذه السنة غزا يمين الدولة بلاد الهند بعد فراغه من خوارزم فسار منها إلى غزنة ومنها إلى الهند عازمًا على غزو قشمير إذ كان قد استولى على بلاد الهند ما بينه وبين قشمير وأتاه من المتطوعة نحو عشرين ألف مقاتل من ما وراء النهر وغيره من البلاد وسار إليها من غزنة ثلاثة أشهر سيرًا دائمًا وعبر نهر سيحون وجيلوم وهما نهران عميقان شديدا الجرية فوطئ أرض الهند وأتاه رسل ملوكها بالطاعة وبذل الإتاوة.

فلما بلغ درب قشمير أتاه صاحبها وأسلم على يده وسار بين يديه إلى مقصده فبلغ ماء جون في العشرين من رجب وفتح ما حولها من الولايات الفسيحة والحصون المنيعة حتى بلغ حصن هودت وهو آخر ملوك الهند فنظر هودت من أعلى حصنه فرأى من العساكر ما هاله ورعبه وعلم أنه لا ينجيه إلا الإسلام فخرج في نحو عشرة آلاف ينادون بكلمة الإخلاص طلبًا للخلاص فقبله يمين الدولة وسار عنه إلى قلعة كلجند.

انتهى .

المظهر المرعب

ذهب عمير بن وهب الجمحي ليستطلع وينظر إلى جيش المسلمين يوم بدر ، فرجع إلى قريش وقلبه قد امتلأ من الرعب وقال (رأيت البلايا تحمل المنايا ، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع).

وهكذا يجب أن نظهر أمام أعين أعدائنا بمظهر مرعب يدل على القوة والعنف الذي يرهب الأعداء ، أما الأشكال اللطيفة والناعمة فهي من تدعو الأعداء لافتراسها ، ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لجنوده (اخشوشنوا) .

وانظر إلى ما حل ب[هودب] ورفاقه فبمجرد رؤيته لجيش سبكتكين المرعب سلم وآثر السلامة ، وأصبح هو وجيشه يبادرون لكلمة الإخلاص طلبا للخلاص كما قال ابن الأثير ، فمظهر الجيش لوحده كان كفيلا بإنهاء المعركة قبل أن تبدأ .

81 - غزو الترك عام ثمانية وأربعمائة للهجرة.

قال ابن الأثير رحمه الله :

في هذه السنة خرج الترك من الصين في عدد كثير يزيدون على ثلاثمائة ألف خركاة من أجناس الترك منهم الخطابية الذين ملكوا ما وراء النهر وسيرد خبر ملكهم إن شاء الله تعالى.

وكان سبب خروجهم أن طغان خان لما ملك تركستان مرض مرضًا شديدًا وطال به المرض فطمعوا في البلاد لذلك فساروا إليها وملكوا بعضها وغنموا وسبوا وبقي بينهم وبين بلاساغون ثمانية أيام فلما بلغه الخبر كان بها مريضًا فسأل الله تعالى أن يعافيه لينتقم من الكفرة ويحمي البلاد منهم ثم يفعل به بعد ذلك ما أراد فاستجاب الله له وشفاه فجمع العساكر وكتب إلى سائر بلاد الإسلام يستنفر الناس فاجتمع إليه من المتطوعة مائة ألف وعشرون ألفًا فلما بلغ الترك خبر عافيته وجمعه العساكر وكثرة من معه عادوا إلى بلادهم فسار خلفهم نحو ثلاثة أشهر حتى أدركهم وهم آمنون لبعد المسافة فكبسهم وقتل منهم زيادة على مائتي ألف رجل وأسر نحو مائة ألف وغنم من الدواب والخركاهات وغير ذلك من الأواني الذهبية والفضية ومعمول الصين ما لا عهد لأحدٍ بمثله وعاد إلى بلاساغون فلما بلغها عاوده مرضه فمات منه.

وكان عادلًا خيرًا دينًا يحب العلم وأهله ويميل إلى أهل الدين ويصلهم ويقربهم وما أشبه قصته بقصة سعد بن معاذ الأنصاري وقد تقدمت في غزوة الخندق وقيل: كانت هذه الحادثة مع أحمد بن علي قراخان أخي طغان خان وإنها كانت سنة ثلاث وأربعمائة.

انتهى .

الصدق في نصرة الدين

تمر علينا في التاريخ معان جميلة ومواقف مؤثرة ، تحكي صدق أصحابها في نصرتهم للدين وسمو أمانيهم في هذه الحياة التي اختصروا كل ما فيها في أمنية واحدة فقط ، وهي إرضاء الله عز وجل ونصرة دينه ، وما أسماها من أمنية وما أشرفها من غاية .

وإن كانت قصة الملك طغان خان في تمنيه الشفاء من أجل الجهاد في سبيل الله فقط تذكر ابن الأثير بقصة سعد بن معاذ رضي الله عنه ، فإنها تذكرنا بكل صادق أخلص نيته وبذل وسعه في نصرة دينه وإرضاء ربه ، وما أحوجنا إلى مثل هذه النماذج التي تحيا بها القلوب السقيمة والنفوس العاجزة الراكنة إلى الدنيا والمتمنية على الأماني .
هذه النماذج التي أنزل الله فيها {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً} .

82 - فتح [سومنات].

قال ابن الأثير رحمه الله :

في هذه السنة فتح يمين الدولة في بلاد الهند عدة حصون ومدن وأخذ الصنم المعروف بسومنات وهذا الصنم كان أعظم أصنام الهند وهم يحجون إليه كل ليلة خسوف فيجتمع عنده ما ينيف على مائة ألف إنسان وتزعم الهنود أن الأرواح إذا فارقت الأجساد اجتمعت إليه على مذهب التناسخ فينشئها فيمن شاء وأن المد والجزر الذي عنده إنما هو عبادة البحر على قدر استطاعته.

وكانوا يحملون إليه كل علق نفيس ويعطون سدنته كل مال جزيل وله من الموقوف ما يزيد على عشرة آلاف قرية وقد اجتمع في البيت الذي هو فيه من نفيس الجوهر ما لا تحصى قيمته ولأهل الهند نهر كبير يسمى كنك يعظمونه غاية التعظيم ويلقون فيه عظام من يموت من كبرائهم ويعتقدون أنها تساق إلى جنة النعيم.

وبين هذا النهر وبين سومنات نحو مائتي فرسخ وكان يحمل من مائة كل يوم إلى سومنات ما يغسل به ويكون عنده من البرهميين كل يوم ألف رجل لعبادته وتقديم الوفود إليه وثلاثمائة رجل يحلقون رؤوس زواره ولحاهم وثلاثمائة رجل وخمسمائة أمة يغنون ويرقصون على باب الصنم ولكل واحد من هؤلاء شيء معلوم كل يوم.

وكان يمين الدولة كلما فتح من الهند فتحًا وكسر صنمًا يقول الهنود: إن هذه الأصنام قد سخط عليها سومنات ولو أنه راض عنها لأهلك من تقصدها بسوء فلما بلغ ذلك يمين الدولة عزم على غزوه وإهلاكه ظنًا منه أن الهنود إذا فقدوه ورأوا كذب ادعائهم الباطل دخلوا في الإسلام فاستخار الله تعالى وسار عن غزنة عاشر شعبان من هذه السنة في ثلاثين ألف فارس من عساكره سوى المتطوعة وسلك سبيل الملتان فوصلها منتصف شهر رمضان.

وفي طريقه إلى الهند برية قفر لا ساكن فيها ولا ماء ولا ميرة فتجهز هو وعسكره على قدرها ثم زاد بعد الحاجة عشرين ألف جمل تحمل الماء والميرة وقصد أنهلوارة فلما قطع المفازة رأى في طرفها حصونًا مشحونة بالرجال وعندها آبار قد غوروها ليتعذر عليه حصرها فيسر الله تعالى فتحها عند قربه منها بالرعب الذي قذفه في قلوبهم وتسلمها وقتل سكانها وأهلك أوثانها وامتاروا منها الماء وما يحتاجون إليه.

وسار إلى أنهلوارة فوصلها مستهل ذي القعدة فرأى صاحبها المدعو بهيم قد أجفل عنها وتركها وأمعن في الهرب وقصد حصنًا له يحتمي به فاستولى يمين الدولة على المدينة وسار إلى سومنات فلقي في طريقه عدة حصون فيها كثير من الأوثان شبه الحجاب والنقباء لسومنات على ما سول لهم الشيطان فقاتل من بها وفتحها وخربها وكسر أصنامها وسار إلى سومنات في مفازة قفرة قليلة الماء فلقي فيها عشرين ألف مقاتل من سكانها لم يدينوا للملك فأرسل إليهم السرايا فقاتلوهم فهزموهم وغنموا مالهم وامتاروا من عندهم وساروا حتى بلغوا دبولوارة وهي على مرحلتين من سومنات وقد ثبت أهلها له ظنًا منهم أن سومنات يمنعهم ويدفع عنهم فاستولى عليها وقتل رجالها وغنم أموالها وسار عنها إلى سومنات فوصلها يوم الخميس منتصف ذي القعدة فرأى حصنًا

حصينًا مبنيًا على ساحل البحر بحيث تبلغه أمواجه وأهله على الأسوار يتفرجون على المسلمين واثقين أن معبودهم يقطع دابرهم ويهلكهم.

فلما كان من الغد وهو يوم الجمعة زحف وقاتل من به فرأى الهنود من المسلمين قتالًا لم يعهدوا مثله ففارقوا السور فنصب المسلمون عليه السلاليم وصعدوا إليه وأعلنوا بكلمة الإخلاص وأظهروا شعار الإسلام فحينئذ اشتد القتال وعظم الخطب وتقدم جماعة الهنود إلى سومنات فعفروا له خدودهم وسألوه النصر وأدركهم الليل فكف بعضهم عن بعض.

فلما كان الغد بكر المسلمون إليهم وقاتلوهم فأكثروا في الهنود القتل وأجلوهم عن المدينة إلى بيت صنمهم سومنات فقاتلوا على بابه أشد قتال وكان الفريق منهم بعد الفريق يدخلون إلى سومنات فيعتنقونه ويبكون ويتضرعون إليه ويخرجون فيقاتلون إلى أن يقتلوا حتى كاد الفناء يستوعبهم فبقي منهم القليل فدخلوا البحر إلى مركبين لهم لينجو فيهما فأدركهم المسلمون فقتلوا بعضًا وغرق بعض.

وأما البيت الذي فيه سومنات فهو مبني على ست وخمسين سارية من الساج المصفح بالرصاص وسومنات من حجر طوله خمسة أذرع: ثلاثة مدورة ظاهرة وذراعان في البناء وليس بصورة مصورة فأخذه يمين الدولة فكسره وأحرق بعضه وأخذ بعضه معه إلى غزنة فجعله عتبة الجامع.

وكان بيت الصنم مظلمًا وإنما الضوء الذي عنده من قناديل الجوهر الفائق وكان عنده سلسلة ذهب فيها جرس وزنها مائتا من كلما مضى طائفة معلومة من الليل حركت السلسلة فيصوت الجرس فيقوم طائفة من البرهميين إلى عبادتهم وعنده خزانة فيها عدة من الأصنام الذهبية والفضية وعليها الستور المعلقة المرصعة بالجوهر كل واحد منها منسوب إلى عظيم من عظمائهم وقيمة ما في البيوت تزيد على عشرين ألف ألف دينار فأخذ الجميع.

انتهى .

الأخذ بالسنن في الحرب

نلاحظ في هذه الغزوة أن محمود بن سبكتكين قد أخذ بـ [الاستخارة] كما قيل (ما خاب من استخار وما ندم من استشار) . وأخذ أيضا بسنة النبي صلى الله عليه وسلم في التبكير في الغزو كما جاء في الحديث "بورك لأمتي في بكورها" هذه السنن وغيرها علامة كبيرة على التوفيق والهداية ، والأخذ بها والمحافظة عليها هو من صميم الأخذ بالأسباب الجالبة للنصر ، لأن الخير كل الخير في اتباع هدي النبي صلى الله عليه وسلم وسمته وبما أن النبي صلى الله عليه وسلم أمرنا أن نصلي كما يصلي فحري بنا أن نجاهد كما كان يجاهد .

83 - تملك محمود بن سبكتكين الري عام عشرين وأربعمائة للهجرة.

قال ابن الأثير رحمه الله :

في هذه السنة سار يمين الدولة محمود بن سبكتكين نحو الري فانصرف منوجهر بن قابوس من وكان مجد الدولة بن فخر الدولة بن بويه صاحب الري قد كاتبه يشكو إليه جنده وكان متشاغلًا بالنساء ومطالعة الكتب ونسخها وكانت والدته تدبر مملكته فلما توفيت طمع جنده فيه واختلت أحواله فحين وصلت كتبه إلى محمود سير إليه جيشًا وجعل مقدمهم حاجبه وأمره أن يقبض على مجد الدولة.

فلما وصل العسكر إلى الري ركب مجد الدولة يلتقيهم فقبضوا عليه وعلى أبي دلف ولده.

فلما انتهى الخبر إلى يمين الدولة بالقبض عليه سار إلى الري فوصلها في ربيع الآخر ودخلها وأخذ من الأموال ألف ألف دينار ومن الجواهر ما قيمته خمسمائة ألف دينار ومن الثياب ستة آلاف ثوب ومن الآلات وغيرها ما لا يحصى وأحضر مجد الدولة وقال له: أما قرأت شاهنامه وهو تاريخ الفرس وتاريخ الطبري وهو تاريخ المسلمين قال: بلى! قال: ما حالك حال من قرأها أما لعبت بالشطرنج قال: بلى! قال: فهل رأيت شاهًا يدخل على شاه قال: لا.

قال: فما حملك على أن سلمت نفسك إلى من هو أقوى منك ثم سيره إلى خراسان مقبوضًا ثم ملك قزوين وقلاعها ومدينة ساوة وآبة ويافت وقبض على صاحبها ولكين بن وندرين وسيره إلى خراسان.

انتهى.

العبرة من التاريخ

إن أهمية قراءة التاريخ تكمن في أنك تضع في جيبك خلاصة تجارب الأمم من قبلك ، فتكون بذلك قد عشت حياتك وحياة غيرك ! هذه العبرة والدروس تعطيك نظرة أدق للأمور من حولك فيكون من السهل عليك ألا تقع فيما وقع فيه غيرك من المكائد والأخطاء كما حدث مع مجد بن بويه هنا !
وقراءة التاريخ تساعدك على فهم السنن الكونية الثابتة التي لا تتبدل مع تبدل الزمن ويؤيد هذا ما ذكره الباحث في التاريخ د . راغب السرجاني من أن الأحداث عبر التاريخ ثابتة ولكن الأشخاص والأزمنة تتغير ، وصدق الله العظيم {وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ} .

84 - غزو الخزر عام واحد وعشرين وأربعمائة للهجرة.

قال ابن الأثير رحمه الله :

كان فضلون الكردي هذا بيده قطعة من أذربيجان قد استولى عليها وملكها فاتفق أنه غزا الخزر هذه السنة فقتل منهم وسبى وغنم شيئًا كثيرًا فلما عاد إلى بلده أبطأ في سيره وأمل الاستظهار في أمره ظنًا منه أنه قد دوخهم وشغلهم بما عمله بهم فاتبعوه مجدين وكيسوه وقتلوا من أصحابه والمطوعة الذين معه أكثر من عشرة آلاف قتيل واستردوا الغنائم التي أخذت منهم وغنموا أموال العساكر الإسلامية وعادوا.

انتهى .

إخلاء مسرح العمليات

تتطلب بعض العمليات العسكرية الخاطفة انسحاب سريع للمقاتلين بعد انتهاء العملية ، ولذا نجد أن القائد العسكري يضع تقدير معين للوقت المستغرق للعملية ويبني عليه الوقت اللازم لإخلاء مسرح العمليات ، بل إن بعض العمليات الخاصة في حرب العصابات تصدر فيها الأوامر بعدم حمل الجرحى لأن ذلك سيؤخر عملية الإخلاء والانسحاب من المنطقة مما سيضع المجموعة كلها تحت دائرة الخطر بل قد يؤدي إلى القضاء عليها كما حدث مع فضلون الكردي وجيشه في تأخره عن الانسحاب من منطقة العدو .

85 - غزو قلعة نغسى.

قال ابن الأثير رحمه الله :

لما ملك مسعود قلعة سرستي رحل عنها إلى قلعة نغسى فوصل إليها عاشر صفر وحصرها فرآها عالية لا ترام يرتد البصر دونها وهو حسير إلا أنه أقام عليها يحصرها فخرجت عجوز ساحرة فتكلمت باللسان الهندي طويلًا وأخذت مكنسة فبلتها بالماء ورشته منها إلى جهة عسكر المسلمين فمرض وأصبح ولا يقدر أن يرفع رأسه وضعفت قوته ضعفًا شديدًا فرحل عن القلعة لشدة المرض فحين فارقها زال ما كان به وأقبلت الصحة والعافية إليه وسار نحو غزنة.

انتهى .

التحصن بذكر الله

عن الحارث الأشعري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

"أمر الله تعالى نبيه يحيى بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات أن يعمل بهن ويأمر بني إسرائيل بالعمل بهن" - فذكر منها – "وآمركم بذكر الله عز وجل كثيرا ، فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعا في أثره فأتى حصنا حصينا فتحصن فيه ، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله عز وجل". وكما أن الدرع على صدر المجاهد تقيه من سهام العدو وطعنه فكذلك ذكر الله يقيه من سهام الشر التي يلقيها شياطين الجن والإنس سواء كانت بعين أو مس أو سحر ! وما السحر الذي ألقي على مسعود بن محمود في هذه الغزوة إلا من هذه المخاطر التي لا يحفظ منها الله عز وجل والاعتصام بذكره ، قال النبي صلى الله عليه وسلم "من قال بسم الله الذي لا يضره مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ثلاثا إذا أصبح وثلاثا إذا أمسى لم يضره شيء " فإن داوم المجاهد على هذه الأذكار التي منها ما هو في الصباح ومنها ما هو في المساء وأتى بكل دعاء مع ما يناسبه في النوم والأكل ودخول الحمام والجماع وغيره كتب من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات وأورثه ذلك طمأنينة في قلبه {أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ } .

86 - اجتماع ملوك الهند لغزو المسلمين عام خمسة وثلاثين وأربعمائة للهجرة.

قال ابن الأثير رحمه الله :

في هذه السنة اجتمع ثلاث ملوك من ملوك الهند وقصدوا لهاوور وحصروها فجمع مقدم العساكر الإسلامية بتلك الديار من عنده منهم وأرسل إلى صاحبه مودود يستنجده فسير إليه العساكر.

فاتفق أن بعض أولئك الملوك فارقهم وعاد إلى طاعة مودود فرحل الملكان الآخران إلى بلادهما فسارت العساكر الإسلامية إلى أحدهما ويعرف بدوبال هرباته فانهزم منهم وصعد إلى قلعة له منيعة هو وعساكره فاحتموا بها وكانوا خمسة آلاف فارس وسبعين ألف راجل وحصرهم المسلمون وضيقوا عليهم وأكثروا القتل فيهم فطلب الهنود الأمان على تسليم

الحصن فامتنع المسلمون من إجابتهم إلى ذلك إلا بعد أن يضيفوا إليه باقي حصون ذلك الملك الذي لهم فحملهم الخوف وعدم الأقوات على إجابتهم إلى ما طلبوا وتسلموا الجميع وغنم المسلمون الأموال وأطلقوا ما في الحصون من أسرى المسلمين وكانوا نحو خمسة آلاف نفر.

فلما فرغوا من هذه الناحية قصدوا ولاية الملك الثاني واسمه تابت بالري فتقدم إليهم ولقيهم فاقتتلوا قتالًا شديدًا وانهزمت الهنود وأجلت المعركة عن قتل ملكهم وخمسة آلاف قتيل وجرح وأسر ضعفاهم وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ودوابهم.

فلما رأى باقي الملوك من الهند ما لقي هؤلاء أذعنوا بالطاعة وحملوا الأموال وطلبوا الأمان والإقرار على بلادهم فأجيبوا إلى ذلك.

انتهى .

الاستنفار

يعتبر الاستنفار بمثابة الخطوة الأولى الممهدة لأي مواجهة عسكرية محتملة ، وتقوم بعض الجيوش من فترة لأخرى بعمل - استنفار وهمي - لكشف مدى الجاهزية القتالية لدى وحداتها العسكرية والوقت المستغرق في ذلك ، وقد يأخذ الاستنفار درجات مختلفة في التجهيز ، فقد يدعو الاستنفار إلى استدعاء قوات الاحتياط وإلى أن ينام الطيارون في كبائن القيادة في طائراتهم وإلى إخلاء بعض المناطق القريبة من خطوط المواجهة وكل هذا بحسب تقدير خطورة الوضع العسكري ، فاجتماع ملوك الهند في هذه الغزوة دعا مقدم العساكر الإسلامية في تلك المنطقة إلى إعلان الاستنفار العام وطلب المدد ولما وصلت هذه الأخبار لملوك الهند أرعبتهم وأدت إلى تفكيك تحالفهم بفضل الله وعونه ، لأن أي معلومات تصل للعدو عن جاهزيتنا للقتال وحزمنا في ذلك ستدعوه إلى إعادة التفكير ألف مرة قبل أن يدخل في مواجهة معنا .

87 - غزو الروم عام أربعين وأربعمائة للهجرة.

قال ابن الأثير رحمه الله :

في هذه السنة غزا إبراهيم ينال الروم فظفر بهم وغنم.

وكان سبب ذلك أن خلقًا كثيرًا من الغز بما وراء النهر قدموا عليه فقال لهم: بلادي تضيق عن مقامكم والقيام بما تحتاجون إليه والرأي أن تمضوا إلى غزو الروم وتجاهدوا في سبيل الله وتغنموا وأنا سائر على أثركم ومساعد لكم على أمركم.

ففعلوا. وساروا بين يديه وتبعهم فوصلوا إلى ملازكرد وأرزن الرومِ وقاليقلا وبلغوا طرابزون وتلك النواحي كلها ولقيهم عسكر عظيم لروم والأبخاز يبلغون خمسين ألفًا فاقتتلوا واشتد القتال بينهم وكانت بينهم عدة وقائع تارة يظفر هؤلاء وتارة هؤلاء وكان آخر الأمر الظفر للمسلمين فأكثروا القتل في الروم وهزموهم وأسروا جماعة كثيرة من بطارقتهم وممن أسر قاريط ملك الأبخاز فبذل في نفسه ثلاثمائة ألف دينار وهدايا بمائة ألف فلم يجبه إلى ذلك ولم يجوس تلك البلاد وينهبها إلى انهزموا أن بقي بينه وبين القسطنطينية خمسة عشر يومًا واستولى المسلمون على تلك النواحي فنهبوها وغنموا ما فيها وسبوا أكثر من مائة ألف رأس وأخذوا من الدواب والبغال والغنائم والأموال ما لا يقع عليه الإحصاء وقيل إن الغنائم حملت على عشرة آلاف عجلة وإن في جملة الغنيمة تسعة عشر ألف درع.

وكان قد دخل بلد الروم جمع من الغز يقدمهم إنسان نسيب طغرلبك فلم يؤثر كبير أثر وقتل من أصحابه جماعة وعاد ودخل بعده إبراهيم ينال ففعل هذا الذي ذكرناه.

انتهى .

أطيب الحلال

قال الله تعالى { فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً } وقال النبي صلى الله عليه وسلم "وجعل رزقي تحت ظل رمحي" وقد بدأ النبي صلى الله عليه وسلم الجهاد باستهداف قوافل قريش التجارية طلبا للغنيمة كما في غزوة بدر ، والناظر في حال الصحابة يرى أنهم كانوا يعانون الفقر الشديد ولم يخرجهم من هذا الفقر عمل ولا تجارة بل لم يخرجهم منه إلا الجهاد في سبيل الله وما فيه من غنائم وفيء ، فأغناهم الله عز وجل حتى أصبح الواحد منهم يملك الملايين كالزبير بن العوام رضي الله عنه الذي لم يكن له عمل سوى الجهاد في سبيل الله تعالى ، وفي المقابل نفر النبي صلى الله عليه وسلم من الأعمال التي توحي وتدعوا إلى الركون للدنيا مثل الزراعة فقد روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه رآى محراثا فقال : "ما دخلت على أهل بيت إلا ذلوا" وقد رأينا في هذه الغزوات كيف أن الله أغنى الغزاة من بعد فقرهم وحاجتهم فما كان حالهم لو أنهم قعدوا وآثروا العمل في الحرف اليدوية أو الخدمة أو انتظار ما تجود به الأنفس عليهم .

88 - فتح أنطاكية الشام عام سبعة وسبعين وأربعمائة للهجرة.

قال ابن الأثير رحمه الله :

في هذه السنة سار سليمان بن قتلمش صاحب قونية وأقصروا وأعمالها من بلاد الروم إلى الشم فملك مدينة أنطاكية من أرض الشام وكانت بيد الروم من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة.

وسبب ملك سليمان المدينة أن صاحبها الفردوس الرومي كان قد سار عنها إلى بلاد الروم ورتب بها شحنة وكان الفردوس مسيئًا إلى أهلها وإلى جنده أيضًا حتى إنه حبس ابنه فاتفق ابنة والشحنة على تسليم البلد إلى سليمان بن قتلمش وكاتبوه يستدعونه فركب البحر في ثلاثمائة فارس وكثير من الرجالة وخرج منه وسار في جبال وعرة ومضايق شديدة حتى وصل إليها للموعد فنصب السلاليم باتفاق من الشحنة ومن معه وصعد السور واجتمع بالشحنة وأخذ البلد في شعبان فقاتله أهل البلد فهزمهم مرة بعد أخرى وقتل كثيرًا من أهلها ثم عفا عنهم وتسلم القلعة المعروفة بالقسيان وأخذ من الأموال ما يجاوز الإحصاء وأحسن إلى الرعية وعدل فيهم وأمرهم بعمارة ما خرب ومنع أصحابه من النزول في دورهم ومخالطتهم.

ولما ملك سليمان أنطاكية أرسل إلى السلطان ملكشاه يبشره بذلك وينسب هذا الفتح إليه لأنه من أهله وممن يتولى طاعته فأظهر ملكشاه البشارة به وهنأه الناس فممن قال فيه الآبيوردي من قصيدة مطلعها: وفتحت أنطاكية الروم التي نشرت معاقلها على الإسكندر وطئت مناكبها جيادك فانثنت تلقي أجنتها بنات الأصفر وهي طويلة.

انتهى .

العدل

دخل ربعي بن عامر قبيل معركة القادسية على رستم فسأله رستم عن سبب مجيئهم لبلاد الفرس فقال : إن الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ومن جور الأديان إلى عدالة الإسلام ! . إن كلمات ربعي القليلة كانت كفيلة بشرح المنهج الذي شرع من أجله الجهاد ، المنهج الذي ينشر العدل الذي أمر الله به بين الناس في جميع شؤون حياتهم ، وانظر إلى أقوال وأفعال الجيل الأول الذي تربى على يد النبي صلى الله عليه وسلم تجد أن العدل واضحا جليا في أفهامهم ، فهذا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في أول خطبة له (والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقه والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه)
وانظر إلى ما قاله عبدالله بن رواحة عندما بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلى يهود خيبر ليأخذ منهم الزكاة فأرادوا رشوته فقال : والله قد جئتكم من أحب الناس إلي وإنكم لأبغض الناس إلي ولا يحملني حبي له وبغضي لكم ألا أعدل فيكم ، فقالوا : بهذا قامت السماوات والأرض !
هذه المعاني الفريدة في العدل هي من دفعت البشرية إلى دعوة المسلمين لفتح أراضيها حتى يبدد النور الذي بعثهم الله به كل الظلمات التي عاشوا في ظلها والجور الذي يعانون من وطئته ، كما حدث من أهل أنطاكية الشام في دعوتهم لأمير المسلمين سليمان بن قتلمش لفتح بلادهم ، ومن هنا نعلم أن تمسكنا بالتطبيق السليم للمنهج الإسلامي وكل ما فيه من أخلاق وقيم ومبادئ هو من سيفتح لنا قلوب الناس قبل أن نفتح أراضيهم .

89 - سقوط طليطلة عام ثمانية وسبعين وأربعمائة للهجرة.

قال ابن الأثير رحمه الله :

في هذه السنة استولى الفرنج لعنهم الله على مدينة طليطلة من بلاد الأندلس وأخذوها من المسلمين وهي من أكبر البلاد وأحصنها.

وسبب ذلك أن الأذفونش ملك الفرنج بالأندلس كان قد قوي شأنه وعظم ملكه وكثرت عساكره مذ تفرقت بلاد الأندلس وصار كل بلد بيد ملك فصاروا مثل ملوك الطوائف فحينئذ طمع الفرنج فيهم وأخذوا كثيرًا من ثغورهم.

وكان قد خدم قبل ذلك صاحبها القادر بالله بن المأمون بن يحيى بن ذي النون وعرف من أين يؤتى البلد وكيف الطريق إلى ملكه.

فلما كان الآن جمع الأذفونش عساكره وسار إلى مدينة طليطلة فحصرها سبع سنين وأخذها من القادر فازداد قوة إلى قوته.

وكان المعتمد على الله أبو عبد الله محمد بن عباد أعظم ملوك الأندلس من المسلمين وكان يملك أكثر البلاد مثل: قرطبة وأشبيلية وكان يؤدي إلى الأذفونش ضريبة كل سنة.

فلما ملك الأذفونش طليطلة أرسل إليه المعتمد الضريبة على عادته فردها عليه ولم يقبلها منه فأرسل إليه يتهدده ويتوعده أنه يسير إلى مدينة قرطبة ويتملكها إلا أن يسلم إليه جميع الحصون

التي في الجبل ويبقي السهل للمسلمين وكان الرسول في جمع كثير كانوا خمسمائة فارس فأنزله محمد بن عباد وفرق أصحابه على قواد عسكره ثم أمر كل من عنده منهم رجل أن يقتله وأحضر الرسول وصفعه حتى خرجت عيناه وسلم من الجماعة ثلاثة نفر فعادوا إلى الأذفونش فأخبروه الخبر وكان متوجهًا إلى قرطبة ليحاصرها فلما بلغه الخبر عاد إلى طليطلة ليجمع آلات الحصار ورحل المعتمد إلى أشبيلية.

انتهى .

المؤمن كيس فطن

سقطت طليطلة من قرابة الألف عام ولم تعد إلى الآن بسبب غفلة من غفلات ملوك الطوائف في الأندلس ! إن خطأ القادر بالله لم يقتصر على إعطاء أدفونش حق اللجوء السياسي فقط وتركه يسرح ويمرح في أرجاء البلد مطلعا على كل صغيرة وكبيرة من عورات المسلمين ! بل إن الخطأ يكمن في عقيدة القادر بالله وأمثاله من الملوك في علاقاتهم بالنصارى في تلك الناحية ، فإن لم تكن العلاقة على أساس {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ} وإن لم تكن على أساس {إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا}إن لم تكن العلاقة مبنية على هذا الأساس الذي بينه الله تعالى في كتابه الكريم فلن نستغرب إن فقدنا ألف طليطلة بعد ذلك !

90 - معركة ملاذكرد.

قال ابن الأثير رحمه الله :

في هذه السنة خرج أرمانوس ملك الروم في مائتي ألف من الروم والفرنج والغرب والروس والبجناك والكرج وغيرهم من طوائف تلك البلاد فجاؤوا في تجمل كثير وزي عظيم وقصد بلاد الإسلام فوصل إلى ملازكرد من أعمال خلاط.

فبلغ السلطان ألب أرسلان الخبر وهو بمدينة خوي من أذربيجان قد عاد من حلب وسمع ما هو ملك الروم فيه من كثرة الجموع فلم يتمكن من جمع العساكر لبعدها وقرب العدو فسير الأثقال مع زوجته ونظام الملك إلى همذان وسار هو فيمن عنده من العساكر وهم خمسة عشر ألف فارس. وجد في السير وقال لهم: أنني أقاتل محتسبًا صابرًا فإن سلمت فنعمة من الله تعالى وإن كانت الشهادة فإن ابني ملكشاه ولي عهدي وساروا.

فلما قارب العدو جعل له مقدمة فصادفت مقدمته عند خلاط مقدم الروسية في نحو عشرة آلاف من الروم فاقتتلوا فانهزمت الروسية وأسر مقدمهم وحمل إلى السلطان فجدع أنفه وأنفذ بالسلب إلى نظام الملك وأمره أن يرسله إلى بغداد فلما تقارب العسكران أرسل السلطان إلى ملك الروم يطلب منه المهادنة فقال: لا هدنة إلا بالري فانزعج السلطان لذلك فقال له إمامه وفقيهه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي: إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان

وأرجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح فلاقاهم يوم الجمعة بعد الزوال في الساعة التي تكون الخطباء على المنابر فإنهم يدعون للمجاهدين بالنصر والدعاء مقرون بالإجابة.

فلما كانت تلك الساعة صلى بهم وبكى السلطان فبكى الناس لبكائه ودعا ودعوا معه وقال لهم: من أراد الانصراف فلينصرف فما هاهنا سلطان يأمر وينهى وألقى القوس والنشاب وأخذ السيف والدبوس وعقد ذنب فرسه بيده وفعل عسكره مثله ولبس البياض وتحنط وقال: إن قتلت فهذا كفني.

وزحف إلى الروم وزحفوا إليه فلما قاربهم ترجل وعفر وجهه على التراب وبكى وأكثر الدعاء ثم ركب وحمل وحملت العساكر معه فحصل المسلمون في وسطهم وحجز الغبار بينهم فقتل المسلمون فيهم كيف شاؤوا وأنزل الله نصره عليهم فانهزم الروم وقتل منهم ما لا يحصى حتى امتلأت الأرض بجثث القتلى وأسر ملك الروم أسره بعض غلمان كوهارائين أراد قتله ولم يعرفه فقال له خادم مع الملك: لا تقتله فإنه الملك.

وكان هذا الغلام قد عرضه كوهرائين على نظام الملك فرده استحقارًا له فأثنى عليه كوهرائين فقال نظام الملك: عسى أن يأتينا بملك الروم أسيرًا فكان كذلك.

فلما أسر الغلام الملك أحضره عند كوهرائين فقصد السلطان وأخبره بأسر الملك فأمر بإحضاره فلما أحضر ضربه السلطان ألب أرسلان ثلاث مقارع بيده وقال له: ألم أرسل إليك في الهدنة فأبيت فقال: دعني من التوبيخ وافعل ما تريد! فقال السلطان: ما عزمت أن تفعل بي إن أسرتني فقال: أفعل القبيح.

قال له: فما تظن أنني أفعل بك قال: إما أن تقتلني وإما أن تشهرني في بلاد الإسلام والأخرى بعيدة وهي العفو وقبول الأموال واصطناعي نائبًا عنك.

قال: ما عزمت على غير هذا.

ففداه بألف ألف دينار وخمس مائة ألف دينار وأن يرسل إليه عساكر الروم أي وقت طلبها وأن يطلق كل أسير في بلاد الروم واستقر الأمر على ذلك وأنزله في خيمة وأرسل إليه عشرة آلاف دينار يتجهز بها فأطلق له جماعة من البطارقة وخلع عليه من الغد فقال ملك الروم: أين جهة الخليفة فدل عليها فقام وكشف رأسه وأومأ إلى الأرض بالخدمة وهادنه السلطان خمسين سنة وسيره إلى بلاده وسير معه عسكرًا أوصلوه إلى مأمنه وشيعه السلطان فرسخًا.

انتهى .

تأمين النساء والأطفال

أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بالاستعداد لمعركة الأحزاب الحاسمة فحفر الخندق وصف الصفوف ووزع الحماية وكان مما فعله أنه رفع النساء والأطفال في آطام المدينة حتى لا يلحقهم الأذى ، وقد

كانت هذه الخطوة ضرورية قبل المعركة لأن تأمين مكان آمن للنساء والأطفال سيجعل المقاتلين أكثر طمأنينة وهم يناجزون الأعداء ، وهذا التأمين مطلوب في المواجهات الكبيرة التي يخشى فيها من الاجتياح الكامل كما كان الحال في معركة ملاذكرد المصيرية ، أما في الحروب الحديثة فيجب تأمين مخابئ وملاجئ آمنة لنحمي النساء والأطفال والعجزة من القصف الجوي أو الصاروخي ، وقد يلجأ أعداؤنا إلى قصد النساء والأطفال بالقصف للضغط علينا وإضعاف روحنا المعنوية حتى نستسلم أو ننسحب ، فمن الضروري إذا أن نفوت الفرصة عليهم بإيجاد ملاجئ أو أماكن آمنة أو بعيدة عن مناطق القتال .

91 - معركة الزلاقة.

قال ابن الأثير رحمه الله :

قد تقدم ملك الفرنج طليطلة وما فعله المعتمد بن عباد برسول الأذفونش ملك الفرنج وعود المعتمد إلى إشبيلية.

فلما عاد إليها وسمع مشايخ قرطبة بما جرى ورأوا قوة الفرنج وضعف المسلمين واستعانة بعض ملوكهم بالفرنج على بعض اجتمعوا وقالوا: هذه بلاد الأندلس قد غلب عليها الفرنج ولم يبق منها إلا القليل وإن استمرت الأحوال على ما نرى عادت نصرانية كما كانت.

وساروا إلى القاضي عبد الله بن محمد بن أدهم فقالوا له: ألا تنظر إلى ما فيه المسلمون من الصغار والذلة وعطائهم الجزية بعد أن كانوا يأخذونها وقد رأينا رأيًا نعرضه عليك.

قال: ما هو قالوا: نكتب إلى عرب إفريقية ونبذل لهم فإذا وصلوا إلينا قاسمناهم أموالنا وخرجنا معهم مجاهدين في سبيل الله.

قال: نخاف إذا وصلوا إلينا يخربون بلادنا كما فعلوا بإفريقية ويتركون الفرنج ويبدؤون بكم والمرابطون أصلح منهم وأقرب إلينا.

قالوا له: فكاتب أمير المسلمين وارغب إليه ليعبر إلينا ويرسل بعض قواده.

وقدم عليهم المعتمد بن عباد وهم في ذلك فعرض عليه القاضي ابن أدهم ما كانوا فيه فقال له ابن عباد: أنت رسولي إليه في ذلك فامتنع وإنما أراد أن يبريء نفسه من تهمة فألح عليه المعتمد فسار إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فأبلغه الرسالة وأعلمه ما فيه المسلمون من الخوف من الأذفونش.

وكان أمير المسلمين بمدينة سبتة ففي الحال أمر بعبور العساكر إلى الأندلس وأرسل إلى مراكش في طلب من بقي من عساكره فأقبلت إليه تتلو بعضها بعضًا فلما تكاملت عنده عبر البحر وسار فاجتمع بالمعتمد بن عباد بإشبيلية وكان قد جمع عساكره أيضًا وخرج من أهل قرطبة عسكر كثير.

وقصده المتطوعة من سائر بلاد الأندلس.

ووصلت الأخبار إلى الأذفونش فجمع فرسانه وسار من طليطلة وكتب إلى أمير المسلمين كتابًا كتبه به بعض أدباء المسلمين يغلظ له القول ويصف ما عنده من القوة والعدد والعُدد وبالغ الكاتب في الكتاب.

فأمر أمير المسلمين أبا بكر بن القصيرة أن يجيبه وكان كاتبًا مفلقًا فكتب فأجاد فلما قرأه على أمير المسلمين قال: هذا كتاب طويل أحضر كتاب الأذفونش واكتب في ظهره الذي يكون سترًا له.
فلما عاد الكتاب إلى الأذفونش ارتاع لذلك وعلم أنه بلي برجل له عزم وحزم فازداد استعدادًا فرأى في منامه كأنه راكب فيل وبين يديه طبل صغير وهو ينقر فيه فقص رؤياه على القسيسين فلم يعرفوا تأويلها فأحضر رجلًا مسلمًا عالمًا بتعبير الرؤيا فقصها عليه فاستعفاه من تعبيرها فلم يعفه فقال: تأويل هذه الرؤيا من كتاب الله العزيز وهو قوله تعالى: {ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل} [الفيل:1]. السورة وقوله تعالى: {فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير} [المدثر:8 :10]. ويقتضي هلاك هذا الجيش الذي تجمعه.

فما اجتمع جيشه رأى كثرته فأعجبته فأحضر ذلك المعبر وقال له: بهذا الجيش ألقى إله محمد صاحب كتابكم.
فانصرف المعبر وقال لبعض المسلمين: هذا الملك هالك وكل من معه وذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم "ثلاث مهلكات.. الحديث وفيه: ..وإعجاب المرء برأيه". وسار أمير المسلمين والمعتمد بن عباد حتى أتوا أرضًا يقال لها الزلاقة من بلد بطليوس وأتى الأذفونش فنزل موضعًا بينه وبينهم ثمانية عشر ميلًا فقيل لأمير المسلمين: إن ابن عباد ربما لم ينصح ولا يبذل نفسه دونك.

فأرسل إليه أمير المسلمين يأمره أن يكون في المقدمة ففعل ذلك وسار وقد ضرب الأذفونش خيامه في لحف جبل والمعتمد في سفح جبل آخر يتراءون وينزل أمير المسلمين وراء الجبل الذي عنده المعتمد وظن الأذفونش أن عساكر المسلمين ليس إلا الذي يراه.

وكان الفرنج في خمسين ألفًا فتيقنوا الغلب وأرسل الأذفونش إلى المعتمد في ميقات القتال وقصده الملك فقال: غدًا الجمعة وبعده الأحد فيكون اللقاء يوم الاثنين فقد وصلنا على حال تعب واستقر الأمر على هذا وركب ليلة الجمعة سحرًا وصبح بجيشه جيش المعتمد بكرة الجمعة غدرًا وظنًا منه أن ذلك المخيم هو جميع عسكر المسلمين فوقع القتال بينهم فصبر المسلمون فأشرفوا على الهزيمة.

وكان المعتمد قد أرسل إلى أمير المسلمين يعلمه بمجيء الفرنج للحرب فقال: احملوني إلى خيام الفرنج فسار إليها فبينما هم في القتال وصل أمير المسلمين إلى خيام الفرنج فنهبها وقتل من فيها فلما رأى الفرنج ذلك لم يتمالكوا أن انهزموا وأخذهم السيف وتبعهم المعتمد من خلفهم

ولقيهم أمير المسلمين من بين أيديهم ووضع فيهم السيف فلم يفلت منهم أحد ونجا الأذفونش في نفر يسير وجعل المسلمون من رؤوس القتلى كومًا كثيرةً فكانوا يؤذنون عليها إلى أن جيفت فأحرقوها.

وكانت الوقعة يوم الجمعة في العشر الأول من شهر رمضان سنة تسع وسبعين وأصاب المعتمد جراحات في وجهه وظهرت ذلك اليوم شجاعته.

ولم يرجع من الفرنج إلى بلادهم غير ثلاثمائة فارس وغنم المسلمون كل ما لهم من مال وسلاح ودواب وغير ذلك. انتهى .

لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين

أسر النبي صلى الله عليه وسلم عزة الشاعر في معركة بدر ثم أطلقه وأخذ عليه العهد ألا يناصر المشركين فنقض عهده ثم أسره بعد ذلك فطلب عزة من النبي صلى الله عليه وسلم أن يعفو عنه مرة أخرى ويعاهده ألا يناصر المشركين عليه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم "لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين" وأمر بقتله ، وقد قاسى المسلمون الويلات من جراء وقوعهم في نفس الأخطاء في كل مرة وقد يعود ذلك لحسن ظنهم بأعدائهم أو للغفلة المصاحبة لذلك ،وبما أن تاريخ النصارى مع المسلمين مليء بالغدر والخيانة عند أي فرصة تلوح كإخوانهم اليهود الذين قال الله فيهم {أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ} قال الحسن البصري : ليس في الأرض عهد يعاهدون عليه إلا نقضوه ونبذوه يعاهدون اليوم وينقضون غدا !

وبما أن هذا الأمر واضح عند يوسف بن تاشفين فلم تنطلي عليه حيلة أدفونش في طلبه تأجيل القتال ليتحين الفرصة المناسبة ليغدر به ، ولما غدر أدفونش كان يوسف بن تاشفين مستعدا للقائه فدخل معه في واحدة من أشد المعارك ضراوة في تاريخ المسلمين والأكبر في تاريخ الأندلس .

92 ـ سقوط أنطاكية عام واحد وتسعين وأربعمائة للهجرة.

قال ابن الأثير رحمه الله :

كان ابتداء ظهور دولة الفرنج واشتداد أمرهم وخروجهم إلى بلاد الإسلام واستيلائهم على بعضها سنة ثمان وسبعين وأربعمائة فملكوا مدينة طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس وقد تقدم ذكر ذلك.

ثم قصدوا سنة أربع وثمانين وأربعمائة جزيرة صقلية وملكوها وقد ذكرته أيضًا وتطرقوا إلى أطراف إفريقية فملكوا منها شيئًا وأخذ منهم ثم ملكوا غيره على ما تراه.

فلما كان سنة تسعين وأربعمائة خرجوا إلى بلاد الشام وكان سبب خروجهم أن ملكهم بردويل جمع جمعًا كثيرًا من الفرنج وكان نسيب رجار الفرنجي الذي ملك صقلية فأرسل إلى رجار يقول له: قد جمعت جمعًا كثيرًا وأنا واصل إليك وسائر من عندك إلى إفريقية أفتحها وأكون مجاورًا لك.

فجمع رجار أصحابه واستشارهم في ذلك وقالوا: وحق الإنجيل هذا جيد لنا ولهم وتصبح البلاد بلاد النصرانية.

فرفع رجله وحبق حبقة عظيمة وقال: وحق ديني هذه خير من كلامكم! قالوا: وكيف ذلك قال: إذا وصلوا إلي أحتاج إلى كلفة كثيرة ومراكب تحملهم إلى إفريقية وعساكر من عندي أيضًا فإن فتحوا البلاد كانت لهم وصارت المؤونة لهم من صقلية وينقطع عني ما يصل من المال من ثمن الغلات كل سنة وإن لم يفلحوا رجعوا إلى بلادي وتأذيت بهم ويقول تميم غدرت بي ونقضت عهدي وتنقطع الوصلة والأسفار بيننا وبلاد إفريقية باقية لنا متى وجدنا قوة أخذناها.

وأحضر رسوله وقال له: إذا عزمتم على جهاد المسلمين فأفضل ذلك فتح بيت المقدس تخلصونه من أيديهم ويكون لكم الفخر وأما إفريقية فبيني وبين أهلها أيمان وعهود.

فتجهزوا وخرجوا إلى الشام وقيل: إن أصحاب مصر من العلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلاءها على بلاد الشام إلى غزة ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم ودخول أقسيس إلى مصر وحصرها خافوا وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوه ويكونوا بينهم وبين المسلمين والله أعلم.

فلما عزم الفرنج على قصد بلاد الشام ساروا إلى القسطنطينية ليعبروا المجاز إلى بلاد المسلمين ويسيروا في البر فيكون أسهل عليهم فلما وصلوا إليها منعهم ملك الروم من الاجتياز ببلاده وقال: لا أمكنكم من العبور إلى بلاد الإسلام حتى تحلفوا لي أنكم تسلمون إلي أنطاكية وكان قصده أن يحثهم على الخروج إلى بلاد الإسلام ظنًا منه أنهم أتراك لا يبقون منهم أحدًا لما رأى

فأجابوه إلى ذلك وعبروا الخليج عند القسطنطينية سنة تسعين ووصلوا إلى بلاد قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش وهو قونية وغيرها فلما وصلوا إليها لقيهم قلج أرسلان في جموعه ومنعهم فقاتلوه فهزموه في رجب سنة تسعين واجتازوا في بلاده إلى بلاد ابن الأرمني فسلكوها وخرجوا إلى أنطاكية فحصروها.

ولما سمع صاحبها باغي سيان بتوجههم إليها خاف من النصارى الذي بها فأخرج المسلمين من أهلها ليس معهم غيرهم وأمرهم بحفر الخندق ثم أخرج من الغد النصارى لعمل الخندق أيضًا ليس معهم مسلم فعملوا فيه إلى العصر فلما أرادوا دخول البلد منعهم وقال لهم: أنطاكية لكم تهبونها لي حتى أنظر ما يكون منا ومن الفرنج فقالوا له: من يحفظ أبناءنا ونساءنا فقال: أنا أخلفكم فيهم فأمسكوا وأقاموا في عسكر الفرنج فحصروها تسعة أشهر وظهر من شجاعة باغي سيان وجودة رأيه وحزمه واحتياطه ما لم يشاهد من غيره فهلك أكثر الفرنج موتًا ولو بقوا على كثرتهم التي خرجوا فيها لطبقوا بلاد الإسلام وحفظ باغي سيان أهل نصارى أنطاكية الذين أخرجهم وكف الأيدي المتطرقة إليهم.

فلما طال مقام الفرنج على أنطاكية راسلوا أحد المستحفظين للأبراج وهو زراد يعرف بروزبه وبذلوا له مالًا وأقطاعًا وكان يتولى حفظ برج يلي الوادي وهو مبني على شباك في الوادي فلما تقرر الأمر بينهم وبين هذا الملعون الزراد جاؤوا إلى الشباك ففتحوه ودخلوا منه وصعد جماعة كثيرة بالحبال فلما زادت عدتهم على خمسمائة ضربوا البوق وذلك عند السحر وقد تعب الناس من كثرة السهر والحراسة فاستيقظ باغي سيان فسأل عن الحال فقيل: إن هذا البوق من القلعة ولا شك أنها قد ملكت ولم يكن من القلعة وإنما كان من ذلك البرج فدخله الرعب وفتح باب البلد وخرج

هاربًا في ثلاثين غلامًا على وجهه فجاء نائبه في حفظ البلد فسأل عنه فقيل إنه هرب فخرج من باب آخر هاربًا وكان ذلك معونة للفرنج ولو ثبت ساعة لهلكوا.

ثم إن الفرنج دخلوا البلد من الباب ونهبوه وقتلوا من فيه من المسلمين وذلك في جمادى الأولى.

انتهى .

تسليم الأماكن الحساسة للثقات

تعتبر أبراج الحراسة والبوابات الرئيسية من الأماكن الحساسة في معسكرات الجيوش ولذا يختار لها نوعية معينة من الجند من ذوي الكفاءة واليقظة والشجاعة وتوضع كلمات سر للعبور الليلي وغيره من الإجراءات التي تضمن عدم اختراق المعسكر من الخارج ، وبما أن هذه الأماكن الحساسة بهذه الأهمية الكبيرة فمن الخطأ إسنادها لمن لا يصلح لها ، فقد يكون الجندي مهيأ بدنيا للقيام بهذه المهمة ولكنه ضعيف إيمانيا وليس عنده صبر على شيء البتة كما قال الصحابة لسالم مولى حذيفة يوم اليمامة : نخشى أن نؤتى من قبلك يا سالم ؟ فقال : (بئس حامل القرآن أنا إن أوتيتم من قبلي !) ، فالصحابة رضوان الله عليهم عندما رأوا أن المكان الذي يشغله سالم حساس جدا أحبوا أن يتأكدوا من صلاحية سالم لهذه المهمة وهو ما غفل عنه ملك أنطاكية عندما أسند حراسة الأبراج لشخص غير ثقة وضعيف الإيمان فانسحب بكل سهولة وترك المدينة لبردويل وجيشه .

93 - قتال الإفرنج في أنطاكية عام واحد وتسعين وأربعمائة للهجرة.

قال ابن الأثير رحمه الله :

لما سمع قوام الدولة كربوقا بحال الفرنج وملكهم أنطاكية جمع العساكر وسار إلى الشام وأقام بمرج دابق واجتمعت معه عساكر الشام تركها وعربها سوى من كان بحلب فاجتمع معه دقاق بن تتش وطغتكين أتابك وجناح الدولة صاحب حمص وأرسلان تاش صاحب سنجار وسليمان بن أرتق وغيرهم من الأمراء ممن ليس مثلهم.
فلما سمعت الفرنج عظمت المصيبة عليهم وخافوا لما هم فيه من الوهن وقلة الأقوات عندهم وسار المسلمون فنازلوهم على أنطاكية وأساء كربوقا السيرة فيمن معه من المسلمين وأغضب الأمراء وتكبر عليهم ظنًا منه أنهم يقيمون معه على هذه الحال فأغضبهم ذلك وأضمروا له في أنفسهم الغدر إذا كان قتال وعزموا على إسلامه عند المصدوقة.

وأقام الفرنج بأنطاكية بعد أن ملكوها اثني عشر يومًا لي لهم ما يأكلونه وتقوت الأقوياء بدوابهم والضعفاء بالميتة وورق الشجر فلما رأوا ذلك أرسلوا إلى كربوقا يطلبون منه الأمان ليخرجوا من البلد فلم يعطهم ما طلبوا وقال: لا تخرجون إلا بالسيف.

وكان معهم من الملوك بردويل وصنجيل وكندفري والقمص صاحب الرها وبيمنت صاحب أنطاكية وهو المقدم عليهم.

وكان معهم راهب مطاع فيهم وكان داهية من الرجال فقال لهم: إن المسيح عليه السلام كان له حربة مدفونة بالقسيان الذي بأنطاكية وهو بناء عظيم فإن وجدتموها فإنكم تظفرون وإن لم تجدوها فالهلاك متحقق.

وكان قد دفن قبل ذلك حربة في مكان فيه وعفى أثرها وأمرهم بالصوم والتوبة ففعلوا ذلك ثلاثة أيام فلما كان اليوم الرابع أدخلهم الموضع جميعهم ومعهم عامتهم والصناع منهم وحفروا في جميع الأماكن فوجدوها كما ذكر فقال لهم: أبشروا بالظفر فخرجوا في اليوم الخامس من الباب متفرقين من خمسة وستة ونحو ذلك فقال المسلمون لكربوقا: ينبغي أن تقف على الباب فتقتل كل من يخرج فإن أمرهم الآن وهم متفرقون سهل.

فقال: لا تفعلوا! أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم.

ولم يمكن من معاجلتهم فقتل قوم من المسلمين جماعة من الخارجين فجاء إليهم هو بنفسه ومنعهم ونهاهم.

فلما تكامل خروج الفرنج ولم يبق بأنطاكية أحد منهم ضربوا مصافًا عظيمًا فولى المسلمون منهزمين لما عاملهم به كربوقا أولًا من الاستهانة بهم والإعراض عنهم وثانيًا من منعهم عن قتل الفرنج وتمت الهزيمة عليهم ولم يضرب أحد منهم بسيف ولا طعن برمح ولا رمى بسهم وآخر من انهزم سقمان بن أرتق وجناح الدولة لأنهما كانا في الكمين وانهزم كربوقا معهم.

فلما رأى الفرنج ذلك ظنوه مكيدة إذ لم يجر قتال ينهزم من مثله وخافوا أن يتبعوهم وثبت جماعة من المجاهدين وقاتلوا حسبة وطلبًا للشهادة فقتل الفرنج منهم ألوفًا وغنموا ما في العسكر من الأقوات والأموال والأثاث والدواب والأسلحة فصلحت حالهم وعادت إليهم قوتهم.

انتهى .

علاقة القائد بالجند

إن المتأمل في أحداث هذه المعركة يرى بوضوح أن استعلاء كربوقا وسوء معاملته للجند والقادة وتسفيه آرائهم هو السبب الرئيسي للهزيمة هنا ، ولا عجب من ذلك بل العجب أن ينتصر جيش تحت وطأة الإهانات وسوء المعاملة من أميرة !

إن كثيرا من المعارك يأبى الجنود فيها من الانسحاب رغم القتال الشديد والجراح استحياء من أميرهم الذي مازال في ساحة المعركة لأنه قد أسرهم بخلقه ومعاملته الحسنة مما جعلهم يفضلون الموت على أن يخذلوه ، فالقائد الجيد إن جمع مع حسن قيادته حسن المعاملة مع الجند فجعل

يتفقدهم كما يتفقد الأب أبناءه ويشاركهم أفراحهم وأحزانهم عندها سيشعرون أنه واحد منهم وهو ما سيجعل قيادته ناجحة بإذن الله تعالى ، أما إن أساء السيرة معهم فسيؤثر ذلك على معنوياتهم أولا وعلى أدائهم القتالي ثانيا وقد يتخذون موقف شخصي منه فينكلون عن القتال أو عن طاعة أوامره حتى لا يسجل أي نصر باسمه ، وهذا في أحسن الأحوال وإلا فكم من قائد قتل على يد جنده عندما سنحت لهم الفرصة بذلك وما ذلك إلا لسوء خلقه ومعاملته لهم .

94 - حصار طرابلس عام خمسة وتسعين وأربعمائة للهجرة.

قال ابن الأثير رحمه الله :

كان صنجيل الفرنجي لعنه الله قد لقي قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش صاحب قونية وكان صنجيل في مائة ألف مقاتل وكان قلج أرسلان في عدد قليل فاقتتلوا فانهزم الفرنج وقتل منهم كثير وأسر كثير وعاد قلج أرسلان بالغنائم والظفر الذي لم يحسبه.

ومضى صنجيل مهزومًا في ثلاثمائة فوصل إلى الشام فأرسل فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس إلى الأمير ياخز خليفة جناح الدولة على حمص فإلى الملك دقاق بن تتش يقول: من الصواب أن يعاجل صنجيل إذ هو في هذه العدة القريبة فخرج الأمير ياخز بنفسه وسير دقاق ألفي مقاتل وأتتهم الأمداد من طرابلس فاجتمعوا على باب طرابلس وصافوا صنجيل هناك فأخرج مائة من عسكره إلى أهل طرابلس ومائة إلى عسكر دمشق وخمسين إلى عسكر حمص فأما عسكر حمص فإنهم انكسروا عند المشاهدة وولوا منهزمين وتبعهم عسكر دمشق.

وأما أهل طرابلس فإنهم قاتلوا المائة الذين قاتلوهم فلما شاهد ذلك صنجيل حمل في المائتين الباقيتين فكسروا أهل طرابلس وقتلوا منهم سبعة آلاف رجل ونازل صنجيل طرابلس وحصرها.

وأتاه أهل الجبل فأعانوه على حصارها وكذلك أهل السواد وأكثرهم نصارى فقاتل من بها أشد قتال فقتل من الفرنج ثلاثمائة ثم إنه هادنهم على مال وخيل فرحل عنهم إلى مدينة أنطرسوس وهي من أعمال طرابلس فحصرها وفتحها وقتل من بها من المسلمين ورحل إلى حصن الطوبان وهو يقارب رفنية ومقدمه يقال له ابن العريض فقاتلهم فنصر عليه أهل الحصن وأسر ابن العريض منه فارسًا من أكابر فرسانه فبذل صنجيل في فدائه عشرة آلاف دينار وألف أسير فلم يجبه ابن العريض إلى ذلك.

انتهى .

استئصال قوة العدو

تتبع بعض الجيوش في أساليبها القتالية على مبدأ استئصال قوة العدو بعد هزيمته حتى يتم التأكد من أنه لن يشكل أي خطر في المستقبل ، وقد اعتمد على هذه الطريقة في كثير من الحروب بحيث يستمر القتل والتدمير حتى تنتهي القوة العددية والآلية للعدو ، وقد دل القرآن على هذا المعنى

بطريقة أكثر تحديدا وبعيدة كل البعد عن التعطش لسفك الدماء فقال الله تعالى {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ } والإثخان وهو المبالغة في القتل مطلوب هنا حتى نتأكد من أننا استئصلنا قوة العدو ، وأنه لن يعيد الكرة علينا لأنه لم يعد يقوى على ذلك ، وهو ما أشار إليه أمير طرابلس في رسالته بقوله : من الصواب أن يعاجل صنجيل . ولكن صنجيل لم تستئصل قوته وترك هو ومن معه حتى حدث من أمرهم ما حدث .

95 - غزو المسلمين الفرنج عام سبعة وتسعين وأربعمائة للهجرة.

قال ابن الأثير رحمه الله :

لما استطال الفرنج خذلهم الله تعالى بما ملكوه من بلاد الإسلام واتفق لهم اشتغال عساكر الإسلام وملوكه بقتال بعضهم بعضًا تفرقت حينئذ بالمسلمين الآراء واختلفت الأهواء وتمزقت الأموال.

وكانت حران لمملوك من مماليك ملكشاه اسمه قراجه فاستخلف عليها إنسانًا يقال له محمد الأصبهاني وخرج في العام الماضي فعصى الأصبهاني على قراجه وأعانه أهل البلد لظلم قراجه.

وكان الأصبهاني جلدًا شهمًا فلم يترك بحران من أصحاب قراجه سوى غلام تركي يعرف بجاولي وجعله أصفهسلار العسكر وأنس به فجلس معه يومًا للشرب فاتفق جاولي مع خادم له على قتله فقتلاه وهو سكران.

فعند ذلك سار الفرنج إلى حران وحصروها.

فلما سمع معين الدولة سقمان وشمس الدولة جكرمش ذلك وكان بينهما حرب وسقمان يطالبه بقتل ابن أخيه وكل منهما يستعد للقاء صاحبه وأنا أذكر سبب قتل جكرمش له إن شاء الله تعالى أرسل كل منهما إلى صاحبه يدعوه إلى الاجتماع معه لتلافي أمر حران ويعلمه أنه قد بذل نفسه لله تعالى وثوابه فكل واحد منهما أجاب صاحبه إلى ما طلب منه وسارا فاجتمعا على الخابور وتحالفا وسارا إلى لقاء الفرنج.

وكان مع سقمان سبعة آلاف فارس من التركمان ومع جكرمش ثلاثة آلاف فارس من الترك والعرب والأكراد فالتقوا على نهر البليخ وكان المصاف بينهم هناك فاقتتلوا فأظهر المسلمون الانهزام فتبعهم الفرنج نحو فرسخين فعاد عليهم المسلمون فقتلوهم كيف شاؤوا وامتلأت أيدي التركمان من الغنائم ووصلوا إلى الأموال العظيمة لأن سواد الفرنج كان قريبًا وكان بيمند صاحب أنطاكية وطنكري صاحب الساحل قد انفردا وراء جبل ليأتيا المسلمين من وراء ظهورهم إذا اشتدت الحرب فلما خرجا رأيا الفرنج منهزمين وسوادهم منهوبًا فأقاما إلى الليل وهربا فتبعهما المسلمون وقتلوا من أصحابهما كثيرًا وأسروا كذلك وأفلتا في ستة فرسان.

وكان القمص بردويل صاحب الرها قد انهزم مع جماعة من قمامصتهم وخاضوا نهر البليخ فوجلت خيولهم فجاء تركماني من أصحاب سقمان فأخذهم وحمل بردويل إلى خيم صاحبه وقد سار فيمن معه لاتباع بيمند فرأى أصحاب جكرمش أن أصحاب سقمان قد استولوا على مال الفرنج ويرجعون هم من الغنيمة بغير طائل فقالوا لجكرمش: أي منزلة تكون لنا عند الناس وعند التركمان إذا انصرفوا بالغنائم دوننا وحسنوا له أخذ القمص فأنفذ فأخذ القمص من خيم سقمان فلما عاد سقمان شق عليه الأمر وركب أصحابه للقتال فردهم وقال لهم: لا يقوم فرح المسلمين في هذه الغزاة بغمهم باختلافنا ولا أؤثر شفاء غيظي بشماتة الأعداء بالمسلمين.

ورحل لوقته وأخذ سلاح الفرنج وراياتهم وألبس أصحابه لبسهم وأركبهم خيلهم وجعل يأتي حصون شيحان وبها الفرنج فيخرجون ظناً منهم أن أصحابهم نصروا فيقتلهم ويأخذ الحصن منهم فعل ذلك بعدة حصون.

انتهى .

النزاع على الغنائم

قال الله تعالى {وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ } أمر الله تعالى عباده المجاهدين في سبيله بترك النزاع والخلاف لأنه يفضي إلى الفشل وذهاب القوة ، ولأن قوة الجيش إنما تكمن في اجتماع كلمته ، وقد مر علينا في التاريخ أثر التنازع على الغنائم في قلب نتائج المعركة كما حدث يوم أحد عندما ترك الرماة الجبل طمعا في الغنيمة وكذلك في معركة بلاط الشهداء عندما انشغلوا بالغنائم عن القتال ، وما كان يمكن أن يحدث بين جنود جكرمش وجنود سقمان ، فالتنازع على الغنائم يخرج الجهاد عن مضمونه وحقيقته بل يوحي بشيء من الركون إلى الدنيا ومن كانت هذه حاله فهو أبعد ما يكون عمن يقول الله فيهم {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ } .

96 - غزو الفرنج عام تسعة وتسعين وأربعمائة للهجرة.

قال ابن الأثير رحمه الله :

في هذه السنة في صفر كانت وقعة بين طغتكين أتابك صاحب دمشق وبين قمص كبير من قمامصة الفرنج.

وسبب ذلك: أنه تكررت الحروب والمغاورات بين عسكر دمشق وبغدوين فتارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء ففي آخر الأمر بنى بغدوين حصناً بينه وبين دمشق نحو يومين فخاف طغتكين من عاقبة ذلك وما يحدث به من الضرر فجمع عسكره وخرج إلى مقاتلتهم فسار بغدوين ملك القدس وعكا وغيرهما إلى هذا القمص ليعاضده ويساعده إلى المسلمين فعرفه القمص غناه

وتقدم طغتكين إلى الفرنج واقتتلوا واشتد القتال فانهزم أميران من عسكر دمشق فتبعهما طغتكين وقتلهما وانهزم الفرنج إلى حصنهم فاحتموا به فقال طغتكين: من أحسن قتالهم وطلب مني أمرًا فعلته معه ومن أتاني بحجر من حجارة الحصن أعطيته خمسة دنانير.

فبذل الرجالة نفوسهم وصعدوا إلى الحصن وخربوه وحملوا حجارته إلى طغتكين فوفى لهم بما وعدهم وأمر بإلقاء الحجارة في الوادي وأسروا من بالحصن فأمر بهم فقتلوا كلهم واستبقى الفرسان أسراء وكانوا مائتي فارس ولم ينج ممن كان في الحصن إلا القليل.

انتهى .

الخطر الاستراتيجي

تأخذ بعض المواقع الجغرافية أهمية استراتيجية كبيرة فتكون محط اهتمام وقلق من قبل الجميع ، فبعض المرتفعات والجبال المطلة على المدن تعتبر مفتاح للسيطرة عليها وكذلك الحال في كل موقع يكون فيه خطر استراتيجي كما كان من أمر الحصن الذي بناه الإفرنج على أرض لا تبعد عن دمشق سوى مسيرة يومين ، ولذلك تحرك طغتكين لأنه أدرك أن ذلك يشكل خطرا حقيقيا يهدد أمن دمشق ،وقد يأخذ الخطر الإستراتيجي أشكال أخرى غير المواقع المهمة فتنامي القوة العسكرية لأي بلد هو خطر استراتيجي على الدول العدوة لها وبعض التحالفات السياسية والعسكرية تعتبر خطرا استراتيجيا على بعض الدول ،وهكذا فكل ما يجعلنا مهددين أمنيا فهو خطر حقيقي على بقائنا على الخريطة فيجب التعامل معه بحزم وقوة ومنذ البداية .

97 - حصار طرابلس تسعة وتسعين وأربعمائة للهجرة.

قال ابن الأثير رحمه الله :

كان صنجيل الفرنجي لعنه الله قد ملك مدينة جبلة وأقام على طرابلس يحصرها فحيث لم يقدر أن يملكها بنى بالقرب منها حصناً وبنى تحته ربضًا وأقام مراصدًا لها ومنتظرًا وجود فرصة فيها فخرج فخر الملك أبو علي بن عمار صاحب طرابلس فأحرق ربضه ووقف صنجيل على بعض سقوفه المتحرقة ومعه جماعة من القمامصة والفرسان فانخسف بهم فمرض صنجيل من ذلك عشرة أيام ومات وحمل إلى القدس فدفن فيه.

ثم إن ملك الروم أمر أصحابه باللاذقية ليحملوا الميرة إلى هؤلاء الفرنج الذين على طرابلس فحملوها في البحر فأخرج إليها فخر الملك بن عمار أسطولًا فجرى بينهم وبين الروم قتال شديد فظفر المسلمون بقطعة من الروم فأخذوها وأسروا من كان بها وعادوا.ولم تزل الحرب بين أهل طرابلس والفرنج خمس سنين إلى هذا الوقت فعدمت الأقوات به وخاف أهله على نفوسهم وأولادهم وحرمهم فجلا الفقراء وافتقر الأغنياء وظهر من ابن عمار صبر عظيم وشجاعة ورأي سديد.

ومما أضر بالمسلمين فيها أن صاحبها استنجد سقمان بن أرتق فجمع العساكر وسار إليه فمات في الطريق على ما ذكرناه وإذا أراد الله أمرًا هيأ أسبابه.

وأجرى ابن عمار الجرايات على الجند والضعفى فلما قلت الأموال عنده شرع يقسط على الناس ما يخرجه في باب الجهاد فأخذ من رجلين من الأغنياء مالًا مع غيرهما فخرج الرجلان إلى الفرنج وقالا: إن صاحبنا صادرنا فخرجنا إليكم لنكون معكم وذكرا لهم أنه تأتيه الميرة من عرقة والجبل فجعل الفرنج جميعًا على ذلك الجانب يحفظه من دخول شيء إلى البلد فأرسل ابن عمار وبذل للفرنج مالًا كثيرًا ليسلموا الرجلين إليه فلم يفعلوا فوضع عليهما من قتلهما غيلة.

وكانت طرابلس من أعظم بلاد الإسلام وأكثرها تجملًا وثروة فباع أهلها من الحلي والأواني الغريبة ما لا حد عليه حتى بيع كل مائة درهم نقرة بدينار.

وشتان بين هذه الحالة وبين حال الروم أيام السلطان ألب أرسلان وقد ذكرت ظفره بهم سنة ثلاث وستين وأربعمائة وقد كان بعض أصحابه وهو كمشتكين دواتي عميد الملك هرب منه خوفًا لما قبض على صاحبه عميد الملك وسار إلى الرقة فملكها وصار مع كثير من التركمان فيهم: الأفشين وأحمد شاه فقتلاه وأرسلا أمواله إلى ألب أرسلان ودخل الأفشين بلاد الروم وقاتل الفردوس صاحب أنطاكية فهزمه وقتل من الروم خلقًا كثيرًا.

انتهى .

الإدارة الجيدة

تتطلب أمور تسيير الجيوش والتنسيق بين قطاعاتها العسكرية وتأمين احتياجاتها التموينية والمعيشية إدارة جيدة حتى تتمكن من الحركة والاستمرار في وجه أي طارئ ، وقد كانت الإدارة الجيدة التي أبداها الأمير فخر الملك بن عمار إبان حصار طرابلس في تقدير الأقوات وتوزيع الغذاء وغيره كانت من الأسباب القوية التي ساعدت طرابلس على الصمود في وجه الحصار لمدة خمس سنين متواصلة وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم "ما عال من اقتصد" فالإدارة فن وعلم من العلوم التي تدرس في الجامعات والمعاهد العلمية ، وينبغي علينا كمجاهدين أن نتقن بعض التخصصات الإدارية التي نحتاجها في إدارة المعسكرات أو إدارة بعض المناطق التي نحكمها حتى لا نظهر بصورة مهزوزة أمام شعوبنا وليعلم الجميع بأننا مؤهلين للقيادة .

98 - غزو الفرنج عام اثنتين وخمسمائة للهجرة.

قال ابن الأثير رحمه الله :

في هذه السنة كانت حرب شديدة بين طغتكين أتابك والفرنج وسببها أن طغتكين سار إلى طبرية وقد وصل إليها ابن أخت بغدوين الفرنجي ملك القدس فتحاربا واقتتلا وكان طغتكين فلما اشتد القتال انهزم المسلمون فترجل طغتكين ونادى بالمسلمين وشجعهم فعادوا الحرب وكسروا الفرنج وأسروا ابن أخت الملك وحمل إلى طغتكين فعرض طغتكين عليه الإسلام فامتنع منه وبذل في فداء نفسه ثلاثين ألف دينار وإطلاق خمسمائة أسير فلم يقنع طغتكين منه بغير الإسلام فلما لم يجب قتله بيده وأرسل إلى الخليفة والسلطان الأسرى ثم اصطلح طغتكين وبغدوين ملك الفرنج على وضع الحرب أربع سنين وكان ذلك من لطف الله تعالى بالمسلمين ولولا هذه الهدنة لكان الفرنج بلغوا من المسلمين بعد الهزيمة أمرًا عظيمًا.

انتهى .

الهدنة

الحياة في ظل الجهاد والعزة التي تنتج عن ذلك في شخصية المجاهد تجعل من الصعب عليه بعد أن رآى ذلك النور واستنشق هذا الهواء النظيف أن يرضى بأنصاف الحلول مع أعداء المنهج الرباني الذين يحولون دون تبليغ هذه الرسالة إلى الناس وإخراجهم من تلك الظلمات إلى ذلك النور الذي رآه ! هذا الشعور القوي في حس المؤمن هو من جعل صلح الحديبية من أصعب الأمور التي مر بها الصحابة لدرجة أنهم لم يصدقوا بأنهم سيرجعون ولن يقاتلوا أهل مكة ولن ينقذوا إخوانهم المستضعفين من المسلمين هناك بل لن يتمكنوا من استقبال المسلمين اللائذين بهم مثل جندل وبصير وغيرهم حتى قال عمر بن الخطاب في ذلك اليوم لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ألسنا بالمسلمين ، قال : "نعم" ،قال : أليسوا بالمشركين ، قال : "نعم" ، قال : فلم نعطي الدنية في ديننا ؟

ولكن ما إن رجع النبي صلى الله عليه وسلم من الحديبية حتى نزلت عليه { إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً} فسمى الله عز وجل صلح الحديبية فتحا مبينا لما جره على المسلمين من خير ما كان ليحدث لولا هذه الهدنة ، قال ابن كثير رحمه الله : (قوله {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً} أي بينا وظاهرا والمراد به صلح الحديبية فإنه حصل بسببه خير جزيل وآمن الناس واجتمع بعضهم ببعض وتكلم المؤمن مع الكافر وانتشر العلم النافع والإيمان) . انتهى كلامه .

تبين لنا من ذلك أن لأهل الجهاد أن يلجؤوا إلى القتال أو الهدنة أو الصلح بحسب مصلحة الدعوة وكف بأس العدو ، فإن كانت الهدنة بسبب ذلك ولم تكن بسبب النكول عن القتال والركون للدنيا فلا بأس بها وإن كرهتها نفوسنا فلعل الله يجعل فيها من الخير ما جعله لأهل الحديبية وما جعله للمسلمين في الهدنة مع ملك القدس بقدوين الذي علق عليها ابن الأثير بقوله : وكان ذلك من لطف الله بالمسلمين ولولا هذه الهدنة لكان الإفرنج بلغوا من المسلمين أمرا عظيما ،

99 - غزو الفرنج الأندلس عام خمسة وخمسمائة للهجرة.

قال ابن الأثير رحمه الله :

في هذه السنة خرج أذفونش الفرنجي صاحب طليطلة بالأندلس إلى بلاد الإسلام بها يطلب ملكها والاستيلاء عليها وجمع وحشد فأكثر وكان قد قوي طمعه فيها بسبب موت أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فسمع أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين الخبر فسار إليه في عساكره وجموعه فلقيه فاقتتلوا واشتد القتال وكان الظفر للمسلمين وانهزم الفرنج وقتلوا قتلًا ذريعًا وأسر منهم بشر كثير وسبى منهم وغنم من أموالهم ما يخرج من الأحصاء فخرج الفرنج بعد ذلك وامتنعوا من قصد بلاده وذل أذفونش حينئذ وعلم أن في البلاد حاميًا لها

انتهى .

قوة التدخل السريع

قال النبي صلى الله عليه وسلم : "من خير معاش الناس لهم رجل آخذ بعنان فرسه كما سمع هيعة أو فزعة طار على متنه يبتغي الموت مظانه" تتطلب بعض المواقف رجال من هذا الصنف المتأهب للقتال دائما والجاهز للمواجهات المفاجأة والسريعة ، وقد جاء في الصحيح أنه سمع ضجة في المدينة فخرج الناس فاستقبلهم النبي صلى الله عليه وسلم وهو على فرس لأبي طلحة عري وهو متقلد سيفه فقال : "لم تراعوا لم تراعوا" .

هذه النصوص تأكد على أهمية وجود قوة تدخل سريع جاهزة على مدار الساعة للوقوف في وجه المخاطر التي تحيط بنا وقد اعتمدت بعض الدول المتقدمة على مثل هذه النوعية من القوات وأنشأت ألوية خاصة بالتدخل السريع لحل النزاعات المفاجأة ، والحقيقة أن وجود مثل هذه القوات لدينا يشعر الأعداء باليأس من أن يأخذوننا على حين غرة ، وقد كان خروج الأمير يوسف بن تاشفين السريع لمواجهة خطر جيش أدفونش هو من جعل أدفونش يتراجع ويعلم أن جيشا خرج بهذه السرعة والجاهزية ليس من السهل مواجهته .

100 - قتال الفرنج عند طبرية عام سبعة وخمسمائة للهجرة.

قال ابن الأثير رحمه الله :

في هذه السنة في المحرم اجتمع المسلمون وفيهم الأمير مودود بن التونتكين صاحب الموصل وتميرك صاحب سنجار والأمير إياز بن إيلغازي وطغتكين صاحب دمشق.

وكان سبب اجتماع المسلمين أن ملك الفرنج بغدوين تابع الغارات على بلد دمشق ونهبه وخربه أواخر سنة ست وخمسمائة وانقطعت المواد عن دمشق فغلت الأسعار فيها وقلت الأقوات فأرسل طغتكين صاحبها إلى الأمير مودود يشرح له الحال ويستنجده ويحثه على سرعة الوصول إليه فجمع عسكرًا وسار فعبر الفرات آخر ذي القعدة سنة ست وخمسمائة فخافه الفرنج.

وسمع طغتكين خبره فسار إليه ولقيه بسلمية واتفق رأيهم على قصد بغدوين ملك القدس فساروا إلى الأردن فنزل المسلمون عند الأقحوانة ونزل الفرنج مع ملكهم بغدوين وجوسلين صاحب جيشهم وغيرهما من المقدمين والفرسان المشهورين ودخلوا بلاد الفرنج مع مودود وجمع الفرنج فالتقوا عند طبرية ثالث عشر المحرم واشتد القتال وصبر الفريقان ثم إن الفرنج انهزموا وكثر القتل فيهم والأسر وممن أسر ملكهم بغدوين فلم يعرف فأخذ سلاحه وأطلق فنجا وغرق منهم في بحيرة طبرية ونهر الأردن كثير وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ووصل الفرنج إلى مضيق دون طبرية فلقيهم عسكر طرابلس وأنطاكية فقويت نفوسهم بهم وعاودوا الحرب فأحاط بهم المسلمون من كل ناحية وصعد الفرنج إلى جبل غرب طبرية فأقاموا به ستة وعشرين يومًا والمسلمون بإزائهم يرمونهم بالنشاب فيصيبون من يقرب منهم ومنعوا الميرة عنهم لعلهم يخرجون إلى قتالهم فلم يخرج منهم أحد فسار المسلمون إلى بيسان ونهبوا بلاد الفرنج بين عكا إلى القدس وخربوها وقتلوا من ظفروا به من النصارى وانقطعت المادة عنهم لبعدهم وأذن الأمير مودود للعساكر في العود والاستراحة ثم الاجتماع في الربيع لمعاودة الغزاة وبقي في خواصه ودخل دمشق في الحادي والعشرين من ربيع الأول ليقيم عند طغتكين إلى الربيع.

فدخل الجامع يوم الجمعة في ربيع الأول ليصلي فيه وطغتكين فلما فرغوا من الصلاة وخرج إلى صحن الجامع ويده في يد طغتكين وثب عليه باطني فضربه فجرحه أربع جراحات وقتل الباطني وأخذ رأسه فلم يعرفه أحد فأحرق.

وكان صائمًا فحمل إلى دار طغتكين واجتهد به ليفطر فلم يفعل وقال: لا لقيت الله إلا صائمًا فمات من يومه رحمه الله فقيل إن الباطنية بالشام خافوه وقتلوه وقيل بل خافه طغتكين فوضع عليه من قتله.

وكان خيرًا عادلًا كثير الخير حدثني والدي قال: كتب ملك الفرنج إلى طغتكين بعد قتل مودود كتابًا من فصوله: أن أمّة قتلت عميدها.

يوم عيدها. في بيت معبودها.

لحقيق على الله أن يبيدها.

انتهى .

تخزين السلع الغذائية

تدخل حسابات الأمن الغذائي على خط الحروب وقد تؤثر بشكل كبير في نتائجها ولذا نجد أن كثيرا من الدول تعمد إلى مراقبة المخزون الاستراتيجي لها في المواد الغذائية الأساسية ، أما في حروب العصابات فتخزين الغذاء في الجبال والغابات ضروري لاستمرار الحرب ، وللتخزين شروط يجب أن تراعى وتؤخذ في الحسبان كدرجة الحرارة والحفظ من الحشرات والأمطار وأن تكون هذه المواد الغذائية ذات قيمة غذائية عالية وأن تكون طويلة الأمد حتى لا تفسد مع طول مدة التخزين .

هذا المخزون الإستراتيجي من الغذاء يجب تأمينه في حالة ترقب اندلاع الحرب وهو يعتبر من ركائز الإعداد الجيد ،فإن اندلعت الحرب ووجدنا من التجار من يخزن الطعام بكميات كبيرة بقصد الاحتكار التجاري فهنا يجب التدخل ولو بالقوة لمنعه من ذلك لأن الاحتكار في هذه الحالة سيتسبب في انقطاع المواد الغذائية من السوق وهو ما سيؤدي إلى ارتفاع الأسعار كما حدث في دمشق في هذا العام .

101 - فتح جبل وسلات في أفريقيا عام عشرة وخمسمائة للهجرة.

قال ابن الأثير رحمه الله :

وفيها فتح أيضًا جبل وسلات بإفريقية واستولى عليه وهو جبل منيع ولم يزل أهله طول الدهر يفتكون بالناس ويقطعون الطريق فلما استمر ذلك منهم سير إليهم جيشًا فكان أهل الجبل ينزلون إلى الجيش ويقاتلون أشد قتال فعمل قائد الجيش الحيلة في الصعود إلى الجبل من شعب لم يكن أحد يظن أنه يصعد منه فلما صار في أعلاه في طائفة من أصحابه ثار إليه أهل الجبل فصبر لهم وقاتلهم فيمن معه أشد قتال وتتابع الجيش في الصعود إليه فانهزم أهل الجبل وكثر القتل فيهم ومنهم من رمى نفسه فتكسر ومنهم من أفلت واحتمى جماعة كثيرة بقصر في الجبل فلما أحاط بهم الجيش طلبوا أن يرسل إليهم من يصلح حالهم فأرسل إليهم جماعة من العرب والجند فثار بهم أولئك بالسلاح فقتلوا بعضهم وطلع الباقون إلى أعلى القصر ونادوا أصحابهم من الجيش فأتوهم وقاتلوهم: بعضهم من أعلى القصر وبعضهم من أسفله فألقى من فيه من أهل الجبل أيديهم فقتلوا كلهم

انتهى .

المباغتة

اتفق الخبراء العسكريون قديما وحديثا على أن عنصر المباغتة هو أهم مبادئ الحرب على الإطلاق ، وقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم والقادة الفاتحين من بعده على هذا المبدأ في أكثر المعارك التي خاضوها ، فمباغتة العدو في وقت غير متوقع ومن مكان غير متوقع وبأسلوب من أكبر الأسباب الجالبة للنصر، ولذا فإننا نجد أن معظم سرايا النبي صلى الله عليه وسلم تسير في الليل وتكمن في النهار وتسلك الطرق غير المطروقة لتحقيق هذا المبدأ، وعنصر المباغتة من العناصر التي لا يملكها إلا المهاجم فقط أما المدافع فهو في حالة ترقب ويقظة على طول خطوط المواجهة، فإن نجح المهاجم في مفاجأة المدافع في المكان والوقت والأسلوب غير المتوقع فقد قطع نصف الطريق الموصل إلى النصر_بإذن الله، وهو ما أتقنه قائد جيش المسلمين في فتح جبل وسلات .

تم بحمد الله الانتهاء من الجزء الأول في يوم الاثنين الثالث عشر من ذي الحجة لعام ثلاثين وأربعمائة وألف من هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم والحمد لله رب العالمين.